السلطان سليم خان الأول

يافوز YAVUZ

السلطان القاطع

أوقاي ترياقي أوغلو

رواية

ثقافة للنشر والتوزيع
THAQAFA Publishing & Distribution L.L.C.

الدار العربية للعلوم ناشرون
Arab Scientific Publishers, Inc.
www.asp.com.lb - www.aspbooks.com

السلطان سليم خان الأول

ياووز Yavuz

السلطان القاطع

رواية

أوقاي تریاقي أوغلو

OKAY TIRYAKIOĞLU

ترجمة

مصطفى حمزة

مراجعة وتحرير

مركز التعريب والبرمجة

الدار العربية للعلوم ناشرون ش.م.ل
Arab Scientific Publishers, Inc. S.A.L

ثقافة THAQAFA
للنشر والتوزيع ذ.م.م.
Publishing & Distribution L.L.C.
الإمارات U.A.E.

بسم الله الرحمن الرحيم

ISBN 978-02-614-0591-8
يتضمن هذا الك تاب ترجمة النسخة التركية
Yavuz
نشر هذا الكتاب بدعم من وزارة الثقافة والسياحة في الجمهورية التركية
ضمن مشروع

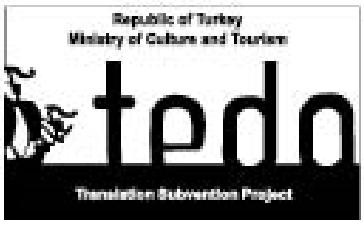

TEDA by sponsered is Translation
Bakanligi Turizm ve Kultur . C . T
Mudurlugu Genel Yayimlar ve Kutuphaneler
ıŞ Say Eski) 4 : No ı Bulvar Cumhuriyet Mahallesi a Ş Pa Fevzi
(ı Binas tay
TURKEY / ANKARA / Ulus 06030
tedaproject . www : Web - tr . gov . kulturturizm @ teda : mail - e
com .

حقوق الترجمة العربية مرخ ّص بها قانوني ًا من الناشر Timas
i Publishing
بمقتضى الاتفاق الخطي الموق ّع بينه وبين الدار العربية للعلوم ناشرون ،
ش . م . ل .
2011 ,Publishing Timas © Copyright
. S . Inc , Publishers Scientific Arab by 2013 © Copyright Arabic
L . A

السلطان سليم خان الأول (ياووز)
تأليف: أوقاي ترياقي أوغلو
ترجمة: مصطفى حمزة

تمت ترجمة هذا الكتاب بمساعدة صندوق منحة
معرض الشارقة الدولي للكتاب للترجمة والحقوق
الطبعة الأولى
1434 هـ - 2013 م
جميع الحقوق محفوظة للناشرين

الدار العربية للعلوم ناشرون
Arab Scientific Publishers, Inc.

عين التينة ، شارع المفتي توفيق خالد ، بناية الريم
هاتف: 786233 - 785108 - 785107 1 00961
ص.ب : 13-5574 شوران - بيروت 2050-1102 – لبنان
فاكس: 786230 1 00961 – البريد الإلكتروني: asp@asp.com.lb
الموقع على شبكة الإنترنت: www.asp.com.lb //:http

ثقافة THAQAFA
للنشر والتوزيع ذ.م.م.
Publishing & Distribution L.L.C.
الإمارات U.A.E.

أبوظبي هاتف: (+971–2) 6345404 فاكس: (+971–2) 6345407
دبي هاتف: (+971–4) 2651623 فاكس: (+971–4) 2653661
بيروت هاتف: (+961–1) 786233 فاكس: (+961 –1) 786230
يمنع نسخ أو استعمال أي جزء من هذا الكتاب بأية وسيلة تصويرية أو الكترونية
أو ميكانيكية بما فيه التسجيل الفوتوغرافي والتسجيل على أشرطة أو أقراص

مقروءة
أو أية وسيلة نشر أخرى بما فيها حفظ المعلومات، واسترجاعها من دون إذن خطي من الناشر.
.
قديماً قيل: إذا أردت هلاك شخص ما ادعو له
أن يصبح وزيراً لدى السلطان سليم خان
(ياووز)

أوقاي ترياقي أوغلو

ولد في مرسين عام 1972، وأمضى طفولته في أرن كوي - إسطنبول، تفتحت عيناه في عالم الأدب من خلال هدايا أمه التي تدور حول قصص الألغاز والكوميديا السوداء. ترك جامعة بلكنت عام 1994 قبل أن يُتمَّ دراسته فيها متفرغاً لعالم الأدب، وأحب العيش دائماً في البلاد الأجنبية البعيدة الغامضة.

كانت رواية دعوة الظلام من إصدارات دار بيان؛ أولى رواياته الأدبية، والتي نال عليها جائزة أفضل رواية لعام 2002. وصدرت روايته الثانية الظلال عام 2004، أعقبها برواية ليالي ألف عام 2005، كما لقيت روايته حصار 1453 عام 2009 مع روايتَي القانوني وياووز اهتماماً كبيراً لدى قراء الروايات التاريخية.

من مؤلفاته:

القائد (2009).

الحصار 1453 (2009).

ياووز (2009).

مراد الرابع (2010).

القانوني (2010).

مولانا (2011).

عبد الحميد (2011).

مقدمة المؤلف

قارئي العزيز؛ لا يمكنني البدء قبل أن أجيب عن سؤال طالما سُئِلت عنه: لماذا انتقلت من أجواء الرعب والمغامرات المثيرة المشوقة، وخرجت من أسلوب الفن القوطي، إلى عالم الروايات التاريخية الرائع؟ وكيف؟

عزيزي القارئ الحقيقي: في طفولتي ومطلع شبابي، كنت أحب أن أمد يدي، فأقتطع قطعة ولو كانت صغيرة، من سلسلة الأحداث الغامضة التي تشكّل تاريخنا، وأعيد تشكيلها في عقلي، وأتصرف كما لو كنت بطلاً من أبطالها. فقد كان ذلك بمثابة النافذة التي أطل من خلالها على الماضي، والتي تهبّ منها نسمات غامضة فوّاحة تكاد تخطف مني عقلي. لكنني في السنوات الأولى من حياتي المهنية في عالم الكتابة كنت منغمساً في العالم المروع الذي يجمد الدم في عروقي، ولم يكن في مخيلتي شيء من الروايات التاريخية. ومع مرور الأيام، بدأت أميز أن التاريخ في الواقع حقيقة تسري في كل تفاصيل حياتنا، ومن الضروري أن نعيد تشكيل هذا التاريخ، وعلى الأخص تاريخ أمة كأمتنا، بلغت في تاريخها مقاماً استثنائياً مليئاً بالنضال ومثيراً للإعجاب، وتقديمه من جديد. لهذا يتوجب عليّ هنا أن أقدم شكري للناشرة السيدة أمينة أوغلو التي كانت الأولى التي شجعتني على هذا العمل.

ولا يمكنني أن أنسى أيضاً مساهمات صديقيّ الكبيرين سرجيو غاليمبرتي وفابيانو بدرتي. فقد كانت صحبة المصارع العجوز سرجيو (ميلانو - مدالي) في صحراء آسيا الوسطى وبراريها قيّمة جداً، وهو من أحفاد قبطان سفينة حربية جنوية، شاركت في الدفاع عن إسطنبول. أما فابيانو فجد جده تاجر من تجار البندقية، كان يحاول أن يروّح عن نفسه على طريقة ماركو بولو في الزوايا المنسية من وسط آسيا التي كانت على علاقات غير مريحة مع السلطنة العثمانية. فقد قطعنا معه آلاف الكيلومترات على الرغم من تأخر انضمامه إلينا، فشاركنا الشامانيين في طقوسهم الغامضة المليئة بالألغاز، وأصغينا السمع إلى ذوي الأفواه الفارغة من الأسنان الذين يستقرون في خلوات الكهوف، ويتمتمون اللعنات التي لا نستبين معانيها، أما في المساجد القديمة حيث كنت أسجد، فكان صديقاي يبتهلان بالدعوات وهما جاثيان على رُكَبهما. ولا تزال الحكايات التي تبادلناها هناك في جبال طانري في ظلال السفوح القاتمة عندما هاجمتنا الذئاب في تلك الليلة التي أمضيناها على أكوام التبن في إحدى الإسطبلات، تطن في أذني.

هكذا عزيزي القارئ؛ تشكَّل ولعي بالتاريخ، واستقر في نفسي إحياؤه من

جديد في ظلال حقائقه وأساطيره.
هنا ينبغي لنا ألاّ ننسى أبداً أن التفاصيل الرمادية من الحياة تخنقنا، فلا تنظروا إلى الوجوه المصطنعة للحياة من خلال التلفاز والكومبيوتر والإنترنت إلا على أنها ألوان مختلفة لهذه الوجوه الرمادية. إنها تكذب علينا، فالنعم المضيئة التي تسود الأزمنة المعاصرة؛ لم تزد أعماقنا إلا ظلمة، لكنني على ثقة بأننا بالقراءة سنتجاوز معاً ذلك الثقب الأسود الكبير، فهيا معاً.

الفصل الأول:
البدايات
I
خرج الثعلب من مأواه عند شروق الشمس، فتطلّع إلى ظلّه منذهلاً، وقال: "سأتغدّى اليوم جملاً"، ثم مضى في سبيله يبحث الصباح كلّه عن جملٍ. وعند الظهيرة تفرَّسَ في ظلّه مجدداً وقال: "إنّ فأرةً واحدةً تكفيني".
جبران خليل جبران (الثعلب)
إسطنبول؛ تشرين الثاني 1479
صادف تطهير ابن يعقوب السلانيكي الكبير - صاحب امتياز أهم معمل للزيوت والصابون والشمع بين المعامل الممتدة على طول شواطئ مرمرة - يوم السبت الأخير من شهر تشرين الثاني، لذلك كان هناك نشاط وحركة غير طبيعيين في البيوت المتداخلة والمبنية من الأخشاب والآجر الأحمر في أطراف منطقة غلطة.
كانت الغيوم المتلبدة للشتاء القادم تسيطر على سماء المدينة، والرياح الشمالية الباردة تعم الأرجاء، وكان الدخان يتصاعد من المداخن، وطيور الشتاء تحلّق بأجنحتها في السماء الرمادية، وكان انعكاس ما تيسر من ضوء الشمس على الغابات بلونها النحاسي حول الوديان المنحدرة من التلال إلى الخليج وصولاً إلى المضيقُ يزداد خفوتاً. أما الحيوانات المتوحشة التي ملأت بطونها، واكتنزت دهونها وشحومها، وشمت رائحة الثلوج، فبدأت بالاختباء يوماً بعد يوم داخل الأدغال الخضراء الهادئة الواقعة خلف المدينة، كانت تعرف وظيفتها المحدَّدَةَ وتغذِّي نفسها، وتشم بخطومها الهواء بامتنان، وكأنها تعرف أنها تعيش في فصل الرقاد، والذي بفضله ستكون كل القوافل المسافرة آمنة.
كانت آثار حزنٍ قديمٍ لا يعرف تاريخه، تعلو وجوه الشيوخ المتكئين على عصيهم، وقد تساقطت أسنانهم، ولم تكن آثار الدهر أقل ظهوراً على وجوههم من آثار الحزن، وكانت الرياح الرطبة المتسللة عبر الحارات الجانبية تشتد عند زوايا الشوارع الرئيسة المرصوفة بأحجار منحوتة بعناية، وكانت محملة بالأوراق الجافة المتساقطة من الأشجار. أسرع أصحاب اللحى البيضاء الخطى نحو المساجد الدافئة، يبحثون عن مكان قرب الموقد، يتذكرون مع الأقران، الخوالي من أيام الفتح الكبير، ويستعيدون بتلك الذكريات مجدهم القديم بعد أن وهنت أبدانهم.
في الغرف المخفية خلف الشرفات المشبكة بقضبان الحديد، كانت النساء

يراقبن أفق المدن المزين بالقباب والمآذن العظيمة، ويتسلين بأحاديث عن السلالة الحاكمة، فكن يتناولن السحلب الساخن ويشربن الأشربة، ويروين عن السلطان محمد خان الفاتح وعائلته ما لا يستطِعن تصديقه، ويتناقلن حكايات لا تنضب عن الأمير الذي كان يجول قلقاً بين العامة بخفة ظل وبهيبة كبيرة؛ فقد كان مرشحاً للعرش بعد الفاتح.

كان صفير الرياح الباردة في الشوارع الضيقة يصم الآذان، والأمطار المنهمرة على طول المضيق، تبث الخوف، وتحمل على الصمت، فتنقطع الجلسات الطويلة فجأة، وتهدأ الهمسات، وكانت الأمهات يرين في أولادهن وهم يغالبون النعاس في أحضانهن، أمراء من أبناء صاحب السلطة والسلطان. وبين النوم واليقظة، والحلم والحقيقة، وفي أعماق ذلك العالم العظيم، كان كل واحد منهم يغدو بيازيد أو جم سلطان، يستلان سيفيهما ويتقاتلان من دون هوادة من أجل العرش.

وكما اعتاد الأغنياء أن يفعلوا في مثل تلك المناسبات، أمر يعقوب أفندي بتوزيع لحوم الذبائح في الحارات البعيدة عن القصور، وفي المعاهد الدينية ذات القباب الدائرية المثمنة العظيمة التي ينبعث منها نور المعرفة إلى قبة السماء، حيث ردد الطلاب أدعية الشكر. وكان المتبرعون للمكتبات الداكنة التي ينكسر عندها ضوء القناديل المتسللة من خلال نوافذها ذات القضبان الحديدية، بوجوههم الخاشعة المتوضئة، وأجسادهم الضعيفة الباهتة يظهرون أحياناً، ويختفون أحياناً، ويبذلون جهدهم في إخفاء أعمالهم الخيرية. كان الطعام في ذلك اليوم مجانيًّا في المطاعم، وكانت أنواع الحساء ومرقة اللحم تنقل بالقدور الكبيرة، وأسياخ الكباب تتوالى على المواقد، وأطباق الأرز تدور على الموائد النظيفة.

ظهر في حديقة قصر السيد يعقوب أفندي التي تحيط بها الفوانيس الملونة، شبان شجعان أقوياء أشداء قادمون من زاوية أخي (1) ، وهم يعتمرون عمامات بيضاء ويلتحفون عباءات طويلة ناصعة البياض، يقدمون هدايا من عملهم، وألسنتهم تلهج بالنصائح والدعاء. وفي زاوية أخرى من الحديقة يجتمع دراويش التكية المولوية، في حالة من الهدوء والانطواء كعادتهم. كان أفراد الأخية (2) والمولوية يقتربون من بعضهم أحياناً وكأنهم ينسون صراعاتهم القديمة التي يعود تاريخها إلى القرن الثالث عشر. ففي مثل هذه الأيام الخاصة يجامل بعضهم بعضاً، وإن لم يكن ذلك نابعاً من القلب، ويتهربون من اللقاءات الطويلة.

عاد الدراويش إلى زواياهم بعد الطعام والدعاء بالبركة، وحان وقت الإثارة

والتسلية والحماسة الذي يشيع في الحارات. كان دوغرو (3) ، الولد الذي سيتم تطهيره، يتجول على صهوة أحد الأحصنة بين الحارات، وكان ذاهلاً بالهدايا التي قدمت له، وقد نسي الخوف مما سيحدث له بعد وقت قصير، فهو بلا شكّ محطّ اهتمام الجميع. في خضم ذلك الازدحام؛ قام الجرّاح روم باختطاف الصغير دوغرو، وأتم عمله بخفة ورشاقة، واستحق فوق أجرته بقشيشاً، ولم يتهرب يعقوب أفندي من ذلك، وأجزل العطاء.

يقال إن يعقوب أفندي السلانيكي لم يتخلَّ عن أصله، ولم يُسلم قطّ، ولم يره أحد في مساجد حارته أو معامله. ويرى بعضهم أنه تخرج من الأندرون (4) ، ولكن يقال أيضاً إنه ليس له اسم في سجلات قيودها، وبما أنه من المستبعد أن يقوم قاضي غلطة السيد خضر - وهو رجل مشهور بعدالته - بغش وتلاعب بالسجلات، فلا يمكن لأحد أبداً أن يتحدث عن وثائق غير قانونية، ولا يجرؤ أحد أن يسأله عن أمر ليس له علاقة به. لكنه لا يمكن لأحد أن يتخيل أن يتمكن من إنشاء مركز تجاريّ كبير ويتوسع في أعماله التجارية المتنوعة لو لم يكن له سند قوي من الدولة. فمن المعروف، أن يعقوب يملك مستودعاً كبيراً للحرير في مقاطعة ريالتو في البندقية، ويشاع أن هذا المخزن يشكل مركزاً رئيساً لتجارة الحرير والأقمشة الحريرية في شمال أوروبا. فمن هو هذا الرجل؟ كان يعقوب أفندي رجلاً غامضاً، لكنه كان يرقى إلى رمز بشخصيته المعتبرة بين الناس، وحبه للخير، ونجدته للملهوفين، وسيغدو عند الأرثوذوكس قديساً، وعند المسلمين ولياً من الأولياء العظام المجهولين.

في الفترة الأخيرة كانت الثرثرة السلبية الوحيدة التي تظهر في حق يعقوب أفندي، هي أن الولد الذي تم تطهيره قبل وقت قليل لم يكن من زوجته الثالثة، بل كان من إحدى جواريه، بل إن بعضهم يقول إن هذا الولد لاتيني، تم شراؤه من سوق الأسرى مباشرة. وربما كان هذا الولد اللطيف، يشبه الفرس أيضاً بوجهه العريض، وملامحه الجميلة، وبشرته السمراء الناعمة. لم يكن يبدو عليه أنه يتجاوز الثامنة من العمر. لم يكن السيد يعقوب أسمر، ويعتقد كذلك أنه لم يكن بين نسائه امرأةٌ بهذه السمرة، ولكن من يعرف الحقيقة؟

في عصر ذلك اليوم البارد من تشرين الثاني، وبينما كان أهل غلطة يستمتعون بألعاب الجمباز، وعزف الغيتار من الغجر، وكان الأطفال يقهقهون في غرفهم المظلمة وهم يلعبون ألعابهم المختلفة، وقبل أن تغرب الشمس؛ تحول المكان إلى نهار بالمصابيح التي أضيئت. كان بعضهم يقولون إن

السلطان سينضم إلى مجلس الفرح والترفيه عقب صلاة العشاء. وقد انتشر الخبر من دون معرفة مصدره، وازداد السرور والنشاط في ذلك الازدحام إلى درجة لم يلاحظ معها أحد انضمام أربعة أولاد غير عاديين.

II

كان كبيرهم يقول: "لن يستغرق الأمر طويلاً حتى يظهر إفلاسنا"، وكانت تظهر عليهم آثار النعمة، ويبدو أنهم إخوة. كان كبيرهم فتى نحيلاً، طويل القامة، مهذباً، يبلغ الخامسة عشرة من عمره، وكان ينظر إلى الجمع بابتسامةٍ مشرقة تزيد من جمال وجهه، وعلى الرغم من بساطة القماش اليمني الذي لفه حول قلنسوته المصنوعة من الشعر، فإن سترته الحمراء من القمحا (5) فوق قميصه القطني الحريري من القماش البورصوي (6) ، والذي يبدو تحت قفطانه الصوفي الأبيض، كانت تلفت الأنظار، ولولا سترته المطرّزة بالذهب وحذاؤه اللامع الفاخر، لكان من غير الممكن تمييزه عن الآخرين. باختصار، لم يكن الفتى موفقاً في إخفاء غناه الفاحش، وتميُّزَهُ عن النظرات الدقيقة المتفحصة.

أما أخوه الثاني فكان يبدو أنه يقاربه في السن، لكنه احتاط لنفسه أكثر، فجاءت ملابسه أكثر خفاء وأشدَّ بساطة، فقال لأخيه الكبير في أدب بالغ، وكأنه يؤيده: "نذهب أولاً لمشاهدة لعبة الظل وألعاب الجمباز، ثم نأكل الزبدة والعسل مع اللوز المحمص". كان يتحدث بحياء ولطف كبيرين، وكانت الظلال التي تتكسر على زوايا شفتيه المتبسمتين، تضفي على وجهه بهاء مؤثراً، وعندما لم يسمع جواباً، أضاف قائلاً: "وعلى الطاولة في تلك الزاوية تباع العطور"، ثم أدخل رأسه في فرو ياقة القفطان الذي يشبه في لونه قفطان أخيه، وتابع بهدوء: "فصغارنا يحبونها كثيراً". وانقض من الغيوم الرمادية الخفيفة فوقهم صوت الرعد، ينذر بهطول الأمطار في أي لحظة.

كان الأخوان الصغيران يبدوان أصغر منهما بأربع سنوات أو خمس، وكان القصير منهما أبيض البشرة مكتنزاً، ولم يكن يتجاوز العاشرة من عمره، ومن الواضح أنه لم يكن متوتراً كالآخرين، ولا يقلّ عن أخويه الكبيرين في لفت الانتباه إليه، ولكن ذلك لم يكن بسبب ملابسه.

كان يرتدي فوق قميصه الأبيض سترة جلدية من دون كمين، على ياقتها وكتفيها فرو، وينتعل جزمة من الشعر تغطي سرواله الغامق العريض حتى منتصف ساقه، وعلى الرغم من أن رأسه كان عارياً، فلم يكن يبدو عليه الشعور بالبرد، كان يختلط بالجموع ببرود، والجرأة التي تبدو عليه كانت تستفز أقرانه، وتميزه عن الجميع، أحياناً يرفع حاجبيه الكثّين، ويقوسهما،

وكأنه يفكر أو يستجوب أحداً، ولكنه سرعان ما يعود وجهه للتجهم ويقرر تنفيذ رأيه، كانت تعابير وجهه تتسرب إليها القسوة التي ستبقى في سنواته المقبلة، ومع ذلك كان يتصرف مع الكبار حوله بحذر واحترام. أما الآخر فكان خجلاً خائفاً وهو يتشبث بيد أخيه، إنه أصغرهم، كان يرتدي قفطاناً سميكاً عاجيّ اللون، يضحك من حين إلى آخر في همسات يهمسها في أذنه أخيه، فتتجه نحوهما الأنظار، والقلنسوة الصوفية على رأسه والتي تبدو وكأنها ستسقط عن شعره الحريري متمايلة بفعل الرياح من حينٍ إلى آخر، تكشف عن مشهد البراءة والجمال البديع.

أدرك الكبيران أن الصغيرين لن يسمعا كلامهما، فاكتفيا بمراقبتهما بصمت، وتابعا المسير، وعند المنعطف، رأوا أحد المهرجين يمشي على حبل مشدود بين فرعين أجردين من شجرتي دلب متجاورتين، في يده عصا التوازن يمسكها بعناية وانتباه، ويعلوه سلك مزين بأشرطة ملونة تتلاعب بها الرياح، تمتم أخوهم الكبير وهو يقول: "لا يقوم بهذه الأعمال في هذه الرياح الشديدة إلا أحمق"، لكن بقية الإخوة كانوا يتابعون الرجل مفتونين.

يبدو أن رجلاً عجوزاً من بين الجمع سمع ما قاله الأخ الأكبر، فبدأ بسرد قصة عجيبة عن موت مهرج كبير السن قبل عشرين سنة، كان يريد عبور النهر الأخضر الداكن في وادي غوكسو في يوم عاصف شديد، فاختفى ذلك المهرّج، وقد ذُكِر في الروايات أنه كان يعيش في تلك السنوات غول في الوادي ويبتلع سمك السلور في لمحة. لم يصدق أحد تلك القصة عدا الأخ الأصغر، ولكنهم لم يريدوا إحراج العجوز، إلا أن الأخ الأكبر بدا عليه توتر المراهقين وهو يقول للعجوز: "اغرب عن وجهي أنت وأكاذيبك". أنهى المهرّج عرضه، ووقف يودع المتفرجين، وسرعان ما خلا المكان من الإخوة، وتفرقت الجموع.

اشترى الصغار حلوى الراحة المعطرة بماء الورد والمحشوّة بالجوز، ولم يلقوا بالاً للأخ الأكبر الذي حاول الاعتراض زاعماً أن الراحة الملفوفة بقطع القماش الرقيقة ليست نظيفة، وبعد دقائق كانت الراحة التي يتجاوز وزنها الأوقية قد اختفت بالهناء والشفاء.

ظن الأخ الأكبر لوهلة أن قضية الراحة المُمَسَّكَة كانت القطرة التي فاضت بالكأس الممتلئة، وربما يرى بوضوح أن الشخصية القيادية الجموح لأخيه الصغير ذي الحاجبين الكَثّين ستفعل فعلها في سنواتهم القادمة. لذلك، وربما لإثبات أنه الأخ الأكبر، قال وعلى شفتيه ابتسامة ذات معنى: "سيقوم جدي السلطان محمد خان بتطهيرنا هكذا في العام القادم".

تهلل وجه الأخ الثاني، والتفت إلى الصغيرين وهو يقول: "من يدري ما الهدايا التي سننالها؟". فقاطعه الكبير بابتسامةٍ عريضة: "وهل تنسينا تلك الهدايا الآلام؟".
لاحظوا ابتعاد أصغرهم عن الجموع، وقد وضع في فمه قطعة كبيرة من الراحة، والتفت إلى إخوته محاولاً أن يقول شيئاً، ولكنّهم لم يسمعوا منه سوى همهمات لم يفهموا منها شيئاً.
أمسك الأخ الثالث بيده، وهو يقول: "إنه يقول ذلك ليخيفنا، فلا تهتم به، وقد قال لي أبي: إن الصغار لا يشعرون كثيراً بالألم، وهما سيشعران بالألم أكثر منا".
حاول الأخ الأكبر أن يتماسك في موقفه، فتابع: "فكر في ما تريده وقل ما شئت، فأنت تظن هكذا. ولكن قل لي هل طُهّرت من قبل؟".
- لم أُطَهَّر من قبل، ولكنك أيضاً لم تُطهّر من قبل يا أحمد، وأبي يعرف أكثر منك.
أدرك أحمد أنه ضرب فأسه على الصخر مرة أخرى، ولكنّه حاول الحفاظ على كبريائه، فتابع: "اسأل أخاك قورقوت يا سليم". والتفت إليه متابعاً: "أليس كذلك يا قورقوت؟ وإلا فما الفرق بين أن تكون صغيراً أو كبيراً؟ ثم أليست أمثال هذه الحفلات الكبيرة لتنسينا ألم التطهير؟".
ردَّ سليم بنظرات حادة، وعتاب مغزول بخيوط من الحرير: "لماذا تصر على هذا الحديث يا أخي أحمد، ألا ترى أن شاهنشاه يخاف؟".
عاد المراهق يقول تحت تأثير شعوره بأنه أكبر إخوته: "طبعاً، أفعل ذلك بالتأكيد، لأنني أخوكم الأكبر".
استيقظت أحاسيس الرحمة الفطرية في نفس قورقوت، فقال: "لا يا أخي، ينبغي لك ألاّ تفعل ذلك". ثم التفت إلى أخويه الصغيرين يقول لهما: "لا أظن أننا سنتألم كثيراً"، ثم ضحك قائلاً: "يقال إن المُطَهِّرَ الجرّاحَ يعطي قبل كل شيء عشباً له رائحةٌ جميلةٌ يفقد معها الإنسان وعيه، وينسى كل شيء، ويذهب بخياله إلى مكان بعيد، ثم يقوم بعمله بخفة. في الحقيقة لا يستغرق عمله طويلاً، حتى إنك تكاد لا تدرك أنه بدأ حتى ينهي عمله".
لم يتمكن أحمد من شفاء غليله، وهاجم مرة أخرى وهو يتذوق مرارة الهزيمة: "أخوكم قورقوت يؤلف حكاية حتى يهدئ من مخاوفكم، فالإنسان يتلطخ بالدماء لدرجة أنه..."، لكن سليم كان مستعداً للرد على كل هجوم، فقاطع أخاه، وقال: "أنت تحاول تخويفي، لكنك عبثاً تفعل، فأنا لا أخاف من الآلام، ولكن جدي ماذا سيقول إن سمع أكاذيبك؟".

مدَّ أحمد يديه حتى أمسك بياقة أخيه، وتمتم: "سأقتلك إن قلت شيئاً لجدي".
اندفع قورقوت محاولاً تهدئة الموقف خوفاً من أن يتحول التوتر إلى شجار يؤذي سليم: "انتبهوا، هناك في ذلك الركن رجال يلعبون الشطرنج، هيا يا أحمد، فأنت تعرف أن سليم ماهر بلعبة الشطرنج". كانت يدا أحمد لا تزالان تقبضان على ياقة سليم، وبدأ سليم يتنفس بسرعة، وقد اتسعت عيناه، ومالت إلى الاحمرار الخفيف، كان يعرف أن قورقوت لن يستطيع أن يفعل شيئاً إذا ما ضربه أحمد.
لم يحول سليم نظراته عن عيني أحمد قطّ، ولكن الحدة التي كانت في صوته بدأت تضعف وهو يقول: "ارفع يديك عن ياقتي". رد عليه أحمد في نزقٍ: "وإن لم أفعل فماذا سيحصل؟". هكذا، أصبح واضحاً للجموع أن هؤلاء الأولاد المجهولين هم أبناء حسب ونسب، فتقدموا نحوهم بهدوء.
قال قورقوت: "لا تفعلوا هذا، فنحن نلفتُ الانتباه، وأنتم تعرفون خطورة ذلك، يكفي أننا أتينا إلى هنا من دون استئذان، ويمكن أن نقع في ورطة كبيرة".
هدأ الولدان قليلاً، وصمتا، وقبل أن يمضي وقت طويل، همس أحمد في أذن سليم: "سيأتي يوم أكون فيه على العرش، وأقف أمامك، وأكون السلطان، وعندها سأرسلك إلى أبعد مكان في البلاد". في هذا الوقت كان قورقوت وشاهنشاه بين الجموع المحتشدة حول مرآةٍ تعكس صور الأشخاص بشكل مضحك، عليها غطاء، تُفتَحُ بالأجرة، فتظهر من خلالها أشكال هزلية متضاربة، تثير التعليقات، ويتضاحك لها المشاهدون.
أجابه سليم في تحدٍّ، وقد ظهر سواد خفيف من ظل حاجبيه الكَثّين: "ولئن صرت أنا السلطان؛ فسآمر بخنقك بوتر القوس".
سمع الإخوة هذا الكلام، وابتعد شاهنشاه عن أخيه سليم، والتصق بقورقوت، أما أحمد، فقد جحظت عيناه وهو ينظر إلى أخيه بذهول، ولم يستطع أن يقول كلمة واحدة، ولم يعد يسمع بينهم سوى هدير الريح البارد.
كان هذا مصدر قلق تتشابه فيه كل السلالات الحاكمة في العالم منذ الأزل. كان على كل أمير أو شاهزاده أن يحذر من إخوته أولاً، ولما كانت التقاليد العثمانية الموروثة من عهد الإمارات التركية خالية من قانون للتوارث على الحكم، ويقوم مقامه الاعتقاد بأن الله تعالى يقدر العرش لمن يستحقه؛ فإن ذلك كان يجعلهم مختلفين نسبياً عن نظرائهم في

الإمبراطوريات الأخرى، فالأمراء هنا بعيدون قليلاً عن الثقة بحقهم في العرش. كان لا بد للأمير أن يكتسب ثقة الشعب والجيش، ويظهر نفوذه فيهما، ويتوقف ذلك على شخصيته وعلاقاته، لذلك كان يمكن أن يصبح بعضهم جلادين لبعض كلما طالت أعمارهم، ولم يكن بالإمكان تأسيس المودة القوية بين الإخوة.

قال قورقوت مبتسماً: "إن سليم يمزح، جدنا يطلب منا دائماً أن نعين بعضنا، وليس مهماً من هو السلطان، فنحن إخوة، والأُخُوَّةُ أهم شيء في الدنيا".

صرخ أحمد: "فكّر أنت كما تريد، ولكن اشكر الله أنه أصغر منا يا قورقوت، لو كان دوره في العرش قبلنا لخنقنا هذا المجنون".

ضم قورقوت سليم من كتفه وهو يضحك: "أخي الفريد، طيب القلب، يحب إخوته السبعة فرداً فرداً، ولكنه عصبي قليلاً، ولا تنسوا احتمال أن يكون عمي جم، هو السلطان قبل أبي، لأن جدي يدعمه".

أخفى الأولاد عن بعضهم وجوههم التي غابت عنها الحيوية فجأة عندما تذكروا هذا الأمر المحتمل.

عاد قورقوت يحاول تهدئة التوتر، وتغيير مجرى الحديث: "هيا نمضي، ولنشاهد هؤلاء الغجر".

هناك في مكان غير بعيد اجتمع حشد كبير من الناس أمام خيمة حمراء من الشعر منصوبة في حديقة القصر وأمامها مجموعة من الغجر والعازفين، وفي مكان غير بعيد منهم، تمتد طاولات متلاصقة على شكل مربع، وعليها أطباق الأرز المزينة بأنواع من لحوم الصيد المختلفة. كانت الأيدي قلما تمتد للخضار والفواكه الكثيرة.

كان يبدو على الإخوة الآن، وهم يشاهدون الغجر، ويتناولون اللحم ويشربون حساء الخضار المطبوخ بالنباتات المتنوعة التي تفوح بالروائح الزكيّة اللذيذة وكأنهم قد نسوا التوتر الذي أصابهم قبل قليل. وكان الولد المطهّر الذي ينام داخل خيمة ربطت أطرافها الملفوفة بطوق من الحرير؛ قد لاحظ الإخوة الذين ملأوا بطونهم منذ قليل، كانت عيناه المنتفختان من البكاء قد تحولتا إلى خط رفيع وهو يضحك على الغجر برقصاتهم الساخرة العجيبة، لكنه لم يكن يستطيع أن يغفل عن الإخوة من حينٍ إلى آخر. ترى هل يمكنهم أن يصبحوا ذات يوم أصدقاء؟ وأشار الولد وقد عاد الصفاء إلى وجهه الأسمر، وتورد وجهه بالسعادة؛ إلى الإخوة النبلاء، وناداهم وكأنه يعرفهم منذ زمن بعيد.

كان كنعان يبلغ الثامنة من العمر، وتوجه سليم نحوه من دون أن يبالي بنظرات الحشود التي بدأت تجتمع حولهم، وهنّأه. ثم اقترب الإخوة من كنعان الواحد تلو الآخر وفعلوا الأمر عينه، وشجعوه بالكلام اللطيف. ثم همس سليم بصوت ضاع بين جموع الناس: "هل تألمت؟"، ضحك الولد وقال: "لا!"، ثم أضاف: "أنت أكبر مني، ألم تُطهَّر بعد؟".

- لا.

- متى ستطهَّر؟

- في السنة القادمة سيتم تطهيري مع إخوتي.

- لماذا؟

- هذه هي العادة.

شد كنعان معصم سليم بحنان: "لا تخف، إذا أخبرتني عندما يحلّ ذلك اليوم فسأرسل إليك الجراح الذي قام بتطهيري، ولن تشعر بالألم أبداً".

- أشكرك يا كنعان.

- لا داعي للشكر، يمكنك أن تأتي إلى هنا متى شئت، وإن أتيت فسنلعب معاً.

- حسناً، وسأعلمك الشطرنج، فأنا ماهر بهذه اللعبة.

- أريد أن أتعلم الشطرنج كثيراً.

لمعت عينا سليم وقال: تعلمتُ هذه اللعبة من جدي، ووالدي أيضاً ماهر فيها".

سأله كنعان بفضول، وقد سره أن يتعرف على صديق جيد: "من هو أبوك؟ وهل هو موجود هنا؟".

- لا ليس هنا الآن، إنه في أماسيا.

- إذاً، لماذا أنت هنا؟

ضحك سليم وقال: "أنا وإخوتي نقيم عند جدي لنتابع تعليمنا".

- حسناً، هل جدك هنا؟

- لا.

- هل والدي يعرف جدك؟

- كل الناس يعرفونه.

- وهل أعرفه أنا أيضاً؟

- أنت أيضاً تعرفه.

- ما اسمه؟

- لا أستطيع أن أخبرك أكثر من ذلك، ولكن إن أصبحنا أصدقاء، فلربما

ستعرفه.
كان سليم يتحدث إلى صديقه الجديد عن غول ظهر في الأيام الأخيرة يتجول في إسطنبول، عندما اقترب قورقوت منهم بوجهه القلق وهو يبحث عنه:
- أسرع يا سليم. هل تتذكر أولئك الرجال الذين كانوا يلعبون الشطرنج؟ لقد غلب أحدهم جميع الرجال، ويطلب من يتحداه. فكّر أحمد في أنك ستكون منافساً مناسباً، وعرض عليه التحدي.
صاح كنعان: "يا الله! هذا رائع يا سليم، هل تستطيع أن تغلبه؟".
نظر سليم إلى وجه أخيه بحيرة وتردد، وكان يستحيل أن يفهم أي شيء من تعابير وجهه الجامدة. لقد فهم، أو بالأحرى، استشف مما بين السطور أنها بالتأكيد مؤامرة من أخيه لإذلاله، فسأل أخاه بحدة: "أخي قورقوت، هل كنت موجوداً معه عندما كان يعرض عليه التحدي؟".
فكّر قورقوت في سرّه: إنه غير واعٍ، ولا يدرك أنه جارح وقاسٍ جداً، وظهر على وجهه اللطيف المحبب ذهول، وبدا أنه لم يدرك معنى هذا السؤال، لكنه قال: "آه! لا، لم أكن معه، كنت مع شاهنشاه في الحديقة، نأكل حلوى الجزر، ثم... ثم انتبهنا إلى عدم وجوده معنا".
"حسناً". قالها سليم بابتسامة باهتة، ثم رفع رأسه إلى الأعلى حيث الهواء مشبع برائحة الثلوج، كانت الغيوم تبدو وكأنها وَهم تعكسه طبقات السحب التي تستدق فجأة في السماء الرمادية. وأدرك قورقوت أن الصفات الغامضة التي تميز أخاه الصغير عن أقرانه، بل عن إخوته أنفسهم، قد عادت للظهور من جديد، فهذا الولد كأنه رجل بلغ مبلغ الرجال، وليس طفلاً لم يتجاوز التاسعة، وبدا هذا الفتى المعمر في مثل هذا العمر؛ يثير في نفسه المخاوف من الهوة الكبيرة التي تتشكل بينه وبينهم.
أخيراً، وافق سليم وقال: "فلنذهب". واستدار إلى كنعان بوجه باسم قائلاً: "سنلتقي مجدداً، لا تقلق، صرنا أصدقاء، أنت ولد طيب جداً".
- أنت أيضاً طيب يا سليم، وأنت تستطيع أن تغلبه، وتستطيع أن تغلب الجميع، ولكن، اطلب النصر من القلب، فوالدي كان يقول ذلك، اطلبه من القلب يا سليم.
ودّعه سليم بإشارة من يده وهو يغمز بعينيه، ومشى من دون أن ينتظر أخاه، وسرعان ما غاب في الجمع المحتشد للتسلية، وكأن قورقوت لم يكن هناك، لم يكن قورقوت يستطيع أن يخفي ضيقه من غرور أخيه الشديد، مهما عزاه لصغر سنه. ترى هل كان يمكنه تحديد سبب هذا الإحساس

المتنامي عنده؟ أهو الغيرة، أم الغضب، أم الخوف؟ ومهما يكنّ له من حبٍّ، فإنه في ذلك اليوم أدرك تماماً أن أخاه الصغير صاحب شخصية متميزة فريدة.

وصل سليم إلى طاولة الشطرنج من دون أن يستعين بمن يدله على الطريق، كان أخوه أحمد يبتسم وهو يتكلم بهدوء مع اللاعب الضخم الذي يبدو عليه أنه في العقد الرابع من العمر، ويبدو عليه أنه قوي شديد البأس، وكان شاهنشاه مشغولاً بنفسه، وهو يلتهم التين المجفف بسرعة، ويتابع ما يجري حوله بسرور. وعلى الرغم من الفرق البسيط الذي لا يتجاوز عاماً واحداً بينهما؛ إلا أن شاهنشاه كان ولداً عادياً، لا يمكنه إدراك مستوى سليم في تحليل الحوادث، وقراءة ما بين السطور حتى الآن.

وعندما رأى أخاه لمعت عيناه، ومدّ يده إليه بالتين: "أخي، إنه لذيذ جداً"، عندها تحركت كل أحاسيس الحب في أعماق سليم لبراءة أخيه الطفولية دفعة واحدة.

علت الابتسامة الصفراء الباهتة وجه أحمد الجميل، وقال في مظهر من التحدي لا يخفى: "إذاً، لقد حضرت". كان لكلامه مغزى خطيرٌ كأنما هو الهواء الثقيل المسيطر يشتد ويحط فوق رؤوسهم.

"نعم حضرت"، قالها سليم بنبرة تحمل الكثير من التحدي، ثم التفت إلى منافسه وسأله: "هل سألعب معك؟".

أشار إلى كرسي من القش أمامه، وكأنه غضب من وقاحة الولد، وقد ظهر من تحت عباءته مقبض خنجر كبير في حزامه العريض: "نعم أيها الولد ستلعب معي، ألا يعجبك؟".

لم يكد يجلس سليم على الكرسي، حتى مدّ يديه المغلقتين من خلف ظهره، وسأله: "أيهما؟".

أشار سليم إلى يده اليمنى، فكانت الأحجار البيضاء من نصيب الرجل، فبدأ باللعب بعد أن كسب أفضلية البدء في اللعب، وكان لا يكف عن الثرثرة، ويسأل سليم أسئلة بلا معنى، ويحاول أن يشتت انتباهه، فنجح في ذلك في البداية، وعندما بدأت زخات خفيفة من المطر تتساقط على الرجل ازدادت أسئلته سخرية، ولكن سليم كان قد كثّف هجومه. تلبّدت السماء بالغيوم، ولم يكن أحد يعرف بابتعادهم عن القصر، وهم يدركون تماماً أن جدهم إذا عاقبهم فسيضربهم بشدّة. وبينما كان دم سليم يغلي من الرجل الثقيل، ويتحمل سماجته المستمرة، ويحاول جمع أفكاره المتشتتة، خسر أحد فيليه وقلعته اليمنى، وكانت خسارته السريعة الكبيرة عاراً لحق باسمه.

كانت هذه الهزيمة تدل على أنه غِرٌّ حديثٌ في اللعب، ولكن الرجل لم يكن يعرف الصمت قطّ، وكان المجتمعون حولهما يضحكون وهم يتابعون اللعب، ويهتمون بمزاح اللاعب الماهر الخبيث أكثر من لعبه، وعلى الرغم من كل محاولات تشتيت الانتباه، فإن سليم حاصر منافسه عدة مرات.

- إنه ولد عاقل، لكن يبدو عليه أنه لم يشرب الحليب هذا اليوم، بل يبدو من عصبيته أنه لم يغير فوطته.

كانت القهقهات أشد وطأة على سليم من قطرات المطر الباردة المنهمرة، فأخرج من حزامه قلنسوته ووضعها على رأسه وشعره الحريري الكستنائي، وحاول أن يستجمع تركيزه. لقد كان هذا الرجل فرصة جيدة أمامه، تدربه على اتخاذ القرار في الأوقات الصعبة، وقرر وهو يسحب نفساً عميقاً أن يستغل هذا الوضع إلى النهاية، فقام أولاً برسم ابتسامة صغيرة خفية غير ظاهرة على شفتيه، وشعر بصمتٍ مترقب مثير، ورودود الفعل الجارحة كانت قد خَفَّت، والأمطار المنهمرة في تلك الساعة من وقت العصر، قد تحولت إلى كمينٍ ينزلق فوق رؤوس الجمع الثرثار.

عندما كان الرجل ينادي: "أحضروا بعض الزبيب للصغير حتى تقوى ذاكرته"، نجح سليم في محاصرة جناحي الرجل في وقت واحد بهجوم غير متوقع من بيادقه، وفقد الرجل حصانه الأيسر، وبدا أنه حنق كثيراً لفقدانه الحصان الهام ببيدق، لكنه تدارك ذهوله بسرعة، وحاول استعادة زمام المبادرة، وهو يقول: "لقد قلت لكم إنه ولد ذكي، لكن الولد الصغير إن لم تمنحه بعض التشجيع، فلن يصبح ماهراً". لكن سليم استطاع هذه المرة أن يهدد ببيدقه وزير الرجل وحصانه الأيمن، فامتقع وجه الرجل، وفكر طويلاً، في الحقيقة لم يكن يفكر، بل يحاول فقط أن يشتت انتباه الحشد، ويبعدهم عن الطاولة، فشرد بنظره إلى البعيد، وكأنه يستنجد منه معادلة الحل.

وجاءه سؤال مباغت من عجوز تبلغ لحيته منتصف صدره:

- والآن ماذا ستفعل يا سيد؟ كنتَ واثقاً بنفسك كثيراً، فانظر كيف يهاجمك الولد بشجاعة.

سحب الرجل وزيره مضحياً بحصانه الثاني وهو يقول:

- الشجاعة لا تعني شيئاً سوى حماقة.

وهنا تكلم سليم للمرّة الأولى:

- كان الأبطال الشجعان الذين جعلوا الأناضول وطناً للأتراك يتصفون بتسع خصال:

الأولى: قلب قوي، والثانية: ذراع قوية، والثالثة: الهمة، والرابعة: الدرع المتين، والخامسة: قوس مشدود بالعظام، والسادسة: سيفان حادان، والسابعة: حربة تثقب الدروع، والثامنة: صديق صالح، والتاسعة: حصان جيد. والبطل الذي لا يملك حصاناً جيداً يفقد أصالته يا صديقي.

امتقع وجه الرجل مرة أخرى، وقال من دون أن يرفع وجهه هذه المرة:

- لقد كبر هذا ثم عاد صغيراً، من علمك هذا أيها الولد؟

قال سليم وهو ينظر إلى إخوته بين الجمع الصامت المتابع بدقة وانتباه، وركّز عينيه على أخيه أحمد: "إنه جدي، هو من علمني كل هذا".

تحول اللعب في تلك اللحظة إلى كرٍّ وفرٍّ، وتصبب عرق الرجل داخل عباءته السميكة رغم البرد والمطر، وعندما بدأ يفقد حجارته الهامة الواحدة تلو الأخرى، حاول النجاة باللجوء إلى الأنماط التقليدية، لكنه أدرك في ندم وبعد فوات الأوان، أن الولد يعرف كل هذه الأساليب. في تلك الأثناء استسلم الرجل، وقال: "كفى"، وحل حزامه، وأخرج كيساً مخملياً، ورماه لأحمد وهو يقول: "ليكن مالك لك، إن كنت حريصاً على هزيمة أخيك فالعب معه أنت".

بقي أحمد واجماً مورد الوجه خجلاً، وبعد فترة صمت، قال لإخوته: "هيا، لقد تأخرنا بما فيه الكفاية".

III

طرابزون؛ أيلول 1508

- مَن كان يظن أننا سنصبح أصدقاء إلى هذا الحد؟ فقد كنت ولداً وكان ولداً. كيف استطعنا أن نفهم منذ طفولتنا، وبعد ما عشناه من الجنون، أن الدنيا كلها عبارة عن مأوى واسع للمجانين؟ أتذكر الآن ما كنا نقوله، وذكريات الحدائق المشمسة، ولهونا فيها حتى هبوط الليل، وصحبتَنا في الاستراحة بين الدروس، وعشقنا الأول، وتشاورنا في ما ينبغي لنا أن نفعله.

- شردتَ مرةً أخرى يا كنعان.

- ألوذ بعفوكم أيها الأمير، فأنا من حينٍ إلى آخر... وسكت كنعان باشا وهو يحني رأسه، ويحاول إخفاء وجهه في الظل الأبيض لعمامته التي امتدت من تحت ياقة قفطانه المصنوع من البروكار الأصفر، ثم حول بصره إلى النوافذ المطلة على حديقة قصر كومنينوس (7) ، وبدأ يتملى منظر الخريف الكئيب.

استأنف سليم شاه حديثه بهدوء، وهو يفتل شاربه الكثيف المجعد من أطرافه بعناية تزيد من إشراقة وجهه، وقال بشرود: "أعرف أنك تشرد بين

الحين والآخر، تشرد في الأيام الخوالي، تشرد في كيفية تعارفنا يوم تطهيرك، وكيف نَمَت صداقتنا مع السنين. وهذا الصعود، وكأنك تقول: لا أفهم كيف ترى كل هذا وتتصرف في الحياة تصرف المرتاب، وكأن كل شيء فيها حلم".
هزّ الشاهزاده (8) كتفيه العريضتين من كثرة التدريب والرياضة التي يمارسها في رعشة، وتابع: "الحياة يمكن أن تقدم للإنسان، في كل لحظة، مفاجآت غير متوقعة".
تدخل في الحديث هَمدَم باشا (9) صديق طفولة سليم شاه مثل كنعان باشا، وعيناه الباسمتان كالعادة تشعان بالدفء والحيوية: "كنعان باشا أخ عميق التفكير يا أميري، فبينما كان يحلم في مقام الخادم عند أحد الباشوات كغيره من الإيطاليين الذين يُباعون في أسواق الأسرى؛ إذ به يرى نفسه إلى جوار الشاهزاده صاحب الدولة، وهو يجد صعوبة في تصديق الواقع"، ثم نظر إليهما بابتسامة محبٍّ حميم. كانت بعض التجاعيد الخفيفة تظهر حول عينيه الضاحكتين، ورغم شبابه، كان يبدو أكبر من عمره الحقيقي، وكان للحيته التي يظهر عليها الشيب المبكر أيضاً سبب في ذلك، لكنه كان يضفي على نفسه البهجة والسرور، كان من أمهر لاعبي الشطرنج، وأحب الباشوات إلى العسكر. "كنا نظنه ابن السيد يعقوب أفندي، حتى ظهر المستور في السجل يا أخي".
ابتسم كنعان باشا، وقد ظهرت سحنته السمراء عند غروب الشمس أشد اسمراراً، وكان كالأمير عريض الذقن، لكنه ذو لحية، وجسمه الضخم يمنح شخصيته هيبة؛ قال: "حاولت وأبي المعنوي يعقوب أفندي السلانيكي إخفاء السر عن الجميع، لكنني الآن هنا، في موقف يدعو للافتخار، أتذكر خيال القراصنة الذين اختطفوني من سفينة أنكونا التجارية، لقد فقدت عقلي عند رؤية أجسامهم الضخمة، وشواربهم التي كانت كالسيف العريض، وشجاعتهم، لقد عاملوني معاملة حسنة، ووجدت نفسي في سوق الأسرى في إسطنبول، والمهم يا سيدي أن الذكريات الجميلة التي عشناها في طفولتنا تعاود المرور أمام عيني بين الفترة والأخرى. وفجأة، تتسلّل في نفسي كالسم بين تلك الذكريات الجميلة؛ ذكرى أليمة، ألا وهي خطر الصفويين، ولذلك لا يفارقني خيال إسماعيل، إنه شاب شديد الذكاء والحزم وبالغ الخطورة، يتصرف في أغلب الأحيان؛ وكأنه لا يدرك ضرورة التعاون المشترك للحفاظ على الطرق التجارية، رغم أن أهم مركز لتوزيع حرير أسترأباد في أوروبا هو بورصة، وعائداتها السنوية من ضريبة تجارة الحرير فقط 15.000 ليرة ذهبية بندقية".

ثبّت سليم شاه نظره على البحر، وهو يصحح وضعية سترته المصنوعة من الجوخ والقطن، وارتشف شربة صغيرة من شراب الورد الذي في يده، وقال: "لا يزال إسماعيل ولداً، وكل شجاعته التي تتجاوزه، مصدرها ثقته المعنوية بمقام أجداده وهمتهم، وعلى الرغم من أنه لم يتجاوز العشرين، فإنه ينوي هذه المرة استخدام المشيخة التي ورثها من جده الشيخ جنيد ووالده الشيخ حيدر لغايات دنيوية. وهو ليس أحمق إلى هذه الدرجة، ولم يكن يتجرأ على مثل تلك الأعمال؛ لو لم يأخذ ضمانات اقتصادية من الدول الأوروبية وعلى رأسها البندقية".

ارتشف همدم باشا رشفة كبيرة من الشراب البارد الذي ملأه من الإبريق الزجاجي المصنوع في البندقية: "يتم توزيع النسيج الصوفي الأوروبي في الشرق من خلال تجار الحرير عبر بورصة مروراً بتبريز، وأظن أنه يعرف مثلنا على أقل تقدير ضرورة المحافظة على خط بورصة تبريز. وكذلك التجارة الهندية هي الطرف الهام الآخر لهذا الخط، وقد أصبح يسيطر في الواقع على جغرافية تمتد من طشقند إلى ديار بكر. وبالطبع، هو يضع نصب عينيه أن نكون محكومين لإرادته، فقد سيطر على قسم هامّ من طريق الحرير في وقت قصير".

ركّز سليم نظراته الثاقبة، وقلَّبها في وجهي صديقيه وهو يقول: "الفاتيكان هي من تدعمه في شغفه بالقيادة، فحياة الأَسر التي عاشها في صغره، وقتل أسرته، واليأس الذي عاشه، مجتمعة مع ولاء التركمان الصادق له، شجعته على إمكانية بناء الدولة. كما أن موقف دولتنا وموقف مماليك مصر المتردد والخجول يزيدان في إضرام النار المشتعلة في داخله. ويأتي دعم البنادقة والفاتيكان جرعة أخرى تصب في جرأته. إنه لم يكتفِ بالأسطول البندقي، بل يطلب منهم قوات مدفعية أيضاً"، ضحك سليم شاه بعصبية وأضاف: "في الحقيقة، لولا أنه استطاع إقناع التركمان وحملهم على الرحيل من الأناضول، وتبديل مذهبهم، لما استطاع إسقاط آق كويون (10) من السنة، والاستيلاء على السلطة بحملة واحدة بمثل هذه السهولة. كل هذا بسبب الخمول الذي عاشه والدي، وغضه الطرف عنهم".

تحدث كنعان باشا بحذر وكأنه يخفي أمراً ما: "الزراعة طبعاً على رأس موارد دولتنا الاقتصادية، وهذا الوضع يدفع بالدولة العليّة إلى تقييد حياة الترحال الموسمية، والقوانين التي صدرت في هذا الصدد، والمحظورات الأساسية التي قيدت نمط حياة التركمان، علاوةً على تحريض الأسرة القرمانية المنحلة (11) أدت إلى انضمامهم إلى الصفويين. فإسماعيل يمثل الجناح الشيعي،

ويحترم الحقوق العشائرية والتقاليد الشامانية القديمة (12) ، مقابل العثمانية التي تمثل الجناح الإسلامي السنّي. وبالتالي، لا يمكن في هذه الشروط التي نضجت حوله أن نتصور إمكانية عدم نجاحه، ما يعني تأخرنا في الزراعة، وبالتالي فراغ الخزينة".

قال سليم وهو يشجع كنعان باشا على الحديث: "لا يُنكَرُ التصرف الخاطئ لدولتنا في هذا الموضوع".

هز كنعان باشا رأسه يمنة ويسرة، والتفكير يكسو ملامحه: "بناء دولة في الخامسة عشر من العمر... يقال إنه طويل القامة وجذاب يفتن حشداً من النساء كجدِّه لأمه حَسَن، وإنه كما يقال شاعر مثلكم على أقل تقدير يا أميري". وفجأة تغير وجه كنعان باشا، وابتلع ريقه بتردد: "ولكن أليست هناك أسباب غير تلك التي ذكرناها؟ إذا استطعنا تحليل ظهور الصفويين".

قال سليم بحزم: "إنه الحظ يشبه الشمس التي تشرق في لحظة غير متوقعة يا كنعان، لكنها تغرب فجأةً كما ظهرت، وإسماعيل الآن وقد أثمله النجاح السريع، تغطرس إلى حدٍّ يجعل أتباعه يسجدون له، والدولة التي أقامها - 1501م - مصدر قلق ليس لنا فحسب، بل لمماليك مصر أيضاً. وبالتأكيد تدركون أنني لا أقصد الأمن الحدودي معه فقط، فخطورة إسماعيل تكمن في أنه يوجه المذهب بما يتماشى مع رغباته في السلطة. والسبب الذي جعلنا نتقارب مع دولة المماليك للمرة الأولى في تاريخنا إلى هذه الدرجة يعود إلى تراكم القلق من ذلك. وبينما تتصارع الدولتان منذ سنوات طويلة للتقارب مع إمارة "ذو القادر" وهي في وضع المنطقة العازلة في الولايات الجنوبية، فإذا بإسماعيل يدخل إلى أراضينا، ويقتل خالي حفيدَ جدي علاء الدولة بك وابن خالي، واضعاً نصب عينيه الاستيلاء على قيصرية، ما هو السبب؟ إنه رفض جدي تزويجه خالتنا، فإذا كان الجميع يسعون للتقرب من هذه العائلة النبيلة في سبيل زيادة نفوذهم في المنطقة، فلماذا يتخلف إسماعيل؟ لكن المسار الذي اتخذه إسماعيل بدا بمثابة إعلان حرب".

تمتم همدم باشا ببساطته المعهودة: "مع أن الدول الثلاث أسسها الأتراك، لكنها الدنيا الخوانة يتقاتل الكل عليها". قال ذلك وهو يضع كوبه على الطاولة الضخمة المصنوعة من خشب الجوز التي تلمع في ضوء الشمس عند الغروب، وتابع: "ولا يمكن أن نغفل عن سعي الأوروبيين المستمر لإحداث الاضرابات في تلك المنطقة، والبابا كما تفضلتم يستغل الفرص يا سيدي، ولقد علمنا أن مبعوثي البابوية وصلوا إلى الصفويين عن طريق البر متنكرين في هيئة تجار مسلمين. وأكبر حلمٍ لأوروبا أن تتكرر مأساة المغول

التي حدثت في عهد تيمور مرة ثانية، وبدأ حلمهم الذي لم يتمكنوا من تحقيقه في ذلك الوقت بطرد الأتراك من الوجه الآسيوي القريب ينتعش في نفوسهم مجدداً. وحليفهم في ذلك إسماعيل".

قال سليم بغضبٍ: "نعم، عندما كان والدي يحاول توطيد السلام في جنوب وشرق البلاد عن طريق المصاهرة والقرابة، كان في غفلة عن أهداف العدو التي لا يمكن تصورها، وبسبب اللين الشديد المفطور عليه لم يستطع أن يرى البلاد وقد بلغت حافة الانحلال كما قلت قبل قليل يا همدم باشا. ثم، ماذا بالنسبة إلى البرتغاليين وقوتهم البحرية التي تنمو بسرعة لا تجارى؟ عما قريب سيصبحون أسياد البحار؛ الأبيض والأسود وأصحاب الكلمة العليا في المحيطات. لا تظنّا ذلك بعيداً يا صديقيّ، لقد جهّز والدي الأسطول، ووضع على متن سفنها المدافع الضخمة، أقدر ذلك كله، وأدين له بالعرفان، ولكن ما فائدة الأسطول الراسي في الميناء؟".

- ألتمس عفوكم في الجواب عن سؤالي يا أميري.

- تفضل يا كنعان.

- أخاف من غضبكم يا سيدي.

- ارفع رأسك، واسأل سؤالك بأمان يا كنعان باشا.

- ألا يمكن أن يكون قيام جدكم الفاتح، رحمه الله، بكسر شوكة الأمراء الأتراك في البلاد بعد الفتح، وشعور التركمان بالإقصاء بعد السماح للدوشرمة باستلام المواقع الأساسية في البلاد، سبباً هاماً من الأسباب أيضاً؟

- ألم يكن جدي المرحوم على حقٍّ عندما كان يقضي على نفوذ الأمراء الأتراك ونفوذ خليل جندرلي الذي كان يمارس الضغط عليه خلال حصار الفتح ويقال إنه كان يأخذ من أجل ذلك رشوةً من البيزنطيين؟ كان يعرف جيداً أن عاقبته في حال فشل الحصار وخيمة، وكما كان فتح إسطنبول قضية وجود للسلطنة العثمانية، وكان أيضاً قضية سلطة بالنسبة إلى جدي السلطان محمد الفاتح. حسناً، ألم يكن الباشوات من الدوشرمة، مثل زاغنوس وشهاب الدين، خير من وقف معه؟! وهؤلاء الأمراء الأتراك الذين تتحدث عنهم يا كنعان باشا هم الذين خطّوا نهايتهم بأيديهم، وهكذا ترى أنه لم يكن لجَدِّي، رحمه الله، يَدٌ في ذلك.

لم يكن لكنعان باشا أن يناقش سليم شاه حول هذا الموضوع مرة أخرى.

نهض سليم شاه من مكانه بسرعة تناسب هيبته، وزمجر وهو يلوح بقبضته نحو الأشعة الدافئة للشمس المائلة نحو الغروب: "بما أن والدي الذي تولى السلطة بدلاً من عمي جم الذي هلك، لا يستطيع الانفصال عن تيار

أغوات الإنكشارية وبعض الباشوات من غير النبلاء الذين أوصلوه إلى السلطة، فإن إنقاذ هذه الدولة مسؤوليتنا نحن".

1 الزوايا (أخي) ؛ Ahi : تكايا بدأ السلاجقة بتأسيسها واستمرت في عهد العثمانيين ، تقدم المأوى والطعام للنزلاء عابري السبيل والضيوف ، يتم تأسيسها من قبل الأغنياء ، وتنتظم فيها الدروس العلمية والتربوية من قبل العلماء والقضاة ، ويخضع فيها للتربية والتعليم أصحاب الحرف على اختلاف درجاتهم . المترجم .

2 نسبة إلى زاويتهم ، والنسبة اصطناعية غير معروفة في التاريخ . المترجم

3 اسم علم ، ويعني مستقيم . المترجم

4 المدارس الخاصة التي يتخرج منها رجال الدولة عموما ً، وتكون في الغالب ملحقة بالقصر . المترجم

5 نوع من القماش الحريري .

6 قماش فاخر ، حيث كانت بورصة تفتخر بصناعاتها النسيجية . المترجم

7 سلالة مقدونية فريدة بين السلالات التي حكمت الإمبراطورية البيزنطية من دون انقطاع ما بين عامي (1081 - 1185)، وتقع اليوم في ولاية قسطموني التركية .

8 الأمير من أبناء السلاطين .

9 همدم يعني الصديق الحميم ، وهو هنا اسم علم .

10 الآق (الآغ) قويونلو ، (الخرفان البيضاء): من القبائل التركمانية من المذهب السن ّي ، حكمت في شرق الأناضول؛ (أذربيجان وفارس والعراق وأفغانستان وتركستان) في الفترة الممتدة بين عامي 1467 و1502م . عاصمتها : آمد ثم تبريز منذ عام 1468م . يتخذون من الخروف الأبيض شعارا ً لهم . عرقيا ً؛ تنحدر القبيلة من الأتراك الأغوز أو ما يعرف بالغز . بدأت القبيلة شن ّ حملات منظمة ضد بيزنطة منذ العام 1340م ، كان هدفها الأول السلب ، وأول حكامهم قره يلك عثمان (1389-1435م) وقد عينه تيمورلنك حاكما ً من قبله على ديار بكر وما حولها عام 1402م . وبعد عام 1435م بدأ التنافس بين هذه القبيلة وقبيلة الخرفان السوداء (القرة قويونلو) وفقدت الأولى العديد من مناطق نفوذها لصالح الثانية . بلغت الدولة أوجها في عهد حسن قوصون (أوزون) ؛ الطويل (1453-1478 م) وقد تمكن من القضاء على دولة الخرفان السوداء ، وهزم التيموريين في معركة حاسمة عام 1459م ، وبدأ منذ العام 1459م بشن حملات على جورجيا وتمكن من الاستيلاء على كييف عام 1462م ، ثم

خرتبرت (هاربوت) عام 1465م ، وعاد إلى كرمان عام 1471م ليواجه العثمانيين ، لكنه هزم أمامهم رغم تعاونه مع القوات النصرانية عام 1473م . وبعد وفاة ابنه يعقوب عام 1490م بدأ الصراع مع الصفويين الذين استطاعوا أن يجلوا الخرفان البيضاء عن تبريز عام 1501م ، واعتلى الشاه إسماعيل الصفوي حكم إيران (1501 - 1524) ، وقام بفرض المذهب الشيعي على إيران .

11 أقامت الأسرة القرمانية المنحدرة من أذربيجان إمارة قرمان (في ولاية قرمان الحالية) على يد مؤسسها كرم الدين قرمان ، في أواسط القرن الثالث عشر وامتدت حتى سقوطها عام 1487 .

12 ديانة شرقية قديمة ، يبدو أن بعض طقوسها بقيت عندهم بعد الإسلام .

الفصل الثاني:
النضال من أجل العرش
I
الكلام اللاتيني عميق في الأذن.
مثل لاتيني
روما؛ الفاتيكان (شباط 1509)
على الرغم من بعض الأمطار المنهمرة بشكل متقطّع هنا وهناك في ضواحي روما في شتاء العام 1509، فإن الجو كان دافئاً مقارنةً بالسنوات الماضية، وصفحة السماء الزرقاء تتسلل من بين الغيوم من حين إلى آخر مبشرةً بإطلالة فصل الربيع قريباً. في قصر لا تيران، مركز إدارة الفاتيكان، لم يكن يُسمَعُ سوى وَقعِ أقدام الحراس السويسريين وهم يتجولون بملابسهم التقليدية الزرقاء والصفراء والبرتقالية والحمراء، والأصوات الصادرة عن دروعهم اللامعة، ورفرفة أجنحة الحمائم المعششة في القصر. هناك في إحدى غرف القصر التي تغطي جدرانها اللوحات، كان يتشاور رجلان حول مستقبل العالم القريب.
"إسماعيل يا أبانا، رجل يظهر عليه اهتمامه بالعلوم الباطنية في شعره الذي يكتبه باسمه المستعار هاتاي مخلصي، لكن دولته في طريقتها الرسمية تحمل ميول الهيرودوكس (13) ، فهو يبحث عن مقاربة شيعية جديدة داخل التشيع، ليحافظ على دولته متحصناً بأسراره، فيكبر يوماً بعد يوم متحولاً إلى أسطورةٍ في أعين شعبه". كان الكاردينال سرجيو غاليمبرتي يتصبب عرقاً من تحت جبته السوداء المصنوعة من حرير الإستر آبادي وعباءته الحمراء وهو يتحدث، وجفف رأسه الأصلع المتورد الذي يختفي تحت قبعته الأرجوانية المربعة بمنديله الحريري. كان يبذل جهداً كبيراً ليبرز عظمة إسماعيل لقاء الليرات البندقية الذهبية التي أخذها منه، لكنه غاب عنه أنّ خلفَ حركات جوليانو ديللا روفر البالغ من العمر خمسةً وستين عاماً، والذي يعرف بالأب جوليوس الثاني؛ رجلاً لماحاً خبيراً بخبايا النفوس تُذَكِّرُ بالحكماء المذكورين في التراجيديا اليونانية القديمة، علاوةً على أن البابا كان يعلم كل أخباره التي تدور حولها الشكوك، إلاّ أنّه كان يحب العمل مع أشخاص يسهل كشف أخطائهم.
قال البابا: "شخصية إسماعيل تذكر بمحمد الثاني" ثم سأل: "كان محمد حروفياً (يهتم بالعلم)، أليس كذلك؟"، وأخذ يفكر وهو ينظر من النافذة المسورة إلى رمز النصارى الذهبي الذي يلمع تحت أشعة شمس الغروب

فوق قبة دار عبادة سان بييترو العظيمة.
- نعم، لقد اهتم محمد الثاني بالحروفية فترة من الزمن، ولكنه بحلول عام 1450 كان تيار الحروفية قد أزيل من الساحة تماماً بضغط من العلماء.
- إذاً، من الأفضل أن نشبه إسماعيل بشخصية مارسيليو فيسينو الرومانسية.
- وأنا أظنه كذلك يا سيدي.
- كان فيسينو رجلاً غريب الأطوار اهتم بالبحث في مذهب المعتقدين بالفلسفة الإنسانية والتي تدعي أن الإنسان صورة مصغرة في كتاب هرمس. ومن يستطِع شرح ما ورد في الكتاب، فسينال حياة الخلود حسب ما تدعيه عائلة مديشي. وقد عثر على خمسة أجزاء من الكتاب في ترانسيلفانيا، وقرب قصر فلاديمير تبيس حيث أمر محمد الثاني بقتل فويفودا الثالث المعروف بدراكولا. وأحضرت هذه الأجزاء إلى فلورنسا، وترجمها مارسيليو فيسينو إلى اللاتينية...". ظهرت ابتسامة حزينة على شفتَي البابا متأثراً بذكرى مفجعة، وتابع: "مسكين فيسينو سيُرمَى بالهرطقة".
قال غاليمبرتي:
- لقد بحث فيسينو في السيمياء، وتعرض للملاحقة كما هو معروف، ويقال إن إسماعيل أيضاً يملك قدرات عالية في هذا المجال، وبلغنا أنه قام يجمع العلماء في العلوم القديمة من البلدان المجاورة حوله في تبريز، ويستمتع بصحبتهم.
- حسناً، ماذا تقول يا حضرة الكاردينال عن نقاط التشابه القوية بين هاتين الدولتين التركيتين؟
تابع جوليوس من دون أن ينتظر جواباً من غاليمبرتي:
- إن الأغلبية الساحقة في جيش إسماعيل وقصره من الأتراك، ولغة القصر والجيش والدولة هي التركية، وعلى الرغم من ذلك؛ فإن التعليم بين الأتراك يكون باللغة العربية، ولغة الخاصة في القصر هي اللغة الفارسية.
ضحك الكاردينال وقال مازحاً:
- هؤلاء الناس الذين يقلدون بعضهم بعضاً، ويتقاتلون في ما بينهم من أجل السلطة، هم من العرق نفسه، ولا ننسى هنا الدولة التركية الأخرى؛ دولة المماليك التي تتفوق عليهما بوجود مكة والمدينة في حكمها. كما يجب ألاّ ننسى تصارع المماليك في ما بينهم من أجل السلطة... وهذا الوضع لا يختلف عمّا يجري بين المدن الإيطالية.
تسللت نظرات الضيق من عيني جوليوس: "يقال إن الفرس من رعايا

إسماعيل يضيقون ذرعاً بسبب ازدياد الطابع التركي في بلادهم، لكن إسماعيل مقابل ذلك لم يتوانَ عن الضغط بكل قسوة على قبائل التركمان الرُّحَّل في سبيل تشيّعهم، وفي هذا الوضع أرى أن زيادة نفوذ الفرس البيروقراط في البلاد يكون في صالحنا. إننا لا نرغب بالتأكيد في أن يكون إسماعيل ومن يأتي بعده في الدولة الصفوية عثمانياً، أليس كذلك؟! ولا ننسى ما قام به البابا بونيفاسيوس نونوس فتمكن من تحريض تيمور على بيازيد، وكيف دعمه، فلو لم ينجح المغول في معركة أنقرة عام 1402 بهزيمة جيوش يلدرم وتحطيم العثمانيين لكانت دار عبادة سان بييترو الآن مسجداً".

رسم الكاردينال رمز النصارى على صدره بشكل غير إرادي متمتماً.

حوَّل البابا نظراته إلى الجهة الجنوبية من القاعة التي تنتهي بمكتبة ضخمة، وأضاف: "ولكن، ما الذي تعرفه عن حِدَّةٍ لا تليق بشخصية إسماعيل العلمية؟ فأنت الذي تتعامل مع الجواسيس مباشرة يا حضرة الكاردينال".

"إن تشيّع التركمان الرّحَّل يمثل دعوة للتشيّع في حلّهم وترحالهم، والمذهب الشيعي في الحقيقة يناسب نمط حياتهم المتنقلة وغير الثابتة، ولذلك يتقبلونه بسهولة، فهي لا تتعرض لقوانين العشيرة ولا تحدّ من حرياتهم، ومع ذلك فلا يعدمون وجود الرافضين بينهم أيضاً، وعند ذلك، فإن إسماعيل كما تفضلتم، لا يتورع عن إزالتهم كتلاً وجماعات، لأنه وصوليّ في سبيل بلوغ غايته، وهذه الصفة برأيي هي من أحد الأسباب التي أوصلته إلى هذه المكانة رغم صغر سنه، إنه يفكر ويفعل ما يلزم فقط، من دون أن يدرس الأسباب".

- وهذا يعني أن كثيراً من القبائل التي لا سند لها تجد نفسها في ورطة.

- نعم يا أبانا، فالقبائل الرحَّل تعيش في مجموعات كبيرة جداً، والعشائر التي لا ترغب في الترحال تهدد بالمقاطعة من قبل القبائل الأخرى من جهة، وتحذر عقاب بني عثمان من جهة أخرى، والعشيرة التي تقع بين خيارين، ترجح إسماعيل الذي هو من التركمان.

- إن لم تستطع الدولة العثمانية السيطرة على الفلاحين الذين سيعملون في زراعة المساحات الواسعة، فإنها ستقع في ضائقة اقتصادية ضخمة، ويكون طريقنا ميسراً مفتوحاً يا حضرة غاليمبرتي، فلا بد من أن يتم دعم إسماعيل بشكل يحافظ على تلك الفوارق حيةً بينهم.

- وهذا الأمر ينطبق على العثمانيين أيضاً يا سيدي، فالاختلاف بين الدول النصرانية هو الذي أوصل جيرانهم من الأتراك إلى هذه الأيام، لا بد من

أن نتابع دعمنا وتقربنا من الأعضاء المؤثرين الذين يتابعون سياسة السلام كما كانت في عهد مراد الثاني وحفيده بيازيد الثاني. لقد علمتنا الأيام إذا استطعنا تأمين سلامة أراضينا، فإننا نستطيع أن نخطط لأعمال متقدمة بفكر أكثر صفاءً، وهكذا كان دائماً. ولدينا في الوقت الحاضر الشاهزاده سليم خان.

أخذا كأسي الشراب اللّتين وضعهما المريد الشاب في الطرف الآخر من المكتب المصنوع من خشب الدردار الصلب، وذهبا إلى النافذة، وأطلا على باحة دار العبادة. وبدت على وجههما بقع صغيرة لمّاعة من أثر انعكاس أشعة شمس الشتاء على كأسَي الكريستال الياقوتيّتين، وعندما خرج المريد كما جاء بهدوء، أضاف البابا: "إنه أمر يثير الجنون، ففي أواخر السنة الماضية استطاع أن يهزم كرجستان – جورجيا - الواقعة تحت سيطرة الصفويين ثلاث مرات حتى وصل إلى كوتايس وتغلغل في أراضي أذربيجان، واستطاع أن يقوم بانقلاب، ويستعيد الولايات التي كانت تحت سيطرة الخروف الأبيض، وعبر الجبال الواقعة بين الصرب والقفقاس الوعرة، حتى المَعِز الجبليّة تخشى منها، واستطاع أن يضم شاوشادستان إلى السلطنة العثمانية. بل إن الناس الذين يقيمون في منطقة الجبال في جنوب أجارستان أطلقوا عليها اسم جبل السلطان سليم، وأسوأ ما في الأمر أنه سحق الشاه إسماعيل وهو يحاول استعادة قلعة أرذنجان، وأسر أخاه إبراهيم ميرزة، وأخذه معه إلى طرابزون".

"هذا الشاب يستطيع أن يعيد الغزو والجهاد إلى سالف عهدهما في بنية الدولة العثمانية كما كانا على عهد الفاتح وبيازيد يلدرم، والوقوف في وجهه يمر عبر سياسة نشطة نقوم بها يا حضرة الكاردينال. فمهما غضب والده من حركاته الفردية تلك، فإن السلطان سليم سينجح في استمالة الجيش إليه، في وقت يزداد فيه مؤيدوه بين رجال الدين، ويمكن للشعب أن يتّحد في مدة قصيرة تحت إمرته. وإذا استمرت الأوضاع على هذا النحو، فإنه سيعرقل مسيرة السلام التي سعى إليها بيازيد وقد تقدّمت سنه، وتدهورت صحته. فالشاه إسماعيل الآن غاضب جداً من ضياع هيبته، والشاهزاده سليم سعيد جداً بنمو هيبته غير المتوقعة".

كان الكاردينال غاليمبرتي يستمع بتركيزٍ إلى كلام البابا بينما كانت عيناه مشدودتين إلى حمامة حطت على حجر المرمر العريض الذي يشكل إطار النافذة، وتمتم من دون أن يلتفت: "ولكن، هناك خبرٌ آخر جديد يا أبانا".

كانت الشمس المائلة نحو المغيب تمسح خطوط الشيخوخة عن وجهه

المحمر، فبدا وكأن نضرة الشباب قد عادت إليه، استدار جوليوس وهو يقول: "ما هو؟".
- طلب سليم ولاية بولو لابنه سليمان البالغ من العمر 14 عاماً، ووافقه بيازيد، وهذا موقع هام لسليم لأنه يمتد إلى طريق العاصمة، وهذا يعني أن بيازيد صار يقبل بعض الأمور.
- وما هو موقف الأخ الأكبر أحمد من هذا الأمر؟
- تفيد المعلومات أنه ثار غضباً، وهذا يعني أن هذه القضية ستكون سبباً في خلاف جديد بينه وبين سليم.
- علينا أن ندفع أحمد للتصرف في هذه القضية... حتى إن أخاه قورقوت، يُعتَبرُ خياراً أفضل بالنسبة إلينا من سليم. ولكن عدم وجود ذكور في أولاده ربما يكون سبباً في عرقلة تولّيه السلطة، المهم عندنا الآن أن نبعد عنا خطر سليم.

II

طرابزون؛ آذار 1509

في ميناء طرابزون كانت الرياح الشمالية الشديدة تحمل بعض الآجر من أسطح الأبنية الخشبية، وتلقيها بين الحارات، وتؤذي المارة. وكانت أكوام الثلج المتراكمة في زوايا الشوارع الحجرية تلقي ظلالاً من الحزن على المظهر العام للمدينة، لكن معنويات الناس كانت عالية، فقد صارت سيرة النجاحات العظيمة لواليهم الشاهزاده سليم والشهرة التي اكتسبها في الشهور الأخيرة، حديث الناس في البلاد، وكانت مآثره تحضر في أحاديث المجالس مضفية هالة من التبجيل عليه، وكان ذكره يتردّد بلا انقطاع في الخانات الواسعة والغنية. لقد غدا اسم ياووز سليم ملهماً للجميع. وكان طلاب المدارس المتعبون يذكرونه في استراحاتهم، ويستمدون منه طاقة لمخيلاتهم. وفي جلسات الذكر في التكايا المعتمة، وفي مجالس الشاي، تترك الحكايات المبالغ فيها والتي تدور حول الأمير الذي عبر جبال القفقاس الصعبة بسرعة البرق، بصماتها العميقة في النفوس، وتملأ القلوب بالأمان. وأما أنشودة سر أيها السلطان سليم، فالحظ معك، فقد أصبحت على كل شفة ولسان، ورددت فوق كل ذرّة تراب من أراضي السلطنة المباركة.
كان الشاب ياووز قد أثار حوله هالة كبيرة من الهيبة بتعففه عن حياة الترف والبذخ؛ فمن بين حشد الجميلات حوله، اكتفى بالسلطانة حفصة بنت غيراي خان القرم، ولشدة تعلقه بزوجته عزف عن كل النساء والجواري، وذات يوم أرسل إليه أمير موسكو خمساً من الجواري رائعات

الجمال، فزوج إحداهن من أصغر خادم في القصر وسط ذهول الجميع، وكان ذلك تعبيراً عن حبه لزوجته. فهو يعتبر أن الرجال الذين لا يستطيعون تنظيم علاقتهم مع النساء هم رجال محدودو العقل والإدراك، ولا يكون في عقلهم مكان للتفكير العميق. وقيل إنه اهتم بنفسه بتعليم وتنشئة ابنه سليمان خان ليستطيع أن يزرع تلك الأفكار في عقله ونفسه.
فذات مرة، وبينما كانت حفصة سلطان تقدم بنفسها الطعام لهما، شهدت هذه المحادثة بين الأب وابنه:
- لست راضياً عن وضعك يا سليمان، فأنت ورغم حداثة سنك تحب الظهور والتمتع بالحياة كثيراً، ووالدك لن يكون قريباً منك دوماً.
- أحبها يا أبي.
غضب ياووز وقال مخاطباً زوجته:
- اسمعي هذا يا سلطانة، اسمعي ما يقوله من دون حياء.
ظهرت ابتسامة تذكر بظهور الشمس فجأة على وجه الأمير الجميل:
- لا أحبها تكبراً على أصحابي يا أبي، بل أحبها لأنني أشعر بالفخر بأن أرى أبي وقوة الدولة العثمانية في شخصه، أحبها لأستطيع رؤية الإعجاب بالعظمة التي تليق بك في نظرات الناس. أحب هذه الدنيا لأنني أحبك يا أبي.
(*)
لم يكن ياووز ينام أكثر من أربع ساعات حتى في أكثر الليالي التي يكون فيها تعباً. وكان يثبّت نظارة وصفها له طبيب القصر وتشبه الفراشة، فوق أنفه، ويقرأ لساعات طويلة، وكان سليم يكتب الشعر باسم مستعار، واعتاد أن يناظر العلماء كل ليلة تقريباً في المسائل اليومية والتاريخية والعلمية. كانت أفكاره تلقى القبول لأنه كان يحترم العلم والعلماء كثيراً ولم يكن متعصباً ولا يحمل رغبة الانتصار في الحوار، كما كان يتهرب من قراءة أشعاره في الاجتماعات، وشعره المنتشر في البلاد لم يكن إلا عدد محدود من خواصّه يعرفون أنه من نظمه.
أيها الغزاة لاح الطريق
غريب وحدي أيضاً
الصخور والجبال لا تحتمل
آهاتي وأناتي
* * *
البارحة في بيت الصديق

كان الصخر وسادتي
أفترش التراب، وألتحف ظلال الأشجار
ونفسي مطمئنة راضية
كان الجنود يجدونه عند رؤوسهم في أشد ساعات الليل ظلمة، وكان يعاقب بنفسه الجندي المناوب الذي ينام في نوبته، ويلقن الجيش الانضباط، ويضمن ثباتهم في ميدان القتال، وطاعتهم عندما يتولى السلطة، فهو رجل يكاد لا ينام أبداً، وربما كان مريضاً. وتهامس الإنكشاريون في ما بينهم، وربما كانت بعض الشائعات صحيحة، فهو عند البعض يكون في عدة أماكن في وقت واحد بتأثير علم السيمياء الذي تعلمه من دون أن يرفع رأسه عن المخطوطات القديمة، وعند البعض الآخر يكون شابًّا من الأولياء الأتقياء. يقولون إنه يقسّم ليله إلى ثلاثة أثلاث: ثلث لقراءته وثلث لعبادته، وثلث لنومه. وقال أحدهم إن موضع السجود من سجادته يفوح منه عبق المسك. وأصبح اسم سليم ياووز طلسماً عند فئة تبالغ في تضخيم ما ترويه، وعند الجيش رجلاً شديداً لا يتهاون في المخالفات؛ ألم يروا منه نوبة الغضب الشديد التي تعتريه عندما يرى نائماً في أثناء نوبته؟
كان متواضعاً ولكنه يلبس النظيف الأنيق من الثياب، وكان يعرف ببساطة لباسه عندما يمشي بين وزرائه ولالاته (14) . أما في موضوع الطعام والشراب، فلم يكن موضوعاً هاماً عنده، على عكس من هم في مثل سنه. كما أنه لم يكن يهتم بما يجلبه اليهودي سولومون صاحب القبعة الحمراء والذي كُلِّف الغوص في أعماق بحر مرمرة وجلب الكائنات البحرية، ما ذاق أياً من الأسماك النادرة أو القريدس، وكان يكتفي بشرب طبق حساء اللحم بالبصل في الصباح، ثم يقوم بتمارينه الجسدية ليحافظ على لياقته لأطول فترة ممكنة، وبعد صلاة العصر، كان يكتفي بطبق خفيف من لون واحد من الطعام يحضّره الخدم، ثم يأكل بعض الفاكهة الموسمية، وعدا ذلك لم يكن يضع في فمه أي شيء، ولم يُذكر قطّ أنه أوصى الطباخ أو سأله عن نوع الطعام الذي سيطبخه.
كانت هوايته الوحيدة بعد الرياضة والقراءة هي الصيد، وكانت مهارته في الصيد سبباً في اقتران اسمه في أغلب الأوقات باسم حصانه قره دومان؛ أي الدخان الأسود، الذي قيل إنه لا يعرف التعب. كان قره دومان حصاناً أصيلاً عربياً أسود اللون، وقد استطاع هذا الحصان الأسود الأصيل النادر أن يفتن ياووز بقوّته وجماله، وقد اعتنى به صغيراً، فآتت هذه العناية ثمارها. كان معلوماً لدى الجميع أنه يتحدث إلى حصانه الكُحَيلان - وهو اسمه

العربي - وكأنه يهنئ الحصان بعد كل صيد وفير، ولا يتوانى عن مسح عرقه بنفسه، ويخاطبه بكلامه المعسول، بل رآه بعضهم وهو يقبل عين الحصان، ويمسح الدماء الموجودة على جسده بعد إحدى الغزوات.
كان قره دومان يعرف أنه محبوب، ويكاد لا يرى صاحبه حتى يصهل، ويميز صوته من بعيد، وإن هاج في بعض الأوقات فلا يهدأ إلا إن تدخل ياووز.
(*)
كان الشاهزاده ياووز سليم يمشي في الطرف الجنوبي للميناء، وبصحبته أصدقاؤه المقربون مالكوج أوغلو طور علي بك وهمدم باشا وكنعان باشا، واصطحب معه هذه المرة إبراهيم ميرزة علي الأخ الأسير للشاه إسماعيل، فقد كان يعامله معاملة الضيوف، وكانت غايته في هذه الجولة أن يريه الأسطول الضخم الراسي في الميناء، لأنه كان يثق بأن نصر الشعوب التي لا تسيطر على البحار يكون مؤقتاً، وكان يريد إيصال هذه الفكرة إلى ضيفه الذي معه، وتوقف هنيهة من دون أن يتأثر بالهواء البارد كالجليد، فاضطر الوفد المرافق له الانتظار أيضاً، وكانوا قبل لحظات يبحثون عن مكان دافئ للاحتماء فيه:
- هكذا يا إبراهيم بك، عشر سفن قوية تسير في البحار أفضل من عشرة آلاف فارس على اليابسة، وعبور طريق في أسبوع واحد على اليابسة يعادل يوماً واحداً في البحر في الرياح المناسبة، والرجل الذي يحلم بالعالمية، عليه أن يضع في الاعتبار طبيعة أراضيه أولاً.
تصبب العرق من شاربيه، وكان إبراهيم شاباً جميلاً وعاطفياً وشاعراً مُجيداً مثل أخيه، فقال:
- صحيح ما تقولونه يا سليم شاه، وأخي يعرف هذا جيداً، ولكنكم تدركون أن وضع بلادنا لا يناسبه التحكم بالبحار.
- لهذا أقول إن غزو أوروبا من قبل الدولة الصفوية التابعة للدولة العثمانية يعني اتحاداً عظيماً، وقد لاحظتم أيضاً أن حرص كل منا للتفوق على الآخر لم يحقق لنا خيراً، وهو الخطأ نفسه الذي وقع فيه جدي يلدرم (15) ، فبيازيد وتيمور استخدما قوتهما العظيمة في قضاء أحدهما على الآخر، وفي النهاية تحملا المسؤولية أمام الله وأمام الرعايا. وكان يمكنهما في تلك السنوات الاتحاد مع الأمويين في الأندلس القائمة حتى الآن، ووضع أوروبا بين فكي كماشة، والاستيلاء على قسم هام منها، وتأمين حدود العالم الإسلامي إلى الأبد، وتحقيق غاية الغزو. لكنهما خربا كل شيء

بالانصياع لألاعيب الكفار. إنه الغباء والتكبر يا إبراهيم ميرزة، والنصر من الله تعالى، وهو معرض للتراجع والضياع والزوال ما دام الإنسان يظنه من نفسه ومن حيلته وتدبيره.
- أنتم على حق يا أميري، وسأبيّن هذا الأمر لأخي إن دفع فديتي، وحررني.
- حسناً تفعل، ولننتبه هنا إلى أنه من الطبيعي جداً في مثل هذه الأوضاع أن يسعى الغرب للإيقاع بيننا، فانشغالنا بالجبهة الشرقية من بلادنا يعرقل تحركاتنا على الجبهة الغربية. على الجيش الواحد ألاّ يحارب في أكثر من جبهة واحدة، وإذا اضطر إلى ذلك فعليه أن يضع الهزيمة نصب عينيه أيضاً. وعندما يتركز القتال في نقطة واحدة، تصبح معنويات الجيش عالية وقوته مرتفعة، وتثير في قلوب أعدائهم الموجودين والمحتملين الرعب، وإلا، فسيكون التصدي لمراكز الفتن الداخلية صعباً، ولن تكون إثارتها عبر الجواسيس صعبة. ويمكنكم أن تتعلموا كثيراً من تجارب أخيكم في هذا الموضوع. اسمع، إن الصبر الكبير من والدي المحترم، يقابله الاستيلاء على أراضي جدي، وحدودنا الجنوبية...
قطع الكلام صراخ عالٍ قريب يصمّ الآذان، وضربت الرياح الباردة وجوههم كالسوط، كان الصراخ يجمد الدماء في العروق، ويشبه ما يسمع في ساحات المعارك، ويصدر من مكان قريب جداً. نظر الناس في وجوه بعضهم بذهول من دون أن يدركوا ما يحصل، بل كان بعضهم يرفعون رؤوسهم ويقلّبون بصرهم باحثين عن شيء مخيف منحدر من السماء.
كان الصراخ قد أنزل ضربته في نقطة حساسة من أعماق الشاهزاده، وكأنما لم يكن صراخ واحد من الناس، بل كأنه صراخ الوطن كله، ظلٌّ كحليٌّ داكنٌ ألقى على عينيه غشاءً أخفى عنه ما حوله، ولم يعد يرى أو يسمع سوى مصدر الصوت. وألقى بنفسه على جسر خشبي منزلق يمتد إلى ظهر سفينة شراعية ذات ساريتين، وقبل أن يمر وقت طويل رأى بحاراً شاباً معلقاً من فخذه ببكرة رافعة ضخمة امتدت من مقدمة السفينة، وكان أحدهم يصرخ بشيء، واضطرب المكان. كان ككل القادة الحقيقيين يقف عند حدٍّ رفيع بين الحقيقة والخيال، فكان المنظر يفقد العقل من شدة الذهول، والشجاعة التي فطر عليها تدفعه لعمل ما ينبغي له لإنقاذه، فالبَحَّارُ بحَّاره، فهو إذاً مسؤول عما حدث له.
كان القسم الأعلى من فخذه قد انتفخ من الضغط، وامتلأ بالدماء، وتمزق سرواله، فناداه وهو يسأل: "كيف حصل هذا يا ولد؟".

عندما رأى الجندي البحار شاهزاده أوقف الصراخ، وقال بصعوبة: "هذا ما حصل يا سيدي، لا تهتم، ولكن حذارِ أن يقطع رجالك الحبل، وإلا فستنقلب السفينة، وتتضرر.
زأر ياووز وهو يقول: "ولكنها ليست أغلى من حياتك". وذهب إلى الرافعة حيث يقف الآخرون حائرين، واتجه على الفور إلى والد المربوط، وخلع قفطانه وجعله حول ذراعيه ولف الحبل الغليظ عدة مرات حول معصميه ثم على كتفه، وشده باستخدام قوة ظهره وفخذه، وكان الذين يركضون للمساعدة ما زالوا مذهولين، ومنعهم كنعان باشا ومالكوج أوغلو طور علي بك عندما انتبهوا إلى ما سيضاف إلى اسم شاهزاده من الأساطير التي تزداد يوماً بعد يوم.
كان شد الحبل تدريب البحارة منذ القدم، وكان ياووز قد تعلمه من جده الفاتح، وكان يعرف أن جده تعلمه من الفينيسيين ثم قام بتطوير تلك المهارة. واستمر الفاتح في التدريب عليه رغم تقدم سنه من دون توقف، ودرب حفيده الشجاع الذي سماه ياووز من بين أحفاده، وكان يعرف أنه يقلده، فجعله منذ صغره يشد الحبال الغليظة الطليقة من الأوزان، وأثمر هذا التدريب ضخامة في عضلات الإبطين والظهر والساعدين، وعلى الرغم من أن الإنسان يبدو عند تقدم العمر قصيراً وسميناً بسبب شد الحبال، فإنه يمنحه قوة عظيمة. وهذا الأمر كان السبب في أن يبدو شكل السلاطين العثمانيين في عصر الازدهار ضخماً جداً.
لم يكن ياووز قد جرّب قوته في مثل هذا الثقل، لكنه كان يدرك بالتأكيد ما يجب عليه القيام به من أجل تحقيق النجاح أمام عدوه إبراهيم ميرزة، وأمام الإنكشارية. في البدء، لم تظهر أيّ حركة في الجسد المربوط إلى الحبل، فشدّ ياووز مرة أخرى في الجهة المائلة من الجسر المنزلق، فظهرت في البداية حركة تكاد لا تلاحظ، ثم سرعان ما تحركت السارية وارتخت الحبال، واستطاعوا سحب البحّار، فانتشرت موجة من الفرح الغامر في المكان.

III

حزيران 1509

"أتجرأ معتمداً على عفوكم، وأوصيكم بألا تقدموا على حركات خطرة مثل تلك بعد اليوم يا سيدي". هكذا تكلم كنعان باشا ثم تابع في عتابٍ خفيفٍ: "لم تعِدوا في العشرين، وقاربتم الأربعين، والطقس حار جداً ورطب جداً، لكنكم مع ذلك لم تخففوا أو تستريحوا من تدريباتكم قطّ".

ابتسم ياووز سليم وهو يحرك الدبوس (16) في معصمه: "لا أنكر ما تقوله يا صديقي كنعان، لكن الحادثة تلك ستكون علامة تدل على الأهمية التي نوليها للإنسان". وبينما كانت الرياح التي تهب من سطح البحر الأزرق الفاتح تلطف الجو، كان الضباب الناجم عن الرطوبة يهبط من جهة الجبل وينتشر في كل مكان.

تمتم همدم باشا وهو يشارك كنعان العتاب: "ربما سيكون هناك من يتذكر تلك البطولة، ويعتبرها تهوراً لا ضرورة له". فتمتم ياووز بشيء من عدم الاكتراث: "ربما لو حصل لكم شيء في ذلك اليوم لا سمح الله، ولو حرمتم ركوب الحصان مثلاً، فسيعود الضرر على شعبكم الذي ينتظر منكم أموراً كثيرة".

مسّد مالكوج أوغلو طور علي بك لحيته بهدوء، وقد بدا على وجهه الحاد قسمات التفكير، وتمتم قائلاً: "صحيح أن أميرنا ألقى بنفسه في الخطر في ذلك اليوم، لكنّ النتائج كانت كبيرة يا صديقي، فإنك تعرف كيف يضخم الناس والجنود هذه القصص".

كان مالكوج أوغلو رجلاً ذكياً ماهراً، وكان من عائلة محاربة توارثت تقاليد الحرب أباً عن جدّ، وكان يعرف تماماً أن الفكرة التي يقولها ذات أهمية.

قال الشاهزاده: "دع هذا الأمر جانباً"، وأخذ يرتدي قميصه القطني الخفيف بالرغم من أن جسده متعرق، وقام بغسل يديه ووجهه بماء الإبريق الذي أحضروه له، ثم اتجه عبر حديقة قصره الصيفي إلى الميناء وهو يقول: "المسألة الهامة اليوم هي قيام إخوتي بالاعتراض على تعيين ولدي سليمان في ولاية بولو، سنتحدث في هذا الموضوع عندما نعود".

وبعد سباحة استمرت قرابة الساعة من دون توقف، كان مرافقوه ينتظرونه في القصر القديم الذي كان لعائلة كومنانوس، ثم استعمله ولاة طرابزون.

(*)

"كلنا نعلم جيداً أن من أولوياتنا التي لا نتخلى عنها البقاء قرب إسطنبول، وتسليمها إلى أهل الأمانة، وكنت أتمنى لو أن رجلاً قديراً مثل والدي وضع هذا الأمر نصب عينيه، ولكنني أخطأت في إعطاء التقدير الزائد لأخي، فقد أوقف والدي فجأة تعيين حفيده سليمان شاه حتى لا يغضب إخوتي.

ماذا يفعل أخونا العزيز قورقوت، والذي أُجِلُّهُ أكثر من نفسي؟ يطلب نقل تعيينه من ولاية تكة – أنطالية - إلى ولاية مانيسة ليكون قريباً من دار السعادة – إسطنبول - لمواجهة كل الاحتمالات الممكنة التي يمكن أن تحدث من قِبَلِنا، وإذا رفض الطلب فلا تخفى إمكانية قيامه بمغامرات

تنتهي بالهلاك كعمنا جم. وبحجة الذهاب إلى الحج ذهب إلى الإسكندرية ثم إلى القاهرة. ومن يدري ماذا بعد ذلك؟
أما أخي أحمد، فهو يسهر حتى الصباح؛ وعليه درعه وبيده سيفه؛ في أماسية. أما أخونا الصغير شاهنشاه فهو في قونية على عرش قرمان، يحكم خارج كل هذا الازدحام، ويقوم بالشيء الصحيح.
الآن أيها الصديقان، فإن ميلَ الإنكشاريةِ والقسمِ الأكبر من الجيش إلينا، يُذهِب النوم من عينَي الوزير الأعظم علي باشا، ويسعى لزيادة دعم أخينا أحمد لدى والدنا. أما أخي قورقوت، فإنه لا يعطيه الأهمية ذاتها لأنه ليس له أبناء ذكور، ولذلك لم يستطع أن يجمع له مؤيدين، ولكننا نعرف أنه يلقى دعماً كبيراً من الأسطول، وهو الأمير المحبوب لدى الأخوين بربروس؛ أوروج وخير الدين، وهكذا نكون المستبعدين أكثر من غيرنا".
سأل كنعان باشا:
- وماذا ستفعلون يا سيدنا؟
- سأنتظر عودة المبعوثين الذين أرسلتهم منذ زمن.
- إنكم كجدكم، لا يعرف أحد ما الذي ستفعلونه حتى آخر لحظة. ولكن بما أنكم بدأتم بالعمل منذ زمن...
"أعرف"، قالها سليم وهو يضحك: "أخبرتهم أنني يمكن أن أتخلى عن ولاية بولو إن أعطوني ولاية كفة في القرم.
رفع همدم باشا صوته بذهول: "أين؟!".
ضحك ياووز وهو يقول:
- ما الأمر أيها الباشا؟!
- الأراضي التي يحكمها والد زوجتكم خان القرم غيراي منغلي؟! من أين خطر ذلك في بالكم؟!
- هل ظننتما أننا لا نعرف مسبقاً أن أخي أحمد سيعارضنا في ولاية بولو؟
قال كنعان باشا بدهشة أشد من دهشة همدم باشا:
- هل تعني أنكم كنتم تتوقعون هذا من قبل؟
- كنت أنتظر ذلك يا كنعان، بل إنني كنت أتمنى ذلك من كل قلبي، فلو طلبت كفة أولاً، لأثار ذلك الشكوك لديهم في غاياتنا. ولم يبقَ أمامنا سوى أن ندفع والد زوجتنا المخلص القوي ليعرف حقيقة البلاد التي يتبعها بقليل من الإقناع، علاوة على أنه سيثير قلق رجال الدولة المجتمعين تحت ضمانة أخي أحمد، وبالتالي، سيدفع والدي إلى محاولة مصالحتي.

- ولكن يا سيدنا، إذا شجعوا بيازيد خان.
- مثل ماذا يا كنعان باشا؟!
- يا سيدي، كما تعلمون ترسل الدولة العثمانية أمراءها إلى المدن الكبيرة مثل بالكسير، وأماسية، وأنطالية، وقونية، وبيشهير، أو طرابزون التي نحن فيها من مدن الأناضول؛ بصفة سنجق بك، فماذا لو أثارت هذه الحركات لديهم الشكوك، وأرسلوا إلينا جيشاً، وأصدروا؛ لا سمح الله؛ أمراً بعزلكم؟
- سيدعم كبار الدولة أخي أحمد، بسبب سياسته السلبية الخارجية معتقدين عدم حدوث مشاكل في المستقبل، لكن الشعب والجيش معنا، ووالد زوجتنا رجل صلب، وسيدعمنا مادياً وعسكرياً، ويدافع عنا ويحمينا إن لزم الأمر.
ظهرت علامات الثقة على كنعان باشا وهو يقول:
- إلى حدٍّ ما، فلا يمكنهم أن يتواجهوا مع المركز لفترة طويلة، وكلنا نعرف أن السلطان يملك قرار عزل خان القرم، وما إن تتلقوا دعم غيراي خان، حتى يتحرك أخوكم الأمير أحمد للضغط على والدكم، وسيُفسد العلاقات بينه وبين الخان بشتى الوسائل.
- نعم، سيحدث هذا، ولكن التتار أشداء، ولا ينقضون عهداً.
قاطع همدم باشا الحديث بقوله: "نعم، إنهم كذلك يا أميري"، ثم خفض صوته عندما رأى الخدم يدخلون وهم يحملون الصواني وتابع: "ولكن، وسيلي الثالث يتجه بخطى ثابتة نحو اتحاد الإمارات الموسكوفية، فهو وإن لم يصبح قوة كبيرة حتى الآن، فإنه سيحقق ذلك عما قريب، وسيكون الهدف الأول حسب ما تتوقعون حول البحر الأسود، والقرم بالنسبة إلى وسيلي أجمل حلم قريب له الآن، وهو جاهز لابتلاع البلدان التركية الأخرى". هز رأسه يمنة ويسرة بحزن وأضاف: "وهذه إحدى نتائج سيطرة المغول على البلدان التركية، فقد سقط بكل أسف جيش الدولة الذهبية، فأتيحت الفرصة لاتحاد الإمارات الروسية. وفي وضع كهذا لا يستطيع والد زوجتكم أن يضع نصب عينيه إضعاف الدولة العثمانية، وهي أقوى سند له".
- مع ذلك، لا بد لنا أن نتصرف أحياناً بجسارة وإقدام، فالإنسان يفقد صبره أحياناً حتى يضطر إلى وضع رأسه تحت إبطه والمضيّ، وأنا مع كل ذلك، أعتمد على حكمة عمي والد زوجتي.
استأذن راغب جاويش من رؤساء الإنكشارية في الدخول، وبلّغ الشاهزاده خبر وصول صديقَي طفولته جعفر لالا باشا وصهره حسين جلال بك، وكان

ياووز يستخدمهما منذ فترة في بعض المناورات الدبلوماسية في بلاد فارس. وبعد فترة قصيرة فهم همدم باشا وكنعان باشا أنها دعوة للغداء. وحضر مع مالكوج أوغلو طور علي بك، شيخ ياووز مولانا عبد الحليم أفندي، وظل ياووز في أثناء تناول الطعام صامتاً وهو يفكر: إن أصدقاءه الأوفياء على حق، فبعد نقطة معينة يمكن للحوادث أن تصل إلى درجة من الاضطراب تفوق قدرته على الاحتمال، وهنا يدخل دور الأصدقاء محلّ الثقة، شخص يحميكم من الخلف ويخفف عنكم، وكان مستقبله ومستقبل إخوته يشكل الآن خطراً أكبر من خطر بلاد فارس.

دار السعادة؛ آذار 1510

من مذكرات كنعان باشا:

الثلاثاء 23 ذو القعدة 915

انطلقنا من ميناء طرابزون على متن سفينة شراعية ذات مجاذيف، وبسبب العواصف المفاجئة، واستراحات الطريق استمرت رحلتنا عدة أيام، أقمنا خلالها على الخلجان، وسرنا قرب الشواطئ الخالية، وتقدمنا إلى اليابسة، وتوقفنا أحياناً في بعض المرافئ من أجل التزود بالطعام، وهذا كل شيء. وفي اليوم العاشر تشاجر اثنان من مرتبات (17) السفينة لسبب تافه، ورغم تدخلي الشديدلم أتمكن من إنهاء النقاش الذي تحول إلى جدال طائفي والذي سرعان ما تحول إلى شجار. فتدخل شخص ذو رتبة عالية من الإنكشارية منحازاً إلى طرف، فشنق البحار السنّي وألقاه في البحر، وهددوني كي أصمت ولا أتحدث عما حدث إلى أحد رغم أنني قائدهم وأكبرهم رتبة، فتحطمت معنوياتي كثيراً، وقلقت على حياتي بغير إرادة مني. فلا يمكن الوقوف وجهاً لوجه مع طائفة الإنكشارية، وانتشار مثل هذه الفتن بين الجنود أمر سيئ، وإن لم تُتَّخَذ الإجراءات تجاهها، فستتفاقم المشكلة.

بعد ثلاثة وعشرين يوماً وصلنا إلى إسطنبول في يوم غائم وماطر، وكان المضيق الذي يتصف بالفصول الأربعة ويحمل عواصف الأقاليم السبعة قد تحول إلى كفن أبيض، وعندما كانت المجاذيف تسحب بهدوء من المياه الحريرية للمضيق، كانت روائح الغيوم الحزينة تذكرني بصباحات أيام الطفولة الخالية.

أيعقل لامرئ ألا يشتاق إلى الأستانة؟ إن الرائحة الخاصة للملح والطحالب التي تهب من البحر في إسطنبول تختلف عنها في طرابزون. وأول ما تقع عين الإنسان عليه المآذن المتطاولة، والتي تمتد في الفراغ على شكل قلم، وكأنها تشير إلى الأسرار الغامضة التي لم تكتشف بعد. وتحت كل واحدة

منها قبة عظيمة تضم تحتها أُبهةً وعالماً روحانيًّا خاصاً، وبعد تلك المساجد التي ترفع رأسها للزمان، تتتابع مشاهد المدارس والمكتبات الداكنة الواحدة تلو الأخرى، ولا تغيب عن الأعين الشاعرة شوارع الحارات المتداخلة والتلال المكشوفة التي تبدو من بعيد والتي تذكر بالطرق الممتدة إلى اللانهاية والتي كانت هادئة مهجورة في النهار، ولم يكن يبدو في شرفات البيوت الخشبية القائمة على الدعامات الخشبية، والتي لا يخفى جمالها رغم أنها مهددة بالحريق دائماً؛ سوى النساء والأطفال بأعناقهم المائلة نحو الخارج.
أما الرجال فهم في الأسواق القريبة من مرافئ جنوب مرمرة والبحر الأبيض حيث الفواكه والخضروات تحملها الزوارق الصغيرة والمتوسطة، والقمح والشعير والشوفان والجودار التي تحملها السفن الناقلة إلى ميناء أون قبان (18) ؛ في حماية البازركان وتجار الولايات ممن يكثر فيهم القمل المشبع بالدماء وأصحاب الوجوه المنفّرة وعباءات جلود الأغنام. وفي هذه الأسواق يكثر الموسويون أصحاب القبعات الحمراء والسراويل الحريرية العدوانيّون والجبناء معاً، والروم بثيابهم المخملية وقبعاتهم السوداء التي تخفي تحتها الشوارب الغليظة المفتولة، الذين يدخلون في جدال عنيف من أجل متليك واحدة على حمل سفينة أو مستودع من الفواكه والخضروات، بل حتى أولاد الشوارع الذين يبدون وكأنهم تجار بالفطرة، كانوا يتراكضون حولهم. إن الأتراك هنا وهم في موطنهم الأصلي هادئون ومتوكّلون، وغالباً يقومون بصمت بأعمال صغيرة كبائعين متجولين على سبيل المثال.
كانت مهمتي هي إيصال رسالة أميري إلى السلطان بيازيد خان الثاني، كانت الرسالة تبين حزنه الشديد، وقلقَه من تحركات الصفويين في حدودنا الشرقية، وكرَبَه من اعتداءاتهم على الأراضي، علاوة على أنه لا يليق به هذا الصمت تجاه هذه الاعتداءات، وأنه كره السعي وراء الصيد، وأن وظيفته الأساسية هي الجهاد ضدّ أعداء الدين والدولة وحماية الثغور.
أما الأمر الهام في هذه الرسالة فهو استئذان أميري لزيارة ولده الأمير سليمان شاه في سنجق كفة. وطلبه سنجق مانيسة رداً على زيارة الشاهزاده قورقوت إلى مصر وعودته في خطوة تهديدية تذكر بالخطر الذي شكله الشاهزاده جم. بالرغم مما تقدم أعيدت إليه ولاية أنطالية، لكنه لم يستطع أن يتقدم أكثر، لأن السلطان قانصوه غوري سلطان مصر لا يريد أن يقطع ما بينه وبين الدولة العثمانية وهو يرى صعود قوة البرتغاليين.
كانت مهمتي الثانية هي لقاء رجل الدين الألماني مارتن لوثر في غلطة. فرجل الدين هذا، الشاب والمتنور، كان يعارض بيع صكوك الغفران، ويجادل

الكنيسة الكاثوليكية في ذلك منذ زمن، وكان بذلك مثار اهتمام أميري ومتابعته. كان لوثر يزعم أن كثيراً من الطقوس التي تقام في دور العبادة تحمل آثاراً من الوثنية القديمة، ويعتبرها إهانة وتحقيراً للدين، ومن صالحنا دعم هذا الشاب معنوياً ومادياً لأنه يصب في تقسيم الكنيسة.

الخميس 27 ذو القعدة 917

كان يبدو على مولانا السلطان بيازيد، الهم في كل أحواله، والنزاع الذي ينمو بين أولاده الذين يحبهم ويقدرهم كثيراً يشكل سبباً يزيد في ضيقه المادي والمعنوي، وزاده في الحزن والهم مرض ولده الشاهزاده شاهين في قونية. كان واضحاً أنه يريد أن تُسلم السلطنة إلى ولي عهده أحمد، وكان رجال الدولة بتأثير من الشاهزاده أحمد ينظرون إلي وكأنني عدو لهم، وكنت أشعر بأنني سفير للشاه إسماعيل، وليس سفيراً للشاهزاده سليم. كان هذا الموقف يصعقني، ويدل على مدى حساسية الخطوط التي تسير عليها السياسة في إدارة الدولة.

كان الروس الذين لا ترى فيهم الدولة العثمانية تهديداً حقيقياً حتى الآن، يسعون للاتحاد بخطى سريعة، وعلى الرغم من أن الإمارات الروسية متخلفة عنا كثيراً بالمفهوم المادي، فإنها كانت داخل ثورة فكرية كأنها قنبلة موقوتة جاهزة للانفجار في أي لحظة، والدعم الذي يلقاه أصحاب العلم والصناعيون عندهم يبدو نقطة إيجابية لمستقبلهم. شاهدت العشرات من الفنانين الأوروبيين الشباب في شوارع إسطنبول، كانوا يتجولون بذهول، ولا يخفى الإعجاب الذي يبدو خلف عيونهم البراقة وهم يراقبون المستوى الذي وصلت إليه حضارتنا، وكان هذا مدعاة فخر وحذر في آن.

التقيت برسام إيطالي في خمارة مرخصة مظلمة في إحدى الحارات الخلفية لغلطة، وقد بدلت ملابسي متخفياً حتى لا يعرف أحد أنني أنتظر مارتن لوثر، فذكر لي أنه هنا في غلطة لرسم بعض الآثار التاريخية الموجودة فيها مثل آياصوفيا، وسألني إن كنت إيطالياً أم لا؟ ففهمت أنه انتبه إلى تمكّني من اللغة اللاتينية، لكنني لم أجبه عن سؤاله، وسألته إن كان قطع تلك المسافات من أجل عدة رسومات، فنظر إلى وجهي بدهشة وأجاب: "وماذا عساي أفعل هنا؟ إن آل مديشي – الحاكمة - في فلورانسا يقومون بدعم الفنانيين الماهرين بأجور عالية، وأنا واحد من هؤلاء المحظوظين". وفجأة تساءلت: لماذا لا يقوم أحد منا برسم تلك الآثار التاريخية من منظور مناسب؟ فلا أحد يرسم آثارنا التاريخية وحاراتنا وبيوتنا، فماذا سيبقى للسنوات المقبلة؟ هل يكفي أن نحكي لأولادنا عن الأيام القديمة فقط؟

فالكلمات تتلاشى وتبقى الكتابات والرسومات تتناقلها الأجيال.
كان الرسام لوجيه، ونسيت لقبه، يشرح لي عن أصول الرسم الفرنسي، وبيّن أن الإنسان الغربي من خلال الرسومات التصويرية التي يحرّمها الدين والثقافة الإسلامية، استطاع أن يعبر عن نفسه وعن الأشياء. ضحكت بقرف على شكله وهو مسيّج، وفهم أنني لا ألقي بالاً لحديثه، فطلب مني أن أُعَرِّفَ له الحجر المسيّج، فأخبرته اعتماداً على اسمه أنه عمود حجري تاريخي مسيّج بالحديد. ضحك هذه المرة بأسى، وأخذ يشرح لي أن الأساور الحديدية التي تحيط بالأحجار الأثرية تحيي الشمس عند شروقها كل صباحٍ جديدٍ، وأن تلك الأساور الحديدية هي ميراث حلمي للسيّد القديم أبولو. كان تعبيره وقدرته على التصوير رغم ثمله مؤثرَين إلى حدٍّ يجعلني أشفق عليه. وعندما طلب مني أن أصور له كيف تبدو السفينة العثمانية، تلعثمت من جديد، وابتعدت عنه وأنا أحس بضيق شديد. هل يمكن أن يكون صادقاً في ما يقوله؟ فهناك رابط قوي بين الرسم والنثر وقوة التعبير وفق هذا المفهوم، وأستطيع أن أرى فيه تسلسلاً فكرياً صحيحاً إلى الحدّ الذي يثير غيظ الإنسان.
كان مارتن لوثر يبلغ السابعة والعشرين من عمره بالرغم من أنه لم يكن يبدو إلا في بداية العقد الثاني، وكان واسع الثقافة بالغ الذكاء. تقبَّل هدايا أميري الكثيرة بسعادة، ثم أخذ يشرح لي بالتفصيل كيف أن الألمان لم يشعروا قطّ بحرارة تربطهم بالكاثوليكية. وأضاف أنه ضد كل السياسات العجيبة التي قامت بها روما في سبيل إصرارها على عقائدها التعصبية المتحجرة. ويرى أن الألمان سيدركون الحقيقة في وقت قصير. وكان في ذلك مخطئاً في اعتقادي، لأن الجموع عميان لا يحسنون الرؤية والتفكير العميق، ولا يمكنهم أن يتقدموا إلا بالاحتكاك بالآخرين.
أخبرته بدعم أميري له في كل شيء، وأعطيته الضمانات بأنه سيرى دعماً أكبر عندما يتولى العرش. كنا على وشك الافتراق عندما عاد من باب الخمارة، وثبت عينيه الخضراوين اللامعتين في وجهه المذهول على عينيَّ، وأخبرني أن الفاتيكان يدعم حركة تمرد ستشهدها الأناضول. ثم اختفى وعيناه تراقبان الناس بقلق يساوره بأنه مراقب.

IV

آب 1511

"في السنة الماضية، وفي نهاية أيلول، وبمجرد دخولنا كفة، نال أخي قورقوت سنجق مانيسة بالرغم من اعتراض أبي، ومع بداية هذه السنة كان عمي؛

والد زوجتي غيراي منغلي على قدر التوقعات - وهو المشهور بحكمته - واتخذ موقفاً قوياً بالرغم من تهديدات إسطنبول وأخي أحمد، وأرسل قوة مساندة لي خلال سيري إلى روملي، مما أسهم في النهاية في نجاحي في الاستيلاء على سنجقَي سمندير وفيدين، كل ذلك كان سبباً في زيادة العداء الذي يكنه لي الشاهزاده أحمد. واستطاع توتير العلاقة بيني وبين والدي إلى حدّ القطيعة، ويظهرني بمظهر المتمرد. إن السؤال الذي يطرح هنا هو: ما الذي يمكن أن يفعله اتحاد صغير مثل الذي تشكل بيني وبين عمي في مواجهة الاتحاد المنظم للدولة العثمانية؟ في الواقع، لولا حصاني قره دومان والسفن التي ترسو في الميناء لما استطعنا أن نصل إلى كفة في اللحظة الأخيرة، وكان يمكن أن نعتقل أو أن نفقد حياتنا في معركة وادي أوغراش. لقد ارتفع رصيد أخي أحمد لأنه استطاع أن يقضي ولو بصعوبة على تمرد الجنود. وهكذا تيقن أن قرار والدي في من سيؤول إليه العرش سيكون لمصلحته، لذا، يجب عليّ توخي الحذر في تصرفاتي التالية حيث تكمن الحكمة والتبصر خلف تصرفاتي لا الجهل والتهور".

قال جلال بك كاتب سليم الخاص:

- "حاشاكم يا سيدي". ثم استرق النظر إلى كنعان باشا، وتابع قائلاً: "إن السبب الحقيقي الذي قد يحمل والدكم على مثل هذا القرار هو قرب أخيكم من إسطنبول، وتأثير السياسة النشطة التي يديرها، فوالدكم حضرة السلطان بيازيد خان الثاني بعد وفاة أخيكم، صغيره المحبوب، الأمير شاهنشاه، أصبح في وضع نفسي مأساوي، وهو يريد أن ينهي الصراع على العرش بين أولاده الثلاثة، وهو يميل إلى الشاهزاده أحمد لأنه الأكبر سناً، لا لسبب آخر.

قال كنعان باشا:

- علينا ألاّ ننسى دور الفاتيكان في ارتفاع أسهم الشاهزاده أحمد، كما حصل في تمرد الجنود كما أخبرنا مارتن لوثر، فأوروبا التي تخشى من قيام تهديد جديد، لها إسهام في وجود مثل هذا الدعم للشاهزاده أحمد داخل السلطنة، ولكن وفاة الصدر الأعظم علي باشا أفقد الشاهزاده أحمد أكبر سند له.

كان الشاهزاده سليم عند عودته إلى كفة مرة ثانية إلى جوار والد زوجته، لكن كلاجئ هذه المرة، في ضيق شديد، فكان كلامه في أغلب الأوقات غير مترابط، ويجد صعوبة في ترتيب أفكاره، ويتخيل في الليل أشياء تحدث في النهار، وكادت قلة النوم والطعام تهلكه، وشعر بمسؤوليته في توتر علاقة

غيراي منغلي بإسطنبول، ولكن لم يكن له ملجأ آخر. كان يدرك أن أحمد لن يرحمه أبداً في حال توليه العرش. كان والد زوجته يفعل كل ما يستطيع لتهدئته، ويحلف له بأغلظ الأيمان بأنه لن يسلم نبيلاً مثله مهما كانت الظروف، حتى لو كانت السلطنة العثمانية هي التي تطلبه. لكن ذلك يعني أن غيراي يرمي بنفسه وعائلته في الخطر، وكان ياووز في غاية الحرج والكرب.

كان يتأمل من نافذة حصنه سماء الصيف المغطاة بالغيوم المبعثرة، ويتمتم قائلاً: "أبي متعب لا يستطيع أن يتخذ قراراً صائباً، والآن يا كنعان باشا ستتنكّر، وتدخل دار السعادة، وتلتقي بقادة الإنكشارية والحرس الخاص والسجانين وقادة سلاح المدفعية، يجب ألاّ نستسلم للأمر الواقع، أريد أن يحدث اضطراب كبير في ما لو حضر الشاهزاده أحمد إلى إسطنبول فجأة. وليحضروا إليّ رؤوس المخالفين والكلاب الذين يرغبون في البقاء في أحضان الجواري والزوجات الجميلات والفرش الدافئة. نحن بعيدون عن إسطنبول كثيراً، وحضورنا إلى الساحة هي مسألة وقت، وهذه المرة إما أن نحقق ما نسعى إليه، وإما أن نموت في سبيل غايتنا". ومال بجسمه إلى الأمام، وقال بصوت هامس: "إليكما هذا السر في تلك الليلة، أي قبل ليلة الثالث من آب المخيفة التي اضررت فيها إلى مواجهة أبي، كنت عنده".

أصيب كنعان باشا بالسعال الشديد بسبب المرارة التي خرجت من معدته إلى فمه، أما جلال بك فقد تجمدت الدماء في عروقه، وانتابته الرعشة، وجحظت عيناه وتعلقتا بالشاهزاده بذهول. وعندما توقفت نوبة سعاله كان كنعان باشا أول من استطاع أن يسأله: "لماذا؟".

قال ياووز سليم من دون أن يرفع عينيه عن يديه المتشابكتين:

- كنت أفكر في أن هناك أموراً كثيرة يجب أن نتحدث فيها إليه؛ أموراً يمكن إنقاذها...

كان جلال بك قد استعاد رباطة جأشه، وسأل بصوت متقطع:

- وكيف نجحتم في ذلك من دون أن يراكم أحد؟! كيف؟!

نظر سليم إلى صقر يرفرف بجناحيه في الأعماق البعيدة لزرقة السماء اللامتناهية، وتمتم قائلاً:

- "لا أذكر غير انطلاقي على صهوة قره دومان وعودتي، وكل ما يتعلق بتلك الرحلة كأنّه مُحِيَ من ذاكرتي، لا أعرف لماذا تركني والدي طليقاً، فلو أراد لجعلني عبرة للعالمين، وكسّر عظامي، وشنقني هناك". توقف قليلاً وسحب نفساً عميقاً، وأضاف: "كانت جيوشنا متأهبة في مواجهة بعضها،

وكانت طيور غشاش الرعيان المتجمعة حول المعسكر تشق بغنائها الهدوء اللعين الذي يسيطر على المعسكر قبيل الحرب، كان ذلك نذير شؤم بحرب أكيدة، ونحن نعرف الاعتقادات المنتشرة بين الجنود، فهم يتشاءمون من الأراضي التي تتواجد فيها طيور الغشاش وعشبة آدم (نبات اللفاح)، ومن سوء الحظ، كانت الأرض التي عسكرنا عليها يتواجد فيها النوعان، ولاحظت تحطم معنويات الجنود وشعورهم بالقلق الذي ترتجف منه أفئدتهم، ومع ذلك طلبت منهم أن يكونوا شجعان، وألا يجبنوا في أثناء استعمال سيوفهم من أجل سلامة الدولة، ثم في ساعات الليل المتأخرة، وعندما كانت كل الرغبات مدفونة في بئر الصمت، تمسكت بأمل مبهم، وذهبت إلى أبي، من دون أن يعلم أحد".

ثمّ تابع: "التف حولي حرس الخاصة وقاموا بإدخالي إلى والدي وسط دهشتهم، وصرخات النصر التي أطلقوها، سألني بذهول مثلك تماماً يا كنعان: لماذا؟! شعرت وأنا أنظر من بعيد إلى وجهه الجميل الذي طالما تمنيت أن أقبله، وصدره العريض الذي يحمل رائحة الأبوة، شعرت وكأنني طفل صغير. قبلت يده وأنا أقول بهدوء: السلطنة في خطر، ولا يستطيع أحد غيري أن يمنع هذا الخطر، فشدة أخي قورقوت، وخبرة أخي أحمد غير كافيتين، وهما جبانان يستمدان احترامهما في الاختباء عن الأعداء. مسّد والدي لحيته، وأحسست بنار الحزن الذي لا يوصف في قلبي. فسألني: هل تظن أن ما ذكرته يتوافر فيك فقط؟ ثم هل فكرت في العار الذي ستجلبه لنفسك جراء محاربة والدك؟

ضحكت، ثم قلت: ربما لا يتوافر أيٌّ مما ذكرته فيّ، وربما كانت الشهرة التي أمتلكها، والتي تزداد يوماً بعد يوم، والتي تتجاوز الجبال، شهرةً جوفاء. وربما لا أملك سوى وحدتي، لذلك، فأنا لا أبحث عن سلامة السلطنة خارج الحدود كإخوتي، وأنا لا أشعر بالحاجة إلى أحد، ولا تقل يا والدي إنني صرت عدواً لكم، لأنني أبداً لم أكن كذلك ولن أكون، إلا أنني أبذل ما في وسعي حتى لا يأتي جيل يذكر فيه اسم الدولة العليّة المبارك باللعنات.

الشهرة آفة يا ولدي.

لتكن الآفة علي، والسلامة للسلطنة.

- اذهب يا ولدي، اذهب ولا تحقرني.

ارتميت في أعتابه، وأنا أقول: أحبك يا أبي، لقد رفعت من مقام هذه الأمة وأسعدتها بذكائك الحاد الذي حكمت به الدنيا، وبدهائك في علوم السياسة،

كلنا ندين لك، وإذا كان جيشنا اليوم هو أقوى جيش في العالم، فالسبب الأول في ذلك يعود لما قمت به من تطوير في تقنيات المدفعية كما فعل جدي الفاتح، تلك المدافع المحمولة على العربات، وسرية المدفعية التي لا تقهر. اسمح لي، وامنحني الفرصة لأخرج المارد الذي أصبح يضايقني كثيراً في داخلي، واستثمر قوتي التي تستطيع أن تحوّل الجبال إلى تراب، في خدمة شعبي، صدقني، لا يستطيع أحد أن يقف في طريق إرادتي.

قال لي: أطع أخاك.

قلت له: الطاعة لله أولاً، ثم لي وحدي على سطح الأرض.

قال لي: أنت ستقلب الدنيا على رأسك.

قلت: أنت مخطئ يا أبي الرائع.

قال: فلأكن أنا المخطئ، وليكن لشعبي النصر".

(*)

من مذكرات كنعان باشا:

الأربعاء 21 جمادي الأول 917

بعد ثلاثة أيام من مكوثي في إسطنبول، وعندما علمت بأن الأمير أحمد سيدعى للحضور إلى إسطنبول، اضطربت كثيراً، لأن الشاهزاده سليم لم يكن على علم بذلك، ويمكن أن يكونَ مظلوماً، وربما يقع ما لا تحمد عُقباه. أرسلت إلى كفة مرسالاً على الفور؛ لا بد من أن يأتي مولاي الشاهزاده إلى دار السعادة مرة أخرى.

كان الوزير الثاني هرسك زاده أحمد باشا هو من أخبرني بحضور أحمد، وإليه يعود فضل لقائي بالقادة العسكريين. وسلطاننا للمستقبل سيضع هذا في اعتباره، والوزير الأعظم مصطفى باشا الكبير رجل لا بأس به، إلا أنه يبدو متردداً، ولو كنت أستطيع التحرك لاستطعت إقناعه، ولكن، عليّ ألاّ أفضح نفسي.

كان ظل الشاهزاده أميري يحوم حول رجال الدولة المغرورين كغيمة سوداء، حتى هرسك زاده كان يبدو عليه أنه لن يتأخر في الانضمام إلينا، وعندما يحضر الشاهزاده أحمد إلى إسطنبول، فإنه سيدرك مندهشاً أن وقوف السلطان ورجال الدولة خلفه لن يكفيه للوصول إلى العرش. ستحدث اضطرابات، وسيضطر السلطان إلى التراجع بسببها، ففي هذه السلطنة لا يمكن أن يتحقق أي تغيير ما لم يدعمه الجيش، لذلك كان عليّ أن أدفع إلى اضطرابات كبيرة جداً.

وقد وصلني مؤخراً أن القزلباش (19) يعدون الأيام لسفر الشاهزاده أحمد

من أماسية، ولا أظن ذلك خافياً على الشاهزاده، بل ربما كان يسعى إلى إظهار قدرته، وكان يعلم أن إرادته وحدها هي القادرة على لجم القزلباش. أما الشاهزاده قورقوت فهو بشخصيته المرنة كان لا يزال محافظاً على صمته.

الثلاثاء 27 جمادي الأول 917

الشاهزاده أحمد أمام أسكدار؛ أهلاً وسهلاً به. لكن عندما علم بحدوث شغب كبير، ومداهمة بيوت الوزراء ومن بينهم بيتي، وهروب الرجال إلى القصر، وتركهم المدينة من الشوارع الخفية؛ لم يستطع أن يتقدم خطوةً واحدةً. وتأكد السلطان بيازيد أن طريق العقل واحد فقط، وحمَّل هرسك زاده باشا مسؤولية دعوة الشاهزاده أحمد إلى إسطنبول، وعزله من منصبه، ولم يكن يعرف حقيقة الأمر سواي وعدة أشخاص آخرين.

كان السلطان يريد جلوس أحمد على العرش، وبذلك يضع الجميع أمام الأمر الواقع، ولكنه تأخر في فهم أنه لا يمكنه ذلك بوجود القبضة الحديدية لسليم في المدينة. رضي الله عن حضرة السلطان بيازيد الثاني.

الخميس 4 جمادي الثاني 917

لا يمكن تصور شعور الشاهزاده أحمد عندما تحطمت آماله الكبيرة، فعندما يصل إلى أسكدار ويسمع بتمرد عساكر قابي قلو (20) الذين لا يريدونه، فإنه لا بد من أن يكون قد تحطم تماماً. لقد ملّ هو الآخر من لعبة القط والفأر، ولكنه لم يعد إلى أماسية بل نزل إلى قونية، وطرد محمد ابن أخيه المرحوم شاهين، واستولى على مكانه مرتكباً ظلماً وعاراً لا يمحى إلى الأبد، فأفقده هذا السلوك مكانة كبيرة.

لكن الأمر الذي يحيرني في هذه الأيام ليس شيئاً من ذلك، فالأستانة تستقبل في هذه الأوقات شخصاً لا يمكن إلا الاستغراب والتعجب منه؛ إنه الشاهزاده قورقوت. فماذا يفعل عالم وفاضل مثله في ألعاب السلطة القذرة هذه؟ نعم، فما إن غادر أحمد أماسية حتى قصد الشاهزاده قورقوت إسطنبول حاملاً معه أمواله.

استقبل استقبالاً حسناً بسبب شخصيته الطيبة الطاهرة، لكنه بقي وحيداً، فهو بكل أسف ليس في مستوى دراية الأمير سليم، ولا يمكن أن يصبح سلطاناً لمجرد أنه محبوب ومحترم، فهو أولاً ليس لديه ولد ذكر، وثانياً لا يملك المكر والدهاء والشدة اللازمة لتولي زمام الأمور. وأسطول الأخوين بربروس الذي أكسبه بعض الظهور، لم يمنحه عنصراً يضاف إلى حظوظه. أما بيازيد خان فما زال يتمهل، ولا بد من أنه رأى في الضغوط التي يمارسها

عليه الشاهزاده أمراً غير محمود، لكنه سيتجاوز ذلك قريباً.

الخميس 1 ذو الحجة 917

أنا هنا منذ ستة شهور، وكانت أيامي تمضي بالانتظار، ولقاء الشاهزاده سليم من حين إلى آخر. وكان بيازيد خان يختلق الأعذار المختلفة دائماً، فهو لم يفقد الأمل حتى الآن في تولية الشاهزاده أحمد العرش. وطال انتظارنا أيضاً، لقد كانت الأسباب الموجبة لعدم تولي الشاهزاده تتكوّن، فتوليه العرش يمكن أن يدخل السلطنة في المجهول، وبالرغم من هذا وصل إليّ أن الشاهزاده سليم غاضب جداً ومتوتر، ولا يمكنني إلا أن أعذره على غضبه وتوتره. فالشاهزاده أحمد الذي ترك مكانه خالياً في أماسية لم يرفع الراية البيضاء، ولا يمكننا تصديق أنه لا يعلم بما كان يدبره نوري علي وهو أحد زعماء القزلباش من حوادث. لا يمكنني تصديق ذلك، وحتى لو كان ذلك صحيحاً، ألا ينبغي للقائد الحقيقي أن يعلم بذلك من قبل؟! بالتأكيد بلى، لكن الوضع كان ضبابياً جداً والجميع في الظاهر يقفون في المنطقة الرمادية التي لا يمكن فيها معرفة النيات الحقيقية لأي كان.

بدأ اللغط يعلو في إسطنبول حول تمرد هذا القزلباش الجديد، أما أنا، فقد بدأت أشعر بأنني تحت المراقبة الشديدة، فربما انكشف أمري، لذا، ينبغي لي ألاّ أبتعد عن وسط الإنكشاريين، فالوقت ليس وقت العبث والتجول في الخارج، ويجدر بي أن أختفي عن العيون، فالمجتمع مستقطب إلى أقصى الحدود، وبالتالي، الوثوق بأي كان في هذه الأيام ضرب من الجهالة لا تُحمَد عقابه.

الجمعة 3 ذو الحجة 917

بعد صلاة الجمعة، تجولت في المدينة، وكان اثنان من الانكشارية يسيران على بعد مسافة مني بهدف حمايتي، وكنا نتجاهل أولئك الرجال المدنيين الذين يراقبونني، فسلوكهم المريب دلني ودل حراسي عليهم، كوني من الدوشرمة،لم أكن أثق بجنود قابي قلو، فقد كنت أدعي في داخلي أنني أعرف ما يجول في داخلهم، صحيح أنهم عاشوا من خيرات هذه البلاد وجمعوا فيها الشهرة والثروة، ولكن الإنسان في نقطة ما يبدو أنه يحنّ إلى أصله، وهذا شعور لم يتركني قطّ. ولست أدافع أيضاً عن مفهوم العرق الواحد الذي حقق لتيمور نجاحه المعظم، لكن أكثر هؤلاء الجنود من قابي قلو يضطرون إلى القتال ضد أناسهم وأراضيهم، وهذا يولد لدي إحساساً بعدم الثقة، صحيح أن الإنسان يصبح ابن البيئة التي عاش فيها لا التي ولد فيها، ولكنه انطباع لا يغادرني.

كنت أمشي ذاهلاً، وكان رأسي مليئاً بالخطط والخطط البديلة التي قد اضطر إليها، وبينما كنت على هذه الحال، وإذ بفتاة تظهر أمامي متسللة من إحدى حارات الروم في القسم الأدنى من برَه، كان جمالها يفوق الوصف، وعيناها شهلاوين تشعان كنرجس أخضر فوق جسدها الأبيض، وشعرها المتموج ينسل من تحت شالها الحريري الأحمر، استطاعت هذه الفتاة أن تأسرني، فكانت محاولة رؤية ابتسامتها الخجولة الخائفة من جديد تعادل كل المخاطر. كانت في سن تفتح الزهور، وكنت في سن نضوج الثمار، وكنت قد نسيت أن القلب يخفق منذ سنين، لذلك يمكنني أن أكون مديناً لها بهذا التذكير.

الأحد 5 ذو الحجة 917

لا أعرف كيف حدث هذا، ولا أعرف من أين جاءتني تلك الجرأة. رأيتها في مدخل السوق، وتتبعتها حتى بيتها. كانت تقيم في أحد البيوت المبنية من الصخر في أعلى الشارع الذي يصل بين قره كوي وبرة. راقبت تلك البيوت من بعيد؛ كانت رياح باردة قد بدأت تهب صعوداً نحو قمة التلة، أعقبها هطول مطر بارد.

نقشت موقع منزل الفتاة في ذاكرتي، لا بد من أنها ابنة تاجر غني، كان واضحاً أن لغتها التركية متقنة مثل الروم، ويبدو أن والديها في مثل عمري أو أقل. فماذا أفعل وأنا بهذا الوضع والعمر؟! في الحقيقة، كنت أرى أن البذور التي غرستها بدأت تُؤتي ثمارها، ولم يبقَ لي في هذه المدينة سوى إرسال الرسائل إلى الشاهزاده سليم. فما المانع في الاستمتاع بأيامي منذ الآن، وأنا أرى مستقبلنا الموعود تحت طرحة الزمان وشاله الرقيق؟

إنني أتصور الشاهزاده سليم وفقدانه لصبره في هذه الأيام كلما انخفض مستوى القلق في معسكرات قابي قلو، ومدى غضبه وهو يُعدّ الأيام. ولا أعتقد أن تمرد نوري علي سيكون كبيراً بمقدار النجاح الذي حققه شاه قولو (21) . نجح شاه قولو في السير إلى كوتاهية والاستيلاء عليها؛ ولا بد من أن أكون يقظاً، فليس في الخطة السماح بإضعاف دولتنا أكثر من هذا أبداً.

السبت 18 ذو الحجة 917

كل شيء جاهز الآن، ولم يمر على قورقوت وأحمد في حياتهما عجز وعدم اعتبار كهذا، ولم يبقَ لدى السلطان بيازيد خان الثاني بديل آخر، وفي هذا الصباح أطلقت الشرارة لأعمال شغب جديدة. فغداً، بعد صلاة الظهر، ستبدأ مظاهرة في معسكر قابي قلو، وسيجتمعون في ميدان الأحصنة ثم ينطلقون

إلى القصر، وسيرفعون شعارات تندد بضعف القيادة، ويطالبون بالقضاء على ثورة القزلباش، ويبلغون السلطان رسالة تفيد بأن الشخص الوحيد الذي يستطيع أن ينجح في ذلك هو الأمير سليم، وسيدعمهم العلماء، وعند ذلك سيقف الأهالي في صفهم. أما بيازيد، فسيضطر إلى إعادة النظر والتحقيق في قراره، وإن لم يقع سلطان المسلمين فريسة للهوى، فإنه سيتنازل عن العرش لسليم ويكون ذلك خيراً للجميع. أتمنى أن تسير الأمور وفقاً لخطتنا. وحسب ما أخبرنا المبعوث، فإن الشاهزاده سليم على وشك الوصول إلى سمنديرة، وكان وصوله يحتاج إلى بعض الوقت، لأنه يأخذ البيعة له. وحتى ذلك اليوم كان حفظ أمني وكشف هويتي والطغراء على عنقي والأمان الذي يعنيه يقع علي وعلى الوزراء الذين اضطررت إلى العمل معهم. ولا بد من عمل يسعد سلطان المستقبل ولا يتخلله أيّ خطأ.

بالأمس تمكنت من لقاء العلماء بواسطة أحد أساتذة الشاهزاده سليم الأجلاء؛ مولانا عبد الحليم، وأجمع أكثرهم على أن ياووز هو المناسب في هذه الظروف لاعتلاء العرش، ولو حصل ذلك بالقوة. والكلام بعد هذا يعتبر جزافاً، وبعد لقائي الثاني بحضراتهم قرابة العصر، شعرت براحة لا أعرف لها سبباً، فخرجت إلى الطريق من دون حراسة، وكان ذلك خطأً كبيراً.

كنت أسير من أمين أونو متجهاً نحو الخليج بخطى ثقيلة، وكنت على يقين بأن شخصاً يراقبني، فقد كان يسير خلفي وهو يغني، كانت أدلتي هذه المرة قوية جداً. فعندما وصلت إلى رواق مطعم مطل على فناء عند مدخل الميناء، التقيت برجل ضخم الجثة جامد النظرات، فألقيت عليه السلام، لكنه لم يرد، والتفت إلى الخلف مذهولاً، فرأيت على بعد عشرين ذراعاً منه رجلاً آخر يضع حزاماً على سرواله الكحلي، ويتكلم إلى الصيادين، وعندما لاحظني بطرف عينه لم يلتفت مرة أخرى إلى الخلف. في الحالات الطبيعية، إذا لاحظ رجل أن رجلاً آخر يمعن النظر إليه فلا بد من أن يستدير وينظر إليه هو أيضاً، وهذه القاعدة تسري إن لم يكن يراقبه.

كان واضحاً أن هؤلاء رجال السلطان أو الشاهزاده أحمد، كانوا يراقبونني بسرية تامة حتى الآن، وكانت دهشة الرجل الذي يراقبني كبيرة عندما رآني مطمئناً؛ إلا أنني في هذا المقام أستطيع أن أقول إن الخوف كان يعصف بي من الداخل، وما الطمأنينة التي بدت له إلا مظهر من مظاهر الخداع، فالخوف دفع العرق للتصبب مني بغزارة ولم يكن الهواء الربيعي الحار غير المعتاد هو السبب كما بدا له، بالرغم من أنني لم أكن أرتدي سوى قميص قطنيّ وصديرية حمراء بنقوش كحلية، وكنت أضع فوق سروالي

العريض حزاماً حريرياً. قمت بوضع منديل على رأسي تحت قلنسوتي كما يفعل الصيادون، وصرت أمسح بطرفه المتدلي من الخلف العرق المتصبب على عنقي بغزارة.
كان قائد الزورق الذي اتفقت معه على نقلي عبر الخليج مخيفاً، وكان وجهه مجروحاً ينسل منه الدود، واستطعت إقناعه بصعوبة بأن ينزلني قرب أيوب. في العادة، كان السور الذي يمتد حتى طرف القصر يزدحم كثيراً كل صباح حول الخانات القذرة، والدكاكين الصغيرة والكبيرة، والمستودعات الحجرية لتجار الجملة المنتشرة داخل السور وخارجه، ولكن، لم يكن هناك أي أثر لذلك الازدحام. عندما وصلت إلى الشاطئ كان الوقت قد قارب الغروب، وعندما صدحت أصوات الأذان كنت قد وجهت وجهي لهواء البحر الدافئ على طول الخليج، وسرت في الاتجاه المعاكس.
مرةً أخرى بجوار سجن آناماس شعرت بأن شخصاً ما يلاحقني، لم أكن مخطئاً، وفجأة سطع ضوء أصفر مائل إلى البنفسجي من حمولة السفينة، وبدا وكأنه من أفق الغروب. تسمرت واقفاً في مكاني برهة من الزمن، مأخوذاً بجمال إسطنبول.
من بين خطوط العين، كان ظل الليل الغائم ينتصب من فوق قباب المدينة، ويغرقها في الظلام الدامس. بدأت أسمع أصوات عصا عسس الليل تدق الأحجار. لم أكن لأخاف من شيء، طالما كان الأمان والطغراء موجودين على عنقي من الشاهزاده سليم. لكنّ وضعي كان مريباً، خاصة في مثل هذه الأيام المضطربة، حيث إن ترك الحذر خطأ كبير.
دخلت الخربة القريبة من السجن حتى أخفي أثري عمن يتعقبني. وبعد وقت قصير سرت بهدوء في الممر المظلم الذي تفوح منه رائحة البول والدخان بموازاة الجدران الخارجية، وتناهى إلى سمعي أصوات السلاسل، وأصوات الحراس القاسية الآمرة في الأقسام المستعملة من السجن، ومن حين إلى آخر كنت أسمع صياح السجناء المساكين. وبينما أنا على هذه الحال، ظهر أمامي فجأةً كلب من الزاوية الجنوبية الغربية حيث غُرَف مساعدي الجلادين كما أعتقد، وبدأ بالنباح، كانت تعبق في المكان رائحة مجارٍ كريهة، ثمّ نظرت إلى الكلب حاملاً حجراً. كانت مشارف التلال الواقعة خلف الغابة مظلمة جداً، وكانت أوراق الأشجار تبدو لي أحياناً وكأنها تنبهني أو تهمس لي وهي تزجرني بشدة، وتذكرت في تلك اللحظات أساطير الوحش المشؤوم الذي يعيش في الخليج. في مثل هذه المواقف يتخيل الإنسان كل الأساطير المشؤومة وكأنها حقيقة.

بعد وقت، وعندما نفد صبري، خرجت وشاهدت الظلال المبهمة التي تتعقبني تحت ضوء النجوم الخافت؛ كانوا ثلاثة أشخاص. وضعت يدي على الخنجر الموضوع في حزامي، وأطلقت صرخة استعداد للدفاع وكأنني ابتلعت مجموعة من المسامير الحديدية، وكان جسدي الذي لم يكن معتاداً على هذا النوع من المبارزات قد تبلل بالعرق والوسخ، ومددت يدي إلى الأمام كالسيف، بينما أصبحت ذراعي ثقيلةَ الحركة، فصرخ الرجال أمامي: "توقف! توقف!".

وعندما سألتهم: "من أنتم؟"، رأيتهم وقد استلوا سيوفهم، وكنت في ورطة كبيرة. لكنه لم يلبث أن تكلم أصغرهم وهو يقول: "توقف يا كنعان باشا". كان هذا الصوت معروفاً، بل معروفاً جداً، إنه همدم باشا. وبعد القيل والقال، أخبرني أنه موجود هنا لحمايتي. واتضح كل شيء، فالشاهزاده سليم والذي سيصبح في المستقبل القريب السلطان سليم، قد أسند مهمة مراقبة أحد أقرب أصدقائه إليه وهو أنا؛ إلى أحد أصدقائنا المقربين أيضاً. ولا أستطيع أن أشرح مقدار الانهيارات التي أحسست بها في قلبي.

صرخت بغضب قائلاً: "كيف قبلت بهذه المهمة أيها الكلب؟!". دمدم بأشياء لم أسمعها، بل لكمته لكمة قوية على فمه، ولن أنسى في حياتي أثر خاتمي الفضي على فمه، وندمي الشديد على ذلك بعدها. كان الرجلان اللذان كانا بصحبة همدم قد أشعلا شعلة بحجر الصوّان، ورفعا سيدهما من حيث وقع.

قال همدم باشا: "كنت مضطراً، سامحني يا كنعان، وكذلك لا أنكر قلقي من خروجك في الليل وحدك، فلم ينتهِ كل شيء بعد".

تقطعت نياط قلبي من صوته الحزين الطفولي، ومن الألم والانهيار اللذين بدوَا على وجهه، كان مأموراً، فماذا فعلت؟ ومع ذلك صرخت قائلاً: "ومن سيرسل خلفك ليتعقبك؟!".

تمتم من بين شفتيه الداميتين بصوت غير واضح: "لا تفعل يا صديقي كنعان، سيلتف حولنا العسس الآن، أنت على حق، وربما هناك من يتعقبني، ولكنك تعرف مثلي جيداً أن الشاهزاده سليم لا يسمح باللامبالاة أو التهاون".

همست هازئاً:

- أعرف أنّ الأخ لا يفعل هذا بأخيه يا همدم باشا.

- ومع ذلك سامحني يا صديقي.

عندما كان يقول ذلك، استطعت أن أميز في وجهه الحب والصداقة، عند

ذلك فقط أدركت ما قمت به من عمل سيئ لا يغتفر. كان شعوري يعبر عن حزني لفقدان صديق عزيز علي جداً، وسألته: "هل أنت بخير؟".
- أنا بخير.
- لقد آلمتك، فاغفر لي.
- لقد فعلت قبل أن تطلب.
عندما كنت أقول ذلك، حدث معي شيء لم يمر عليّ بحياتي قط؛ كنت أبكي وأنا أحاول إخفاء وجهي، لا أعرف لماذا؛ هل كان ذلك بسبب الظلام الخانق؟ أم بسبب عبء الخيانة التي أحسست بها؟ أم كان بسبب يدي التي أدمت شفتي صديقي الغالي، والتي ما زلت أشعر بألمها حتى الآن؟ لا أعرف، بل ربما بسبب ذلك كله.
استطاع أن يبتسم أخيراً وهو يقول: "لدي بشرى لك، لقد عرفت من تكون البنت التي قمت بزيارتها، وأخبرت سليم خان بذلك، وقد تعهد بأن يعقد لكما بنفسه، وستعطى ولاية ومنصباً لقاء خدماتك".
- لا أريد ذلك، كانت تكفيني ثقته.
- هذا تصرف ينسجم ومبدأ الأمن فقط، فلا تحمله على غير محمله يا كنعان باشا. هل يمكن أن أغضب على سليم خان لأن أحداً ما يراقبني؟
كانت أعماقي تنزف ألماً، فقلت: "فلننسَ هذا الأمر، ولنذهب من هنا، وغداً في الصباح نكشف عن هويتينا، وننطلق على رأس الجنود إلى القصر.
بينما كان يدير ظهره، قال همدم باشا: "كم كنت أتمنى ألاّ يكون هذا التغيير المبارك بالانقلاب! إن بيازيد خان رجل رحيم، لكن من حوله يتدخلون في أموره كثيراً. كان يمكن ألاّ تصل الأمور إلى هذا الوضع".
- لا تفكر في هذا يا باشا، فهذا العصر عصر السلطان سليم. إن قمنا بعملنا غداً صباحاً بشكل جيد، فاعتبر أن دار الدنيا في قبضتنا.
هكذا، لم يكن هناك أي مجال لارتكاب أي خطأ آخر، كان همدم باشا يقوم بواجبه، ولكن قلبي كان مجروحاً. ما هذا المفهوم الذي يدفع صديقاً لمراقبة أقرب صديق؟! لقد كان إجراء قاسياً لقياس مدى صداقتنا، ولكنه كان مؤثراً جداً. وهناك بالتأكيد من يتعقب همدم باشا، ولكنه مهما كان فلن يمسَّ هذا الإجراء الباشا كثيراً بسبب شخصيته المرحة. فبينما كنت لا أزال أشعر بصدري كأنه قبضة يدي المشدودة، كان قد نسي الضربة منذ زمن. ولكنني شئت أم أبيت، شعرت بشعور المحبة تجاهه مجدداً. ومن شدة خجلي لم أستطع أن أسأله شيئاً عن هوية الفتاة أو ما يتعلق بها.
الأحد 19 ذو الحجة 917

جرى كل شيء كما نتمنى، فلم تكد المظاهرة التي انطلقت عقب صلاة الظهر تبلغ أذان المغرب حتى جاءت الأخبار بتنازل السلطان بيازيد خان الثاني عن العرش لابنه سليم. وأصبح الشاهزاده سليم بعدها مولانا السلطان ياووز سليم خان سلطان الممالك الإسلامية.

بعد صلاة العصر، ذهبت لزيارة الشاهزاده قورقوت في القصر، ولم يكن الحراس يسمحون بمرور الطير في هذه الظروف المضطربة، ولكن الطغراء التي معي كانت تفتح لي كل الأبواب. وعندما كنت أسير في الممر المغطى كان الخدم الأدهمون الخرس يظهرون ويختفون في العتمات في مشهد طالما خفت منه في طفولتي. كان هذا القصر يبدو دائماً أمام عيني مكاناً للكسل والضياع، في كل زاوية خزينة سرية، أو جلاد ضخم الجثة في يده حبل المشنقة.

كنا نعرف بعضنا جيداً، سُرّ الشاهزاده قورقوت بلقائي كثيراً عندما رآني. وفي غرفته المطلة على المضيق الذي انتشر فوقه الضباب، تحدثنا لبعض الوقت عن الجو والطقس والماء، ثم أخبرني بتربية تركية عريقة أن كل ما يجري هو بتقدير الله عز وجل، وتحدث طويلاً عن أعراف أتراك آسيا الوسطى في الاعتقاد أن الله هو من يختار السلطان، وأنه يجب في حقه الطاعة، وعدم المخالفة. وتأثرت من شدة توكله وصفاء نيّته وملأ قلبي بالمحبة، وقمت إلى يديه فقبلتهما وأنا أطلب منه النصيحة، وهي أيضاً عادة تركية، فقال: "لسنا أهلاً للنصيحة، ولكن بما أنها حقّ المسلم على المسلم، فإذاً، اسمع إن دعاء السلطان مجاب، وخدمته تميز، ولا ينالها كل إنسان. فاعتبرها فرصة تغتنمها. والبلدة التي يدعو لها السلطان تعيش مطمئنة، ومن يخالف السلطان يغضب عليه الله".

عندما كنت أشكره على حديثه الذي رفع من معنوياتي؛ قال لي: "والآن دورك". كان الأدب يقتضي أن أقول: "أستغفر الله"، ولكن الضرورة كانت تستدعي أن أتابع. تنحنحت ثم قلت بهدوء: "ربما تكونون في هذا اليوم متألمين يا سيدي، ولكن لا بد من القضاء على هذا الشعور، وأن تستقيموا على قولكم، ولا بد من أن تنتبهوا كثيراً إلى الألاعيب التي تجري حولكم، فربما ظهر بين الجنود أو بين الناس لصوص يستخدمون اسمكم المبارك من دون علمكم، لتنظيم تمرد أو مظاهرة، فيؤدي إلى توتر العلاقات بينكم وبين أخيكم، ويسبب لدولتنا - حاشا لله - اضطراباً كبيراً، وعاقبة وخيمة لشخص عالم فاضل مثلكم.

أرى أنكم أحسنتم بالحضور إلى إسطنبول والبقاء فيها، وبما أنكم حضرتكم

فابقوا هنا دائماً، فأي مكان غير هذا هو غير آمنٍ لكم، ولتستمر محبة سليم خان لكم، والتي ازدادت بعد وفاة أخيكم الصغير شاهنشاه، وأرى أن وجودكم قربه مصيريّ في حياتكم، وإن قررتم الرحيل من هنا، فأنا أظن أنه لن يمنعكم أحد، ولكن، ستُنسَجُ حولكم شباكٌ من الفتنة والفساد".
سكتُّ قليلاً، محاولاً أن أرى مدى تأثير كلامي على الشاهزاده، ثم تابعت قائلاً: "أنصحكم بالبقاء إلى جانب أخيكم، ومتابعة أبحاثكم العلمية، وبإضافة الجديد إلى كتبكم القيمة، احفظوا أنفسكم خارج الحلقات القذرة لأعمال السلطنة، وإياكم ثم إياكم أن تتركوا المدينة، إلا إذا أسند إليكم سليم خان وظيفة ما، وليت الشاهزاده أحمد يُسلّم بهذه الحقيقة، ويتقبل الأمر الواقع، ويبايع فوراً، إن الأولوية لمستقبل الدولة يا سيدي، فالأفراد يأتون ويذهبون، أنتم أو أنا غداً، وربما اليوم، قد نموت ونرحل، ولكن الدولة ستبقى إن شاء الله إلى الأبد ما بقيت الدنيا".
استمع الشاهزاده قورقوت خان إلى كلامي بهدوء، ولم تتغير ابتسامته على وجهه الجميل طوال الحديث، لكنه عندما كان يودعني قال: "أيعني هذا أنكم تثقون بأن شعبنا ودولتنا سيزدهران مع السلطان سليم؟"، أجبته بحدة: "طبعاً أثق كل الثقة في ذلك". وعندما كان يربت على كتفي اتسعت ابتسامة حزينة على شفتيه وقال: "إذاً، مبارك".
في ذلك اليوم، عندما كنت في طريقي إلى بيت الوالد للقاء همدم باشا، وبحرارة أكثر من المعتاد لأكسب ودّه متناسياً جروحي، كانت كلمات الشاهزاده تدور في ذاكرتي بإلحاح. كان الحفيد الأحبّ إلى جده المرحوم السلطان محمد خان الفاتح، واعتنى بتربيته كثيراً وصار من كبار رجال العلم، وبعد وفاة جده كان ينوب عن والده عندما يسافر من أماسية إلى إسطنبول، وتذوق طعم القوة العظيمة، وعندما تذكرت ذلك شعرت بالقشعريرة تسري في كياني، وكأن ماءً بارداً صُبَّ عليّ، وقلت في سرّي: لا تفعل، لا تفعلها يا قورقوت خان.

13 طائفة من رجال الدين المسيحي تتمسك بالنصوص المقدسة .

14 لالا؛ لقب الصدر الأعظم ، ويقابله رئيس الوزراء في يومنا مع اختلاف في الصلاحيات يعود إلى اختلاف نظام الحكم . كما ي ُطل َق هذا الل ّقب على من يشرف على تربية الأمراء والأطفال ممن يتم ضمهم إلى القصر .

15 هو بيازيد الأول ، وهو الذي اقتتل مع تيمور - تيمورلنك - في معركة أنقرة . ووالد ياووز سليم هو بيازيد الثاني .

16 عصا ًتحمل في طرفها كرة حديدية مدببة ً، تستعمل في المعارك .

17 طاقم .

18 واضح من اسمه (قبان الطحين) أنه الميناء الذي توزن فيه الحبوب ، وبالتالي كل الحبوب تمر عبر هذا الميناء .

19 وتعني ذوي الرؤوس الحمراء ، نسبة إلى التاج الأحمر المميز ذي الاثني عشر ثقبا ً، يعرف في الفارسية بتاج حيدر ، ينتسب معتمره إلى الأئمة الاثني عشر ، وإلى حيدر الصفوي؛ الزعيم الروحي للحركة الصفوية . وهو لقب يـ ُطلق على أشكال متعددة من غلاة الجماعات العسكرية الشيعية التي ازدهرت في الأناضول وكردستان منذ نهاية القرن الثالث عشر الميلادي ، وأسهم بعضهم في تأسيس الدولة الصفوية في إيران . وعند الأتراك اليوم هم بعض طوائف العلويين ومنهم النصيريون .

20 قوة خاصة من الفرسان والمشاة يخدمون القصر ، وت ُصر َف لهم رواتب من خزينة الدولة .

21 كناية عن الشاهزاده سليم . وقولو يعني العبد .

الفصل الثالث:
إما الدولة وإما جيفة غراب
I
"حتى لو لم نكن معاً، لو استطعنا أن ننام ظهراً إلى ظهر، وكنا كرصاصتين في سلاح مزدوج السبطانة ترميان الهدف نفسه".
من إحدى الرسائل
إسطنبول؛ 24 نيسان 1512
بالرغم من محاولات سليم وإلحاحه الشديد، لم يكن السلطان بيازيد خان الثاني يرغب في الإقامة في القصر القديم الذي بناه والده الفاتح قبل قصر توبكابي، كان يريد أن يريح جسده العليل وقلبه الجريح بعيداً عن العاصمة في المدينة الجميلة ديما توقا إحدى مدن البلقان، وبالرغم من أن سليم لم يكن يوافق على تفرُّق مَن حوله عنه، إلا أنه اضطر إلى قبول طلب والده. ولم يكن سليم يرغب في أن يقترن اسمهم بأي لعبة من ألاعيب الفساد؛ كانت لديه أهداف كبيرة، ولذلك كان عليه أن يعزز الطمأنينة والهدوء في داخله. وفي الرابع والعشرين من نيسان اعتلى السلطان سليم خان - السلطان التاسع للدولة العثمانية- العرش رسمياً. أخذ البيعة، وما زالت نصائح والده ترن في أذنيه: "لا تترك العدل، وكن رحيماً بالضعفاء والعجزة، وارفق بالمساكين، وإذا أردت خضوع الناس لك فاحترم العلماء كثيراً، ولا تقسُ على أحد ما لم تكن مضطراً".
كان الشاهزاده قورقوت أول من بايع أخاه السلطان سليم، مقبلاً طرف ثوبه، مقدّماً فروض الطاعة بإخلاص. ووقف أولاد إخوته الآخرين أمامه أيضاً، وأقسموا يمين الولاء، وقدموا تهانيهم الخالصة. هكذا انتهى عهد السلطان بيازيد خان الثاني الذي استمر 31 عاماً، وبدأ عهد جديد.
لكن بيازيد خان الثاني لم يستطع الوصول إلى ديما توقا، فقد ازداد مرضه فجأة، فانسحبت قافلته إلى قرية آبالر التابعة لقضاء حوصة جنوب غرب أدرنة، ولم يستطع الأطباء أن يفعلوا له شيئاً. وهكذا شخُصت عينا السلطان الثامن للدولة العثمانية إلى الأفق الأبدي؛ يوم الأربعاء 26 آذار 1512، وأُحضرت جنازته إلى إسطنبول من دون تأخير، وتمت مراسم صلاة الجنازة في جامع الفاتح بحضور جمع غفير من الناس، ثم شُيّع إلى مثواه الأخير في جامع بيازيد الذي بناه بنفسه.
في تلك الأيام، حدث ما لم يكن بالحسبان، فقد سرت إشاعة يصعب تصديقها في عدة مناطق في الوقت نفسه، تفيد بأن سليم قتل والده

بالسّم، وعندما علم سليم خان بتلك الإشاعات، ظهرت على شفتيه ابتسامة ألم، وكان عليه ثقل كبير لإثبات براءته في أول توليه مسؤولية الدولة الصعبة، لكنه اكتفى بألاّ يفتح الموضوع، ويتجاهله تماماً.
بيّن ياووز لأخيه قورقوت أنه يمكن البقاء في إسطنبول آمناً مطمئناً، ويمكنه في حال إصراره على الرحيل أن يتولى الولاية التي يريدها، بعد أن يوقّع على تعهد بالابتعاد عن الفتن والقلاقل، وأعلمه أنه يفضل بقاءه إلى جواره في إسطنبول هنا. أثار موضوع التعهد حقد قورقوت، فضلاً عن حزنه الشديد على رحيل والده المفاجئ، وما بلغ سمعه من شبهات تحوم حول دور سليم في موت والده، ففضل أن يبتعد، وطلب بالإضافة إلى ما كان يتولاه (مانيسة - ساروحان)، أن يتولى جزيرة ميدللي، وأجيب إلى طلبه باستثناء ميدللي الذي تم تقييمه كطلب مشبوه. بالمقابل فتحت له الخزينة إن احتاج إليها من دون أيّ قيود.
عندما غادر إسطنبول بمراسيم رسمية، لم تكن تعابير الانكسار خافية عن وجهه الجميل. كان أقرب أحفاد السلطان محمد خان الثاني الفاتح إلى قلبه، وكان قرة عينه. ولكنهم الآن ينظرون إليه وكأنه رجل يمكن أن يثير المشاكل، وبدا على محياه الجميل شحوب مليء بالأسرار.
كان يفكر ودموعه تجري أنهاراً على خديه، وابتسامته الحزينة المضطربة تركت خطاً بين حاجبيه:
"أحمد موجود في الجنازة... يا الله! ما هذه الجرأة!". كان ينظر إلى نعش والده من بعيد، وانتبه إلى أنني ألاحظه أيضاً، كان الضباب يغسل الأيام المضطربة، وكانت عيناه تتكلمان وتخاطبانه بحزن: "من فضلك، لقد فقدت سندي ومعتمدي الوحيد، فقدت أبي، أرجوك انظر إلى الأمام، وتظاهر بأنك لا تراني".
لم يكن قورقوت يملك لأخيه المتنكر الذي وصل إلى الصف الأول مندساً بين الجموع ببطولة ومن غير حراس، سوى الدعاء، وقد فعل، ولكن، هل لاحظه سليم أيضاً؟ وهل يمكن له ألاّ يعرف أن أخاه موجود في زحام الجنازة؟ وهل يمكن أن يغيب عن رئيس جواسيسه وجود أعداء في مكان قريب جداً من سلطان قوي مثله؟ لا بد من أن يكون لدى كنعان باشا وهمدم باشا علم به، لكن أحداً لم يتعرض لأحمد شاه، واختفى بين الجموع بعد صلاة الجنازة.
كان ياووز قد جلس على العرش رسمياً، ولم يصدر أي صوت عن الشاهزاده أحمد في ظل الأمر الواقع الذي كان منتظراً من زمن، ولكن

هذا الصمت لم يستمر طويلاً؛ ففي أواخر أيار، في الأيام التي تزوج فيها كنعان باشا من أونيا، الفتاة الرومية التي التقى بها أول مرة، وصل الخبر إلى إسطنبول بأن الشاهزاده أحمد أعلن استقلاله في قونية، وصار يُدعى له في الخطب، وصك النقود باسمه، وبدأ يأخذ البيعة لنفسه ممن حوله، ويكون بذلك قد دمّر كل الجسور بينه وبين أخيه السلطان. لكن القلق لم يكن ليفارقه، فكان يلقي الأوامر تلو الأخرى على مؤيديه وعلى الضواحي القريبة منه. وفي الليل، كان النوم يجافيه من شدة شعوره بالظلم الكبير الذي يحسّ به.

كان الأمير أحمد في قصر علاء الدين قيقوباد في غرفته الخاصة يتأمل من النافذة المقنطرة المدببة، السماء التي تشبه بحراً يتحرك ببطء. وبإشارة صغيرة من يده أمر بإحضار الموسيقيين والمطربين، لكنه لم ينتبه إلى أصواتهم الجميلة التي صدحت حوله، واستمر في صمته واقفاً إلى جانب النافذة متأمّلاً السماء.

أصبح خروجه عن السلطة المركزية واضحاً، وهذا يعني أن الفوضى قريبة على الأبواب. كان يدرك أنه لا يمكنه إدارة الدولة بعدة حركات هنا وهناك، وحين أغمض عينيه أيقن أن تحركاته لا تعدو عن أنها مغامرة غير محسوبة النتائج.

فهو الأخ الأكبر سناً، ووالده السلطان وكبار رجال الدولة يميلون إليه، والآن خرج أخوه الأصغر بجنونه المزمن، ووضع يده على كل شيء، وفجأة، عاد بذاكرته سنوات إلى الوراء، إلى طفولته، وتذكر حفل التطهير التي حضرها في إسطنبول، ألم تكن حفل تطهير الدونمة (22) الإيطالي؟ أي حفل تطهير كنعان باشا رجل سليم الخاص، نعم، لقد هدد أخاه بعد مشادة صغيرة جرت بينهما بأنه إن أصبح سلطاناً فسينفيه إلى ولاية نائية، فماذا أجاب سليم؟ وسرت القشعريرة في جسد أحمد وهو يتذكر كلمات سليم: "سآمر بخنقك بوتر القوس". وتسللت من أعماقه كتل من الخوف الممزوج بالغضب نحو عينيه: "سيفعل ذلك". وأحس بالدماء تتجمد في عروقه، وباعتصار في حلقه. لكنه فكر في أمل جديد من الشاه إسماعيل، إنه سيستعين بجيش الشاه، وسيدخل إسطنبول على رأس ذلك الجيش، ويستعيد حقه في العرش.

كان جيشه يكبر يوماً بعد يوم، فقد صار تحت إمرته مجموعة من قادة الأركان الخبراء الذين فروا خوفاً من بطش ياووز، ولم يتأخر الشاه إسماعيل في تقديم دعمه المادي، ووعده بتقديم الجنود أيضاً. لقد صار ذئباً، ولكنه كان يخجل كثيراً، فهو يشعر بأنه منبوذ طريد، إنه خجل مليء بالشكوك،

وفكّر في الامتيازات التي سيضطر إلى إعطائها للشاه إسماعيل في ما لو أصبح سلطاناً، وضاق صدره أكثر من ضغط النار التي يشعر بأنها تلازمه، لكن التفكير في ذلك كان من دون جدوى. ومال برأسه إلى الأمام محاولاً أن يستمع إلى الموسيقى، لكنه لم يستطع، فما زال عقله مشغولاً بالشاه الذي ظل ينافس السلاطين العثمانيين دائماً، وبسياسة الرياء التي كان يدعم بها القوى التي تستطيع أن تلحق الضرر الاقتصادي بالعثمانيين.

طبعاً، لم يكن يرى في الشاه إسماعيل قائداً للعالم الإسلامي، ولكن كيف سيتحول الآن موقفه بعد المساعدة التي يتلقاها منه؟ ألن يصبح ألعوبة بيده؟ كان يصعب على الأمير أحمد حتى أن يحدّث نفسه بمثل تلك الهواجس. فكل ما قام به من أعمال هي من أجل المنصب والمستقبل، ولكن كيف سيدفع ثمن ما قام به أمام الله؟ ألم يعد هناك مجال للتراجع؟ فالرجوع معناه نهاية الطريق له ولعائلته. وأحياناً كان يتذكر جنازة والده، وتتجدد جروحه كلما يخطر في باله أنه لم يستطع أن يحمل نعش والده، ويضعه في لحده بنفسه، كان ينتظر بصمت، وقد سدت الهواجس السوداء كل أمانيه، صار كالوردة التي تذبل يوماً بعد يوم.

II

بورصة؛ تشرين الثاني 1512

"لقد كُتِبَت الرسالتان اللتان طلبتموهما، وأُرسلتا إلى أخويكم يا سيدي".

هز السلطان ياووز سليم خان رأسه بهدوء، وقد أخفى قلقه خلف قسوته، وتأمل لبعض الوقت بخار أنفاسه الذي ظهر على النافذة. كانت رياح المساء الباردة التي تهب من السفوح المطلة الملتحفة بالبياض، وفرقعة الحطب في الموقد من حين إلى آخر تختلطان بحسيس النار الملتهبة، إن أحوال الشتاء هي التي اضطرته وجيشه إلى البقاء في بورصة منذ شهرين، وكلما تذكر السبب الحقيقي في وجوده هنا، كان يشعر بأن الشتاء الذي يعصف بأعماقه أشد وطأة وأكثر برودةً.

أشار الوزير الأعظم الجديد أحمد هرسك زاده باشا إلى سلاحدار آغا بالخروج بحركة من رأسه، ثم تنحنح، وبدأ بالكلام: "إن الذات الشاهانية تعرف جيداً أن حضرة الشاهزاده قورقوت رجل وَفِيٌّ في قوله وفعله، وأعتقد أنه لن يلتفت إلى التحريضات على الشغب، وأنه سيبقى وفياً ليمينه والتعهد الذي وقعه، وسيخبرنا بالفتن فور حصولها".

همهم ياووز: "وإن لم يفعل؟".

مال هرسك زاده إلى الأمام وهو مشدوه، وقد بدت على وجهه المحمر

خطوط القلق، وقال: "لم أفهم قصدك يا مولانا".
"ماذا يحصل إن أصابه هوس السلطة مثل أخينا الأكبر أحمد؟ إنه بلاء يجعل الإنسان عدو نفسه وعائلته أولاً، ثم شعبه. إن دولتنا تعاني من مشكلة قضية البقاء والوجود، وهم يعرفون ذلك مثلي تماماً. إن من يفكر في نفسه في مثل هذه الأيام فلا يكون محترماً، لقد صار عمري اثنين وأربعين عاماً، وأخي قورقوت خمسةً وأربعين عاماً، وأخي أحمد ستةً وأربعين عاماً، وهذا يعني أننا بلغنا سن النضج منذ زمن.
ولكن ماذا فعل شاهزاده أحمد؟ تقدم في شهر حزيران خطوة إلى الأمام، وأمر ابنه الشاهزاده علاء الدين باحتلال بورصة. تتذكر كم نصحناه، ولكن من دون جدوى، ولم يندم على ما فعله، وقطع حكم الأخوة بيديه. كنت قد عاهدت المغفور له بإذن الله أبي السلطان ألاّ أتعرض لإخوتي ما لم يثيروا المتاعب، وها هو أخي قورقوت المستمر في صمته وانعزاله، وانخداعه بالذين يدفعونه للتمرد، يقود نفسه إلى الهلاك.
لم يصغ الشاهزاده أحمد إلى نصائحنا، فما إن غادرت إسطنبول على رأس جيشنا آخر شهر تموز، حتى هرب الشاهزاده علاء الدين من بورصة بالرغم من أن مالكوج أوغلو طور علي بك كان خلفه. ثم تبعه الشاهزاده أحمد، فترك قونية وانسحب إلى أماسية، ولكن لم يستطع البقاء هناك أيضاً بسبب الظلم الذي أنزله بالناس، فاغلقت دونه الأبواب بمجرد خروجه منها، أي إنه طرد، وبناءً على ذلك أرسل ابنه الشاهزاده مراد باسمه إلى الشاه إسماعيل يطلب عونه. وبناء على تقارير الجواسيس، فإن قوات إسماعيل الخاصة والتي بلغ عددها عشرين ألفاً، دمرّت وخرّبت ما حول طوقات في فصل الخريف. وانسحب الشاهزاده أحمد مع أولاده إلى ملاطية تحت حماية الشاه.
وبسبب تعقيدات الطقس نجح الشاهزاده أحمد أن يضع الشتاء حاجزاً بيننا، ويستغله في التخطيط لجمع المساعدات المادية والعسكرية قدر ما يستطيع، وحتى الآن كل الأمور في صالحه، ولكن الربيع سيأتي مهما طال الزمن، وإذا مدّ الله في أعمارنا فسنتواجه بالتأكيد. وعمي السلطان جم كان قد استخدم التكتيك نفسه في حربه مع والدي، وأعلن نفسه سلطاناً في بورصة، لكنه خسر في النهاية، وهرب إلى أوروبا، وترك الدولة في ظرف مأساوي ناضلت سنوات عدة لتخرج منه. باختصار، واجبنا يملي علينا التحرك بمجرد حلول الربيع، وحماية وحدة أراضينا وأمنها أولاً".
بدأ همدم باشا التكلم، فقال: "لولا أن الصدر الأعظم قوجة مصطفى باشا

حرض حب السلطة عند الشاهزادات..."، لكن أحمد هرسك زاده باشا لم يرد أن يذكر سلفه بسوء فقاطعه قائلاً: "كل ما في الأمر أن قوجة مصطفى باشا انساق وراء ميل الرأي العام، فقد كان رجال الدولة وحتى الشعب في المدن الكبيرة في عهده يدعمون الشاهزاده أحمد".
قال ياووز بهدوء غير معهود: "فلنغلق هذا الموضوع يا أحمد باشا". ثم سحب نفساً عميقاً قبل أن يتابع وقال: "لقد انتهت هذه المسألة، لقد دفع قوجة مصطفى باشا رأسه مقابل سياسته المزدوجة، ومن المعلوم أن عاقبة من يقف في المناطق الرمادية في وقت الاضطرابات أن يجد نفسه وحيداً عند انتهائها ويقود نفسه إلى الهلاك، ولكن الآن علينا تخطي عثرات الماضي والتفكير في المستقبل".
مال هرسك زاده العجوز برأسه خجلاً ولكن بثبات، ففي العهد الجديد، وبعد إعدام قوجة مصطفى باشا، كان كرسي الصدر الأعظم من نصيبه، وهذه هي المرة الرابعة التي يتبوّأ فيها هذا المنصب، فهو سياسي مخضرم، ففي عام 1486 عندما وقع مع جيشه في الأسر بيد المماليك في أضنة، وحمل إلى القاهرة أصابه قلق كبير مما قد يحل به في الأيام الأولى. وعلى الرغم من أنه أسير، فإنه بذكائه وأدبه استطاع أن ينال احترام السلطان قايتباي. فكان هذا السلطان الشركسي، يتلهف إلى المعرفة ولو من الأسير، فقد كان يرغب في معرفة كل ما يتعلق بالعثمانيين والسلطان بيازيد الثاني، ويشعر بأنه في منافسة دائمة معهم، كانا يمضيان الليالي وهما يتجولان في باحة القصر المطل على مجرى النيل حتى يضنيهم التعب. كان الشركسي العجيب يسأل عن كل ما وصل إلى سمعه من أخبار، وهرسك في كل مرة يخاطب العقل في إجاباته الماهرة. تم دفع الفدية بعد شهرين، وحزن قايتباي كثيراً وهو يودعه بالهدايا العظيمة.
وأخيراً، خرج مصلح الدين مصطفى أفندي تاش كوبرولو زاده أحد أساتذة ياووز عن صمته قائلاً: "ينبغي ألاّ تحرج الدولة العليّة إلى هذه الدرجة، والمتسببون مسؤولون أمام الله".
عندما كان مولانا عبد الحليم وسليمان باشا يعبران عن تأييدهما لرأي مصلح الدين أفندي، كانا يسترقان النظر إلى سليم خان. بدا السلطان شارداً، وكأنه لا يستمع إلى أحاديثهم، ولكنّ العارفين به المقرّبين منه يعرفون تماماً أنه شارد في عالمه الداخلي، وفي هذه الظروف كان يكتب الشعر باسم "سليمي" المستعار.
قبل أن ينصرف المجتمعون من الديوان، دخل سلاحدار آغا يعلن عن قدوم

مبعوث من الصفويين التركمان، وسط نظرات أعضاء الديوان الذاهلة والحذرة التي تدل على شكوكهم في سلامة النية. كان المبعوث على رأس مجموعة مختارة من خمسين شخصاً، وكان ذا هيبة، يعتمر عمامة حمراء ملفوفة بالحرير، ويطوق قميصه الأبيض حزام أحمر، وكان معطفه من فرو الدب، وكانت تبدو عليه آثار التعب. قرأ الثناء المكتوب من الشاه إسماعيل لسليم خان، ثم طلب منه السماح بفتح صندوق الهدايا أمامه، وبعد تفتيش الصندوق، تم إحضاره إلى الغرفة الخاصة، فكان صندوقاً مرصعاً صنعه الأزابكة المهرة من قشر الجوز، وكان غالياً لا يقدر بثمن، وبدا وكأنه قد جمع فيه كل أضواء النهار الخافتة، وكان الصندوق ممتلئاً بكل غالٍ ونفيس من الملابس والزينة.

لم يكن المبعوث قد غادر المكان بعد، عندما انتبه كنعان باشا إلى رائحة كريهة صدرت من بين الأشياء التي قدمت، وسرعان ما نبه السلطان: "هناك خطب ما يا مولانا"، وعندما كان يقول ذلك، كان وجهه الأسمر اللطيف يتحول إلى قسوة لم تكن معهودة منه إلا قليلاً.

وفجأة صمت الجميع: "خيراً يا باشا".

"أدرك كنعان باشا سر الرائحة التي كانت تنبعث من الأشياء وهو يفتشها بنفسه، ولكنه كان يريد أن يتأكد فقط، لأنه لم يكن يظن أن تبلغ بهم الجرأة هذا المبلغ، ثم استدار إلى المبعوث، وصرخ فيه بغضب لم يعهد عنه من قبل قطّ: "أجثُّ على ركبتيك أيها الكلب".

فوجئ المبعوث الضخم بما حدث، وشعر باقتراب نهايته، وجثا على ركبتيه وقد خارت قواه، ومال برأسه وهو يقول: "لا أعرف ما بداخله يا سيدي".

قفز ياووز من مكانه وسأل: "ماذا بداخله يا كنعان باشا؟!".

"لا تقتربوا يا مولانا لقد تجرأ على مقامكم العالي، وقام بأفظع الأعمال ضد سلطان العالم، في الصندوق ما يخجل اللسان من نطقه يا سيدنا".

"ما هو يا باشا؟!".

"ألتمس عفوكم، إنها جيفة حيوان يا مولانا".

كان الصمت القاتل يحتمي بزمجرة الرياح، وخاطب ياووز المبعوث قائلاً: "اخرج، وانتظر الجواب".

نهض المبعوث، وخرج من الغرفة الخاصة وهو يركض فرحاً بنجاته وإن إلى حين، وقال: أمركم مولانا".

استدار إلى كنعان باشا بشكل غير متوقع وقال: "جهز علبة جميلة من حلوى الورد التي كنا نُغرَمُ بها في صغرنا، ولترسلها إلى الشاه إسماعيل". ثم

التفت إلى همدم باشا.
قال همدم باشا بصوته الذي ازداد حسناً بسبب إصابته بنزلة البرد التي تصيبه في مثل هذه الأجواء الباردة: "نعم يا مولانا السلطان".
"خذ قلماً واكتب على علبة الحلوى: كل شخص يهدي مما يأكل.
مانيسة؛ شباط 1513
بدا ياووز منهكاً وحزيناً. كان ما عاشه في الحقيقة اضطراباً عاطفياً مؤثراً، وكان يبدأ الكلام بقوله: "تعرفون يا أصدقائي أنني قطعت عهداً لوالدي". ثم يسلسل ما يفكر فيه ويقول: "ولكن أخي قورقوت كان قد وعدني أيضاً، وبقي صامتاً فترة طويلة تجاه الرسائل المستفزة التي أرسلناها إليه، ونجحت في حماية آمالي في تلك الظروف، ولكن انظروا ماذا حصل الآن في أواخر الشتاء، لقد تمكن الشيطان من السير في دمائه، ولم يجلس ساكناً، واشتعلت فيه شهوة السلطنة، وكان بكل أسف أول من نكث بوعده، وها هو الآن اضطرب من دخولنا إلى مانيسة، وتركها هارباً"، رفع حاجبيه، وتنفس بعمق، ثم تابع: "في هذه الاضطرابات، اضطررنا إلى قتل أبناء أخي المرحوم شاهزاده محمود؛ موسى (بك (23) قسطموني) وشاهزاده أورخان وأمير خان، وابن عالم شاه؛ عثمان بن عالم (بك جانقري)، وابن شاهنشاه محمد (بك نيده)، استناداً إلى فتوى العلماء الأفاضل، وعلى رأسهم شيخ الإسلام حضرة علي أفندي زنبيلي". فرك عينيه بيديه، وقد ظهر حقاً حمل السلطنة الثقيل عليه، تلك المسؤولية الثقيلة حولت عينيه الساهرتين إلى وعاء من الدماء.
كان الصمت العميق يلف الغرفة الخاصة بسقفها المرتفع في الجناح المبني على ساحة كبيرة داخل الأراضي الواسعة لقصر مانيسة والبالغة ستة وخمسين دونماً، وكان الديوان منعقداً، وكان سقف المجلس الرطب وكأنه ينخفض ويضيق من ضغط ما يرغب في قوله ولا يستطيع. كان سليم خان يدرك كل شيء، ويعرف أنه سيعاني من عذاب مرير لأنه يدرك أن الصعوبات حوله لن تُفهَم، وكان الوزراء والباشوات حوله الذين يدركون ذلك قد آثروا الصمت.
لكن كنعان باشا الصديق الحميم للأمير قورقوت، ورغم النظرات التحذيرية لهمدم باشا، شق سكون الصمت وقال: "لم أستغرب قطّ دعم رجال الدولة لأخيكم أحمد خوفاً من قسوتكم، وهناك كثير من الناس يبحثون عن الأيام الهادئة في عهد أبيكم، وفي هذا إشارة إلى أن عهدكم سيكون خيراً وبركة على المملكة والبلاد المجاورة".
"إن رجال الدولة الذين تتحدث عنهم جبناء يسعون للسكناء وعدم تغيير

حياتهم الهادئة يا كنعان باشا. إنهم لا يعرفون سوى ملء البطون والقعود وجمع النقود. ولهم بالتأكيد حصصهم في القوافل التجارية الكبيرة بالرغم من أنه لا يحق لهم في ذلك. وبخصوص تجارة الشراب عبر بحر إيجه، ففيهم من يدعم التجار الموسويين الذين يتصارعون مع البنادقة، أعرفهم واحداً واحداً، وإن فكروا في غير ذلك فهم مخطئون كثيراً، فعيونهم لا ترى غير تأمين طرق التجارة، لأن رؤوس أموالهم ستكون في خطر. لا يمكن لرجل الدولة أن يعمل في التجارة، ولا أن يكون تاجر جملة ولا تاجراً في السوق السوداء. فمن ينفق هو المحبوب عندنا لا من يجمع ويكنز، ولقد تغير هذا المفهوم الآن يا أهل الدين، ولكن انتظروا وانظروا ما الذي سأفعله بمن يضع مصلحته قبل مصلحة دولته وشعبه، نعم سأفعل، فهم لا يفهمون إلا هذه اللغة".

بينما كان الجميع ينظرون إلى الأرض وقد حبسوا أنفاسهم، سُمِع صوت كنعان باشا وهو يقول: "لذلك يشاع أنكم لم تطلقوا لحيتكم يا سيدي!".

ترك ياووز على وجهه ابتسامة تحاكي ابتسامة صديقه كنعان، مكان الغضب الذي كان يزلزله وقال: "أنت على حق يا كنعان باشا، ليست لدي نية أن أترك لحيتي في يد الوزراء التجار، لذلك لم أطلق لحيتي، وأردت أن تصل رسالتي التي أردتها، إنها شارباي المفتولان، وإذا ما حاولوا أن يمسوهما فسيغرقون في الدماء".

مسح جعفر لالا باشا لحيته وشاربه العريض الطويل الذي يغطي شفتيه بيديه الضخمتين، وقال: "الطقس يتحسن يا سلطاني، لكن الأمطار ما زالت تنهمر، وهذا يمنع سفرنا".

"خيراً يا جعفر باشا. ليس هناك شيء يمنع سفرنا، فالكبار يقولون: من ينهض باكراً يستقل الطريق، وهذا رأينا، لقد حان وقت استقرار البلاد منذ وقت طويل".

هز همدم باشا رأسه يمنة ويسرة، وتنفس بعمق، ثم قال: "سار الشاهزاده أحمد خان على رأس جيشه إلى بورصة مرة أخرى بعد حصوله على دعم الشاه إسماعيل. كان يعتقد طوال الطريق وبإصرار أنه سينضم إلى جيش الاتحاد الكبير الذي تذكره الرسائل المكتوبة التي تشجعه على المسير، وهو مطمئن لدعم الرجال الذين لم يعجبهم الوضع بعد إعدام مصطفى قوجة باشا".

قاطعه جلال ميري عالَم بك: "ولكن..." وظهرت على وجهه الجميل ذي اللحية الخفيفة ابتسامة خفيفة، وتابع: "إن جيش الشاه إسماعيل مكون من

التركمان المحاربين المؤمنين والأقوياء، تكتيكهم الحربي متشابه، ولكنهم لا يرحبون بالقتال في حرب بالوكالة".
قال ياووز: "لا أظن أنهم يعتبرونها سخرة، فمنفعتهم كبيرة عند سقوطنا، وإسماعيل لم يعد يرى سوى طمعه بابتلاع سهول الأناضول".
تابع جلال بك: "المحاربون الصفويون وبعد استعدادكم للغزو الكبير، يحلمون بالقضاء عليكم مع جيشكم، وانتقاماً لانتصاراتكم عليهم في فترة توليكم الإمارة يا مولانا، لذلك لا نستطيع التخمين بما يمكن أن يقوموا به في هذه الحرب، إن الأمير أحمد يخطئ في ما يفعله يا مولانا".
"هذه فكرة تستحق التفكير فيها يا جلال بك، ما رأيكم يا همدم باشا؟".
"أقول إن سَيرَ مالكوج أوغلو طور علي بك خلف الأمير علاء الدين، ونزوله عند حدودنا الشرقية يجعلان لعاب أعدائنا يسيل يا سلطاننا. فقد يكون جلال بك على حق، فاستراتيجية الحرب التقليدية التي يرتبط بها الأمراء الترك الصفويون تقتضي هزيمة لا تقوم لنا بعدها قائمة، وتبلغ بها شهرتهم أقاصي العالم، ويصبحون بعدها حكام الدنيا المتفردين، كما فعل تيمور في العام 1402 لبيازيد يلدرم رحمه الله وجعل مثواه الجنة. ولذلك سيقومون بكل ما يستطيعون فعله من تحريض، وهم يدركون أن الشاهزاده يسير سير اليائس، ولذلك يستخدمه الشاه إسماعيل طعماً فقط، وغايته دفعكم للخروج من مصائبكم والسير نحوه. إنه ذكي جداً، وقد استطاع أن يحلل شخصيتكم جيداً، والشاهزاده يتوهم بوجود قوة كبيرة خلفهم، لأنهم لن يدعموه حتى النهاية".
"ماذا قصدت بقولك استطاع تحليل شخصيتكم جيداً يا باشا؟".
أحس همدم باشا وكأن رياحاً باردة تعصف به تحولت من جهة ياووز فجأة، ثمّ قال: "أقصد أنه خبير استراتيجية جيد يا مولانا السلطان".
"ونحن حمقى يستطيع ذلك الولد أن يحرضنا أليس كذلك؟".
أدرك همدم باشا جسامة ما تفوه به، وانحنى فوراً ليقبل طرف ثوب السلطان وهو يقول معتذراً: "حاشا سموكم يا مولانا السلطان".
مع ذلك، بدا وكأن الضيق الذي كان يشعر به ياووز قبل قليل قد انزاح وقال: "هيا، لا داعي لما تقوم به، قم إلى مكانك، سيوقعك تصرفك الجنوني في ورطة يوماً ما يا باشا، تعلّم أن تضبط لسانك قليلاً".
تراجع همدم باشا، وأحنى رأسه حتى كاد أن يضعه بين ركبتيه، ولم يفتح فمه بعد ذلك حتى نهاية جلسة الديوان.
أدار ياووز وجهه إلى المطر الذي انهمر فجأة، وبدأ ينقر على الزجاج، ثمّ

قال: "كل هذا يخطر في بالي، ولكن، كنت أنتظر أن أسمعه أيضاً من أناس راشدين مثلكم يا أصدقائي، لقد أرحتم فؤادي، فإن كان لدى السلطان قادة صادقون ناضجون أمثالكم، فإنه يستطيع السير من نصر إلى نصر. وأقول الآن إنني سأرسل إلى أخي رسالة أخيرة أحذره فيها، وأنصحه أن يرتدع ويتوب، ويحضر إلينا آمناً مطمئناً، ويمضي ما بقي له على وجه البسيطة بهدوء وغنىً، فإن قبل بذلك، فسنكرمه. وسيكون بذلك قدوة لأخي قورقوت أيضاً. ولنخبر أخي قورقوت بعلمنا بما يفعله، وانسياقه خلف الفتن، ولنعلمه بأننا عفونا عنه". وعندما رأى نظرة اليأس من هذه الخطوة عند الباشوات، قال لهم: "دعونا لا نفقد الأمل".

29 آذار 1513

كان وجه ياووز في الصباح شاحباً، وقد بدا، بسبب قلة النوم، السواد حول عينيه، وبعد تناول حساء الصباح، جمع ديوانه فوراً، وتحدث قائلاً: "حسناً أيها السادة، والآغوات، والباشوات إنهم لم يستمعوا إلينا، ولم يعدلوا عن دعواهم المحملة بالفتنة والفساد. وللأسف، ألقي القبض على أخي قورقوت خان بوضع تعيس في إحدى المغارات التي لجأ إليها في المناطق الجبلية المتناثرة في ولاية برغاما. كانت نيته الهروب خارج البلاد عبر أنطالية بمساعدة الأخوين بربروس، وربما إلى أوروبا. بالله عليكم! كيف يقوم شخص عالم وفاضل مثله بمثل هذه الأعمال؟ لقد أمرت بقتل التركمان الخمسة عشر الذين تجرأوا على الإخبار عن مكان الشاهزاده طمعاً بالمال، فإخبارهم هذا يعتبر جريمة بحق العائلات العثمانية العريقة. وبالنسبة إلى قورقوت خان، فقد أوكلت أمره إلى رئيس الحجاب سنان باشا الذي محا بأمرنا وباسم نظام العالم، كثيراً من أعضاء عائلتنا العريقة. غفر الله تقصير قورقوت خان".

ما إن لحق سنان باشا بالجيش في الخامس من نيسان بعد سفر متواصل تحت المطر، ووصوله الخيمة حتى بادره السلطان ياووز سليم خان بالقول: "أيها الأخ، ليتك لم تفعل ما فعلته، وليتني لم أضطر إلى أمرك". واختنق بدموعه، وأمر بدفن قورقوت خان قرب تربة الغازي أورخان في بورصة، لأن أخاه الصغير المحبوب شاهنشاه مدفون فيها أيضاً. والتفت نحو الرجل المخلص لقورقوت خان ونائبه بيالا قائلاً: "سأمنحكم العفو الذي لا أمنحه إلا لقلة من الناس لوفائك الكبير". ثم عرض عليه منصب الوزارة. فشكره بيالا، وتحدث بكلام سيسجله التاريخ: "وظيفتي بعد اليوم ستكون خدمة تربة الشاهزاده قورقوت يا مولانا السلطان". فلم يرفض ياووز طلبه.

ولم يبقَ بعد الآن سوى الشاهزاده الوحيد.
24 نيسان 1513
من مذكرات كنعان باشا:
الأربعاء 18 صفر 919
لم يخرج السلطان ياووز سليم خان من خيمته طوال الليل، ودخلت إليه مرتين بناءً على طلبه، كان مشعله مضاءً، وكان يقرأ قرب الموقد ذي الرائحة الزكية، وكان يفكر، ثم يقوم بعد قليل للصلاة. لم أره قبل اليوم يشعر بالبرد، ولكنه في تلك الليلة كان يلف جسمه بفرو من الهارمين (24)، وكالعادة لم أصادف نومه. لم يمرَّ وقت طويل حتى وصل حضرة مولانا عبد الحليم، كانت محبتي كبيرة لهذه الذات المباركة، وكان يبادلني المحبة منذ طفولتي، فلم يتوانَ عن بذل الجهد في تعليمي والسلطان سليم، وقد تلازمنا نحن الثلاثة زمناً. كان سليم خان يتحدث إلينا من دون أن يرفع نظراته الجامدة في وجهه المدفون في الفراء. كان ضوء النار يضيء وجهه، فتبدو نظراته الثابتة وكأنها تتحدث عن اختناقه بما في جوفه من بئر الحزن العميق. كان هذا من فرط حزنه على قتل إخوته وأولادهم، وكأنه لم يدرك إلا الآن المركب الصعب لما يقال له السلطنة. فلئن لم يثق المرء بإخوته الأشقاء فبمن يثق في هذه الدنيا؟!
الآن يلتقي الجيشان في سهل بورصة - يني شهر، وأستطيع أن أتخيل دهشة وخوف الشاهزاده أحمد، عندما لم يتحقق أيّ من توقعاته من جيشه في الهجوم. لا بد من أنه يخمن أنه لن يستمر طويلاً مع جيشه البالغ 25 ألفاً، ومعرفتي الجيدة بشخصية هذا الصديق الحميم تجعلني أجزم أنه لن يتراجع بالرغم من معرفته التامة أن عناده سيوقعه في ورطة كبيرة. لقد انتظر السلطان ياووز سليم خان الصباح، كان يريد أن يقدم له فرصة الهروب والابتعاد والذهاب بعيداً، فبعد عدة ساعات ستضيع تلك الفرصة من يده أيضاً، ولا مفرّ من المواجهة حينها.
مسكين، مسكين جداً هذا الشاهزاده أحمد، فجيشه الذي كان يبلغ 25 ألفاً في ساعات المساء، فرّ ثلثه عند الفجر، وتمت محاصرته مع رجاله المخلصين في وقت قصير جداً، حتى شعرت بأنني في كابوس. صديقي القديم، أميري النبيل، أحمد خان، أحب أبناء بيازيد خان إلى قلبه، كانت عيناه تترقّبان الأفق، منتظراً الجيوش التي ستخف لنجدته حتى آخر لحظة، ومن أعلى التلة التي نقف عليها، كنت والسلطان سليم خان ننتظر ممتطيَين حصانينا، وكنا نستطيع رؤيته.

ماذا يشعر الإنسان في مثل هذه اللحظة؟ عندما يرى الإنسان أن كل الوعود التي قطعت قد نقضت، وعندما يرى أنه وصل إلى حافة الحفرة، ترى كيف يفكر؟ أستطيع أن أخمن الآن أن صخرةً كبيرةً تجثم على صدر أحمد خان، ولم يعد يستطيع ابتلاع ريقه، ولسانه الجاف المتلبد يلتصق بسقف حلقه الأكثر جفافاً. كان مَن حوله ينتظرون أوامره، ينتظرون أمراً ينقذهم، وينقذه، وهكذا كلما ازدادت المسؤولية، ازداد الترقب، وإلا فسيكون وحده المسؤول عما يحلّ بهم.

لكن ما الذي يفكر فيه السلطان سليم خان؟ أعرف فيه الإنسانية، وأيضاً الرحمة المختفية النائمة في ثنايا قسوته. إنه شخص وحيد، استطاع أن يشعر قبل زمانه أنه الأكثر كفاءةً في استخدام قوته ضد العالم الخارجي، وحاول وحيداً أن يحمي بقسوته بقاء سلطته. والآن، عندما يشرق في السماء نور الخريف الباهت، وتنتشر الغيوم الأرجوانية التي يتسلل النور من خلالها، وتفوح في الوجود رائحة الأمطار المتساقطة، أذكر طفولتنا.

في سنوات الطفولة كانا دائمَي الشجار، وبعد وفاة الشاهزاده عبد الله خان 1483 المفاجئة، وعندما أصبح نظرياً الأوفر حظاً لتولي العرش، تغير أحمد خان كثيراً، وأصبح يتكبر على من حوله، ونحن المقيمون في القصر وإخوته، لم نكن نستطيع أن نفعل شيئاً في تلك الظروف. كنا نعرف أن سليم شاه يرفض ذلك أيضاً. والحقيقة لم يكن الأَخوَانِ يلتقيان كثيراً، فسليم شاه كان في طرابزون، وأحمد شاه في أماسية، وعند حضورهما إلى والدهما في إسطنبول في المناسبات، سرعان ما يحتكان ببعضهما، لكنهما لم يتوانيا عن الدفاع عن بعضهما، والمخاطرة في سبيل ذلك إن لزم الأمر.

ذات ليلة عندما كانا في الصيد، انطفأت شعلة أحمد خان، وفجأة خرج من الظلام قطيع من الحيوانات البريّة منطلقةً كالسيل من بين الأشجار، وبقي بينها وحيداً، أتذكر أيضاً حصانه الذي صهل وهو يرفع قائمتيه فجأة أمام الشاهزاده، ولم تكن المسافة بيننا وبينه أكثر من عشر أذرع، وعندما وقع أحمد خان على الأرض، كاد يواجه الهلاك تحت قوائم القطيع، لكن ياووز لم يتوقف مثلنا، بل نَخَسَ حصانه فوراً ودخل بين القطيع، ولا يزال طيف ما رأيته أمام عيني كحلم مريع، وعرَّضَ حصانه قره دومان وهو أغلى عنده من نفسه، لأنياب الحيوانات البريّة الحادة في سبيل إنقاذ أخيه، حتى خرجا سالمين، وهناك شهود كثيرون على هذه الحادثة. أردف أخاه على الحصان قره دومان، وحمله إلى القصر، وأتذكر كيف عانقه من قلبه وشكره وهو يقبله على وجنتيه. كانت تربطهما محبة الأخوة والغيرة معاً،

ومن الواضح تماماً أنه لن يقبل أي منهما سلطة الآخر.
كلما ضاقت دائرة الزمن، كان أحمد خان يدرك أن أفضل شيء هو الهروب. ووجَّه حصانه من دون أن يضيّع المزيد من الوقت نحو الجنوب، وحمل معه ما خفَّ حمله من الضروريات واستطاع أن يخترق الحصار. وكذلك الفدائيون القازلباش استطاعوا بقتالهم المستميت أن يخترقوه. في تلك اللحظة بالذات استدرت بهدوء إلى السلطان سليم خان، وذهلت عندما رأيت الفرح في عينيه. كان يتابع نجاة أخيه المحبوب الذي ضربه ذات يوم على رقبته، وقرص أنفه وذراعه، ودسّا معاً فأرة تحت جبة معلمهم بحماسة الأطفال، كان يبتسم إلى حين. اختفى الشاهزاده أحمد فجأة في السفح الأخضر للجبل، وبدا أن الإنكشارية كانوا يخففون ضغطهم قليلاً، لكن العزب (25) كانوا أكثر عزماً.
انتهت المتابعة بسرعة، وتمت محاصرة الشاهزاده من جديد من قبل فرقة صغيرة. كان يحمل في يده فأساً ذات رأسين تشبه تلك التي كان يستعملها جده الكبير بيازيد، ووقع على الأرض، لكنه سرعان ما نهض على قدميه، وسحب ترسه البرونزي من سرج جواده الجريح، كان يحرك فأسه وتتكسر عندها الحراب، وتتقطع رؤوس النباتات العالية حوله، وتثقب الدروع المتينة، وكان يتخلص من حبال الصيد بمهارة، وأعداؤه يحاولون زعزعة توازنه بتروسهم التي يحملونها، يتراجعون وكأنهم عندما يضربون ترسه يصطدمون بجدار قوي. دافع عن نفسه ببسالة، وأبدى مقاومة لا تتوقع ممن هو في سنه، وبدأ التعب يبدو عليه. عندها كان يمكن القضاء عليه، ولكن دماء العائلة العريقة كانت تعتبر غالية، وقتله بآلة حادة تعتبر خارج التقاليد. أدرك الشاهزاده أحمد أنه لا مفر أمامه من الاستسلام، واضطر أخيراً أن يلقي فأسه وترسه، ويرضخ لوعود آغوات الإنكشارية الكاذبة التي ترجوه.
كانت ملابسه الحمراء المصنوعة من الخيوط الذهبية تحت درعه العظيمة قد تلوثت بالطين، ولم يعد يُعرَف من كثرة الطين والدماء على وجهه. لا يستطيع أحد أن ينكر شجاعته، وقد نال إعجاب الطرفين بالتأكيد، وستكتب بعد قليل ملاحم البطولة حوله، ويقبض ثمن ثباته في قلوب محبيه، ولكن لنتذكر أنه حارب في سبيل حقه، ومعلوم أنه ليس هناك قواعد للوراثة في الدولة العثمانية، ومن الطبيعي أن يجلس على العرش أكبر الشاهزادات، ولهذا السبب لن أنسى منظر الشاهزاده أحمد التعيس أبداً.
عندما دخل إلى مجلس أخيه لم ينبس ببنت شفة، وعلى شفتيه ابتسامة حزينة، كأنها تخفي سراً خاصاً بين الاثنين، وعندما التقت نظراتي بعينيه

هربت بنظراتي خجلاً منه.
كان قد تم قتل أولاد الشاهزاده أحمد الخمسة مع أحفاده، ونحن لا نزال في الطريق من إسطنبول، ولم ينجُ من أبنائه سوى مراد وعلاء الدين وسليمان الذين فروا خارج البلاد. كان قد بلغ من العمر 47 عاماً عندما ترك الديار، رحمه الله.
لم يصادر السلطان سليم خان أموال إخوته وأبنائهم العشرة، وأمر بتوزيعها على ورثتهم الشرعيين، وبهذا الشكل تكون مشكلة الأمراء قد طويت.
III
الخميس 15 رجب 919/إسطنبول
كنا ندرك أنه لن ينطلق لغزو الشاه إسماعيل ما لم يقم بتأمين الحدود مع الغرب، لذلك كانت المفاوضات تجري مع الفاتيكان والدول الأوروبية القوية وعلى رأسها المجر. في أواخر الخريف الذي نعيشه من عام 919 هجري، استدعي سفير البندقية أنطونيو جوستينيان إلى القصر، وكان يمكن إدراك مدى سعادته بتلك التطورات من خلال وجهه اللطيف الذي يشرق فرحاً. وقّع معاهدة وقف هدنة مفتوحة مع الجنويين. وقرر منح البنادقة ومنافسيهم الفلورنسيين تسهيلات تجارية دائمة.
استطاع إشعال فتيل الصراع بين الكنيزيين - الدوقيات الأوكرانية - وأمير موسكو الكبير فاسيلي الثالث والذي له أطماع تاريخية ببلاد القرم؛ من خلال التتار والأوزبك. كان جواسيس سليم خان يطلقون سهامهم على كل النقاط المفتاحية. وأصبح العالم كله يدرك الأهمية الكبرى التي يوليها السلطان سليم للمشكلة الشرقية.
كان جوستينيان يكنّ لي مودة خاصة لمعرفته بأصلي الإيطالي، وكان يملك سفناً تجارية تعمل على خط شرق البحر المتوسط، وكانت نصف هذه السفن وعلى الأخص في السنتين الأخيرتين، غير مسجلة، وجمع ثروة عظيمة من خلال تجارته مع يهود البرتغال والقراصنة العثمانيين والإسبان، وكان أحد المقاولين الكبار في سوق أنكونا؛ الإيطاليّة؛ للحرير والبهارات، لكنه بفضل أقاربه الذين يتابعون أعماله كان يستطيع أن يختفي عن الواجهة ويحيط نفسه بالغموض. كان يخبر قراصنة الإسبان عن خط سير السفن البرتغالية، ثم يوجه الأخوين بربروس إلى المخازن السرية للقراصنة، وكنت أعرف أنه يلعب معنا بالطريقة نفسها، ولكنني كنت أخفي ذلك عن الجميع. لم أكن أفعل ذلك مقابل رشوة، بل لأنني لا أريد أن يلحق به الأذى لأنه كان إيطالياً. وكان هذا الأمر يضعني دائماً في مواجهة هذا السؤال: إلى أي مدى

يمكن للدوشرمة أن يكون مخلصاً؟ ولكن، لكل إنسان سرّ، وإن كان صغيراً، أليس كذلك؟ سرٌّ يأخذه معه إلى القبر.
بينما كان همدم باشا يستقبل السفير في الفناء الأول للقصر، كنت أعلم السلطان بالأمر. في مدخل قاعة الاستقبال التي تنعكس على خزفها الأزرق الأشعة الحالمة المتحركة للثريات الحمراء، التقيت أولاً بالصدر الأعظم أحمد هرسك زاده باشا، ثم انتبهت إلى سليم خان وهو يحدثه، واقتربت منهما. قال السلطان سليم خان: "إن حضور رجال القصر أو الضيوف بملابس جميلة أنيقة أمام السلطان دليل على الاحترام. وأنا السلطان هنا، ولكن سلطاني الله تعالى لا ينظر إلى الصور، ولكن ينظر إلى قلوبهم، لذلك لا أرغب في استقبال ضيفي بملابس الهيبة كما تصرّ".
كان واضحاً من احمرار وجه أحمد هرسك زاده باشا عدم اقتناعه بوجهة نظر السلطان، ومالت عمامته الخراسانية ذات القلنسوة الحمراء إلى الوراء قليلاً من جراء رفع حاجبيه الكثين، وعبث بلحيته المجعدة بواسطة يده اليمنى مفكراً، ولفت انتباهي وانتباه السلطان حجر الياقوت بحجم الجوزة في خاتمه، وكما كنا نفعل في صغرنا؛ تلاقت نظراتنا وابتسمنا.
كان هرسك زاده يشتكي من عدم اكتراث السلطان بلباسه وطعامه منذ أيام إمارته؛ يجب أن يكون السلطان مهيباً، ويجب أن تكون مائدته غنية. لقد سمعت هذه الجملة منه مرات كثيرة، فبرأيه أن السلطان الذي يرتدي رداءً مصنوعاً من البروكار العادي، وتحته قميص أبيض بحزام كتان مصنوع من صوف أنقرة أو من قطن بورصة كالسلطان سليم خان، يغري أعداءه، ثم إن عمامته ليست كعمائم السلاطين، فهي العمامة التي اشتهرت بين الناس باسم سليمي، لفة على قلنسوة عادية من الشعر.
شرح لي ذات مرة كيف أن سليم خان عندما استقر في القصر، أمر بإزالة الخزائن الخشبية غالية الثمن والمصنوعة على يد المهرة الأدرنويين، والصناديق الرائعة من قشر الجوز التي صنع إطاراتها مهرة الأوزبك، والدواوين العظيمة المجللة بالقماش الحريري المنقوش، وخزفيات مينغ التي قطعت آلاف الكيلومترات، والمجامر النحاسية القصديرية المزخرفة، والأعمال الزجاجية، والنقوش التاريخية من إسطنبول، وقماقم ماء الورد المزخرفة من أمام عينيه. ونظر إلي باستغراب وكأنني لا أعرف ذلك، وانتظر مني شيئاً أقوله، ثم تابع قائلاً: "إنه يزين غرفته بالخطوط العريضة كغرف الدراويش، وأعرف أنه يكتب بعضها بنفسه يا كنعان باشا، لقد كتب البسملة بخط أعجمي عريض يستحق التأمل، إن المرء لا يتوقع من رجل قويٍّ قاسٍ مقدامٍ مثل

هذه الأعمال".
عندما رأى قلق الباشا قال سليم خان: "لا تحمل هماً يا هرسك زاده، يجب أن يتأثر أعداؤنا بقلوبنا".
ثم استدار نحوي وقال: "إنني متأكد بأن صديقنا البندقي سعيد جداً مثل أصدقائنا الأوروبيين كافة يا كنعان". كان يخاطبني باسمي من دون ألقاب عندما يكون سعيداً جداً.
أجبته ضاحكاً: "لقد ظهرت نواجذه من فرط سعادته يا سيدي، لأنهم يعرفون أن تلك الاتفاقات السلمية لا تتناسب مع شخصيتكم، فلا بد من أنهم أدركوا أن غايتكم هي المشرق، وهم يأملون بالتأكيد أن تكون نتيجتها انقسام البلاد مرة ثانية. ويمكننا أن نصدق أنهم يسعون بكل ما لديهم إلى دفع قانصوه غوري في هذه الأعمال".
ربّت على كتفي وهو يقول: "فلنتركهم يأملون كما يريدون يا كنعان، وليلتقطوا أنفاسهم لبعض الوقت".
عندما مَثُل أنطونيو جوستينيان أمامه، كان يبدو مهيباً جداً في ثوب رائع يغلب عليه اللون اللازوردي والأحمر من حرير بورصة، واقترب في ظلال أشعة الشمس النارنجية اللامعة عند الغروب، وانحنى مقدماً فروض التعظيم، وعندما كان ينحني كانت شمس العصر قد بدت وكأنها ألقت شرارتها فوق عباءة الحرير، وألهبت ظهره، ومال حتى صارت قبعته المستوية المضلعة بمستوى صدر سليم، ثم اعتدل واقفاً.
لأكون صادقاً، أعترف بأنه بالرغم من الأناقة في لباس سلطاننا، فإنني لم أكن مرتاحاً لبساطته المبالغ فيها. ليته يرتدي قفطاناً مشغولاً بالخيوط الذهبية بدلاً من أن يبدو كطلاب المدارس. وهنا أخرج سليم خان من تحت الأقدام المشغولة على شكل هندسي لعرشه والمتواضع مثله، سيفه المسحوب من غمده، ووزنه في يديه، ثم أسنده رويداً رويداً إلى مكان تصل يده إليه، ثم قال: "إنكم تعرفون عرضنا يا جوستينيان، أنا إنسان أحب السلام، وأريد أن يستمر الهدوء كما كان في عهد أبي، وأن تتطور أعمالنا التجارية، وفي مقابل ذلك سنقدم لكم الفرص التجارية مكتوبة. وأنتظر منكم الآن عهداً مكتوباً، وبذلك تكون أيام الوفرة والغنى والاطمئنان بانتظارنا".
تنحنح جوستينيان وسعل قليلاً، وابتدأ يقول: "جلالة السلطان سليم خان القاطع..."، ثم تكلم بكلام غامض وغير مترابط على غير عادته في خطاباته دائماً، ولاحظت العرق الذي يتصبب منه، وعندما أنهى حديثه بدا عليه

شعور الهزيمة وكان على حق، وعندما كان يفارق المجلس عبّر عن رغبته في أن يجتمع بي في جلسة خاصة بحركة منه، وأشرت إليه بالانتظار.
بعد خروج السفير، سأل سليم خان: "هل رأيت يا هرسك زاده ذلك العظيم الذي تكلمت عنه؟ إنها أبهة فارغة، فلسانه يرتبط أمام بريق الفولاذ الذي أخرج من مكانه. منح الله القوة لسيفنا المسقي بالماء. وعندما يصدأ هذا السيف ترتفع رؤوس أعدائنا، ولكن صدقني أن كل غايتنا ألا تهرق الدماء أو تثكل الأمهات أو تفجع العائلات، وأن تصبح الدنيا كلها متنزّهاً للجميع". ثم تابع وهو يبتسم بألم: "سيقدمونني للناس في المستقبل على أنني مصاص دماء مثل جدي الفاتح، لكن ميزان العدالة حساس جداً يتطلب الهمة من الطرفين".
عندما استأذنت لوداع الضيف، كان حديث سليم خان وهرسك زاده لا يزال مستمراً. كان جوستينيان ينتظرني عند باب الفناء الأول قرب عربة الحصان تماماً، وكان المطر الخفيف قد جلا غبار المساء الخريفي، وعندما انسحبنا إلى إحدى الزوايا، قال: "عندما رأيت بريق ذلك السيف وعظمته، تلعثم لساني، وتوقفت الكلمات في حلقي". وبينما كنت أضحك في سري تابع يقول: "سليم خان ذكي جداً، إنه يحذرنا بوضوح من أي حركة نقوم بها تخلّ بالسلام، ومن الحماقة عدم أخذ ذلك في الاعتبار".
قلت بهدوء: "هذه الرسالة ليست لكم وحدكم، إنها لنا جميعاً، إنه ينفر من الكيل بمكيالين، ومن كل الأعمال التي تُدبَّر في الخفاء، يريدها أن تكون واضحة ومستقيمة وخالصة، ولا أدري إن كان ذلك سيكون نقطة ضعف في المستقبل".
"ولكن هل ما قام به في سوق الطيور منذ فترة صحيح؟".
سألته مندهشاً: "وكيف سمعت بذلك يا أنطونيو؟!".
"وهل بقي أحد لم يسمع بذلك؟".
قلت له: "ما زال اسم الشاهزاده أحمد تستعمله الأمهات للتخويف، كنا متنكرين، ونتجول في ظلال فناء رواق سوق الطيور الرائعة الواسعة. كانت العصافير الملونة التي تزقزق في الأقفاص التي تشبه قصراً مصغراً والمعلقة بالسلاسل، تملأ المكان بالضجيج. وكان سليم خان يهتم بها واحدة واحدة، وخاصة تلك التي جُلِبت من البلاد الجنوبية. وفجأة التقطت عيناه قفصاً مليئاً بطيور الحجل، وسأل عن ثمنها، كان ثمن الحجل الواحد ليرة ذهبية. لكنه انتبه إلى حجل وضع في قفص منفصل عن باقي الحجال: وهذا؟!، لاحظت في سؤاله تعابير الاستغراب على وجهه، وعندما قال البائع إن ثمن

الحجل ثلاثمئة ليرة ذهبية، طلب منه أن يعرف السبب، فقال البائع: إنه يغرد، ويجمع الحجال الأخرى بتغريده الجميل، وأخذ يشرح ميزته في صيد الحجال. قاطعه السلطان قائلاً: كفى، خذ خمسمئة ذهبية. ولما خطف الرجل كيس النقود، وقدم القفص لسليم خان، فتح القفص، وأدخل يده والتقط الطير بمهارة وأخرجه منه، ثم أمسك بيده الأخرى رقبة الطير، وقطع رأسه من غير تردد، ثم قام برفع جسد الطير المغطى بالدماء وهو يتحرك تحت نظرات الذهول والخوف من الباعة وممن حوله، وصرخ: هذه نهاية كل من يخون جنسه. صدمنا جميعاً، وسرعان ما التف حولنا الحراس بملابس مدنية بعد أن انكشف السلطان، وأخرجونا من هناك".

روما؛ الفاتيكان 23 تشرين الثاني 1513

وضع البابا المعروف ليو العاشر (واسمه الحقيقي جيوفاني دو مديشي Medici de Giovanni) قبعته على رأسه، وتحقق جيداً من أن طرفي وشاحه الأرجواني متوازنان، ثم خرج من المكتبة الكبيرة متكئاً على عصاه التي وضع على قبضتها رمزَ النصارى مذهباً، لينضم إلى المراسيم الدينية. كان معه الكرادلة، والرهبان، لكنه حاول ألا تلتقي نظراته بأحد، وتقدم عبر الممر المزين بالرسومات الجدارية الملونة والذي تفوح منه رائحة البخور بهدوء. كان منشرح الصدر في الصباح، لكنه قبيل الظهيرة أحضروا له بعض المؤلفات الجديدة للراهب الألماني مارتن لوثر، فأثارت قلقه وشغلته كما شغل سلفه جوليوس الثاني فور تقلده منصبه، وطبعها في دار نشر Niederlassung Goldene التابعة لجامعة ويتنغبرغ يعتبر تحدياً صريحاً لقرار المنع. ربما يكون قد ارتكب خطأ في تقليله من شأن هذا الشاب، ولا بد من أن المعجبين به الذين يعاملونه كعزيز في جامعة ويتنغبرغ يشجعونه أكثر. كان مارتن لوثر إصلاحيًّا تحديثيًّا. والأغرب من ذلك، أنّ الجماعة المؤيدة لدعوته تنمو بمرور الأيام. وإن استمر الأمر على هذا النحو فإن شهرته لا تلبث أن تصل إلى بلاد الشمال، والتي تميل إلى الوثنية.

كان قد تحاور مع كرادلته في هذا الموضوع عدة مرات، وقرروا أنّه من الأفضل ألاّ يكون حاداً كسلفه، بل يترك حماسة الأطفال وولدناتهم للأيام، وينتظر حتى تذوب في خضم المذهب الكاثوليكي المتأصل والراسخ. كانت كل المواعظ التي ترسل مرفقة بأوامر الكنيسة لتدريسها والتبشير في البلاد الأوروبية الشمالية توضح مضار اللامبالاة في الدقائق الدينية، ولكن بأسلوب حذر جداً.

لكن، إلى متى يمكن أن يتجاهل ذلك؟! كان إمبراطور ألمانيا وروما المبجّل

ماكسيميليان الأول والذي يذكّر بوالده فريدريك الثالث بمواقفه الكبيرة، يتجاهل تحذيراته، وهذا يعني أن الوقت قد حان لقليل من الشدة. لكن ليس باسمه أو باسم الكنيسة، كان يمكنه أن يدع ذلك لأحد فروع المجموعات الخاصة الحديثة، والتي تشتد قوتها مع مرور الزمن، وقد انضم إليها عدد من الكرادلة، ولكنه فكر بالتأكيد في المجموعات الباطنية الغامضة الموجودة بين الأفلاطونية الحديثة، فقد كان في هذه المجموعة من لم يتأكد من استقامته بعد، بل كان فيهم مَن يشطح في طقوسها الشيطانية إلى الحد الذي يصل إلى تقديم الإنسان قرباناً، وبما أن الوقت قد حان لاتخاذ إجراءات أشد في هذا الموضوع، فلا بد من زيادة جواسيسه.

بينما كانت مشاكل الاتحاد بين الأوروبيين مستمرة منذ مئات السنين، كان تجاهل التأثير الهدام لمثل تلك المعتقدات تعتبر في الحقيقة أقوى صفعة تتلقاها البنية الصلبة للإقطاعية في أوروبا الغارقة في حساباتها التجارية. وعندما كان الأتراك يتوغلون في شرق أوروبا، وينضم إليهم طوعاً أهل القرى الذين ينقذونها من أيدي الإقطاعيين المتوحشين، كان أهل القرى في وسط وغرب أوروبا المضطهدون والرازحون تحت وطأة الضرائب واستغلال اللوردات لهم يَذكرون رعايا الأتراك الأحرار على أرضهم بغبطة، والآن تتعاظم قوة الدولة العثمانية في البحار. وبينما البابا غارق في قلقه، شرد ذهنه مرة أخرى بالمهرطق المدعو مارتن لوثر.

قبل كل ذلك، كان العثمانيون الأعداء الأزليون للنصرانية، هم المساعدين الأساسيين للمهرطقين الذين أطلقوا على أنفسهم اسم البروتستانت. كان ياووز السلطان الجديد للدولة العثمانية لا يتردد عن التدخل في الشؤون الدينية في أوروبا مثل جده الفاتح، وكما أن دور العبادة الأرثوذكسية اليوم تقف على قدميها أقوى مما كانت بفضل محمد الفاتح الثاني، فإن العثمانيين يدعمون بالمال والنفوذ تلك الجماعات التي يصفها الفاتيكان بالمهرطقة، حتى إنهم يضعون نصب أعينهم الأخطار المحتملة. كانت التقارير تصل إلى بابا الفاتيكان عن القوات الخاصة لياووز، والتي تتجول في أوروبا متنكرة بهيئات مختلفة، وما تقوم به من جرائم وأعمال تجسس كما فعل حسن صباح في زمن مضى.

لكن الاختلاف وقع بين الأتراك ولو لفترة قصيرة، وكان يمكن أن يتحول الأثر الهدام للتوتر بين الأتراك الصفويين والأتراك العثمانيين إلى حرب شاملة في الشرق كله. في الحقيقة، كان يتبع استراتيجية تشبه استراتيجية البابا جوليوس الثاني (جوليانو ديللا روفير) الذي مات في شباط الماضي إثر ارتفاع

درجة حرارته. ولو أن الاضطراب يؤدي إلى انقسام الأناضول إلى ولايات، فإنه يفتح الطريق لحشد الدول الأوروبية في جيش صليبي جرار. ولو أن أقدام الأتراك تتعثر قليلاً، فإنهم لن يستطيعوا الخلاص من الحبال التي تحاك حولهم هذه المرة بالتأكيد.

لكن البنادقة كعادتهم ماطلوا في العمل؛ فمقابل الامتيازات التجارية التي حصلوا عليها من ياووز تخلفوا في إرسال المدافع التي طلبها الصفويون إرضاءً له، فجده الفاتح أغضب البنادقة عندما تعاون مع الفرنسيين، ووالده بيازيد الثاني الذي سعى لإرضاء الطرفين لم تلبث سياسته أن مالت ضد البنادقة، وكان البابا ينفر من رغبة الإيطاليين الشديدة في الحصول على المال. صحيح أنه هو ذاته إيطالي، ولكن البنادقة والجنويين الذين يرون في المال غاية حياتهم، لن يفلحوا أبداً.

كانت هناك نقطة غير مفهومة في شخصية الصفويين يتوقف عندها الشرقيون كلّهم، إنهم مبدعون في التقنيات الحربية، ويتقدمون ضد أعدائهم بلا خوف، ولا يبالون بقوة أعدائهم الحربية أبداً. إلا أن الأعذار التي يذكرونها، لم تكن معقولة. كانوا يتحدثون أن أصوات المدافع النادرة تُجفِل خيولهم الحربية، وأن البارود يلوث ملابسهم الرائعة والنظيفة.

كل هذا كان يدور في رأس البابا ليو العاشر طوال الشهر، وكانت الرياح تهب باردة في الخارج، تارة تخف وتارة تشتد، ودمدم: لقد خرج السيف من الغمد.

22 الدونمة : كلمة تركية تعني العودة أو الرجوع ، وقد أطلقت هذه الكلمة على فئة من اليهود ، سكنوا الدولة العثمانية ، ولعبوا دورا ًهاما ً ورئيسا ًفي إضعافها ، وازداد نشاطهم بعد انقلاب عام 1909 الذي قام به الاتحاديون ، وأدخلوا الدولة العثمانية في الحرب العالمية ، ثم اشتركوا في تأسيس الجمهورية التركية ، وبرعوا في المجال الاقتصادي والثقافي والصحفي ، ولا يزال دورهم فعالا ً. انظر يهود الدونمة ، وأسرار الانقلاب العثماني . تأليف مصطفى طوران . ترجمة : كمال خوجة . ربما كان كنعان نصراني ّثم ًا اعتنق الإسلام .

23 بك لقب لحاكم سنجق .

24 نوع من السموريات اللواحم ، طوله 30 سم ، ذيله 10 سم ، ينتهي بلون أسود ، يعيش في أوروبا وآسيا وأميركا الشمالية . فراؤه ثمين .

25 قوة مشك ّلة من الفلاحين .

الفصل الرابع:
الحساب
I
"فلتقل له أيها المبعوث إن أهل السنة لا يلقون بالاً لمثل هذه الاعتقادات، فكل أيام الله متساوية ومباركة، فليحزن على نفسه، وليلبس هذا النقاب الذي أرسله إلينا وليختبئ في قصره كل ثلاثاء".
سليم خان
تبريز؛ نيسان 1514
من مذكرات كنعان باشا:
الأربعاء 27 صفر 920
لم أرَ محيطاً في حياتي، لكنّ صديقاً برتغالياً أخبرني أن المحيط يبدأ من أطراف بلاده الواقعة على حدود الحضارة المعروفة، ويمتد إلى اللانهاية. إنه بحر، قاسٍ، له هدير مخيف، تلطم أمواجه المرتفعة التي يبلغ ارتفاعها المئذنة السواحل الصخرية. ويتحدث المسافرون بأن صوت هديره يسمع إلى عمق كيلومترات في السهول الممتدة حوله، ويشعرون برائحته الملحية في الطرق الملتوية التي تعبر الجبال القريبة منه. والمحيط بالنسبة إليّ علامة تذكرني بنار يوم الحساب، مخيف يبعث على القشعريرة، ويحول الفراغ الذي يلف عقلي البشري إلى هلوسة، هذا الشعور نفسه شعرت به في تبريز. فقد علمت جموع التركمان المؤيدين للشاه إسماعيل بوصول سفير هام من قبل السلطنة العثمانية، أي وصولي، فخرجوا لاستقبالي.
في ليلة صافية واضحة النجوم، كانت الجموع العظيمة التي ظهرت في تبريز تحمل المشاعل، وتبدو أكثر ازدحاماً من النجوم وأعمق من المحيطات. في تلك اللحظة أحسست وكأنني أختلط بطبقات الفضاء اللامتناهية، وأنني أضيع في ذلك الوميض البارد للنجوم التي تدور بسرعة البرق. كان مالكوج أوغلو طور علي بك الذي يرافقني في الرحلة بسحنته العسكرية المعهودة هادئاً كالعادة. لكنني كنت أشعر بالاختناق، وتكاد أنفاسي تنقطع، وقد التف حولنا نسيج أرجواني مخيف من حكايات ألف ليلة وليلة يتسلل إلى داخل الإنسان. وقبل أن يمضي وقت طويل، ظهر وزير يرتدي قفطاناً يبهر الأبصار مصنوعاً من الحرير الملون بالأصفر والأخضر، ويعتمر قلنسوة مخملية حمراء، وعمامة حريرية أرجوانية، يرافقه الحراس من الفرسان، قاموا بجمع سلاحي وأسلحة المرافقين لي جميعاً على أن يعيدوها عند عودتنا، بدت المهابة على المحاربين القزلباش بعباءاتهم البيضاء الطويلة التي تبدو من

تحت دروعهم الخفيفة، وبالسيوف المعقوفة في أغمدتها الفضيّة المزخرفة، والموضوعة داخل أحزمتهم الحمراء عند خصورهم، والخناجر المرصعة بالياقوت، وبرماحهم الرفيعة المنقوش على حدها عبارة هيا إلى الشاه، وكانت وجوههم خالية من أي تعبير. تقدمنا إلى قصر تبريز نسير مع الجموع بهدوء. كنا نمضي بسرعة كبيرة وكأننا النجوم الهابطة من السماء تطوي المسافات الشاسعة بين الكائنات.

تناثرت رقاقات ثلج بسماكة ريش العصفور في الظلام، وأغمضت عينيّ المرهقتين مبتسماً، ثمّ انتبهت فجأةً وحصاني، وكأننا نستيقظ من الحلم نفسه. كانت تبريز قد ظهرت في الوادي الذي يقع تحت جبال ألبرز الباردة التي يغطيها الثلج.

كانت الحركة الليلية في تلك المدينة المزدهرة تدل على أنها عاصمة تجارية هامة، ومع أن الوقت كان يقترب من منتصف الليل فقد شاهدنا حمولات ضخمة من الأقمشة الحريرية بطول ثلاثة رجال، وسجادات مرصوفة فوق الأخشاب، وصناديق البهارات المربوطة بالحبال الغليظة والشباك، وبالرغم من ساعات الليل الباردة والمتعبة كانت المساومات تتواصل أمام المستودعات الحجرية وأمام أبواب المخازن الخشبية بالقرب من النيران التي أشعلت طلباً للدفء، وكانت الجيوب والجوارير تفتح وتغلق، وتختم الأوراق بالأسماء. ومع تباشير الصباح الأولى وخروج الطاعنين في السن في انتظار الحساء الساخن وشاي الأعشاب المنشط الطازج من مطعم الخان، كانت الروائح التي تختلط برائحة البهارات تفوح في المكان.

من أجل وقاية حيواناتهم من القراد والقمل والبراغيث والحشرات كافة التي تتغذى على الدم، رأينا ساسة الخيول الذين يغالبون النعاس يتركون الحيوانات مغطاة برماد شجر العرعار وقطع الجلود التي غليت مع القطران وخلطت بدماء الخفافيش. وصادفنا رجالاً يعملون ككيميائيين على ورشاتهم المتنقلة، يغالبون النعاس، وهم يبيعون المواد الزئبقية التي تستخدم لطرد القمل الذي ينتقل بين المسافرين. وسمعنا أصوات الموسيقيين والمغنّين الرائعة التي تصل من مداخل الحمامات إلى الشوارع. وشاهدنا دموع حارس يقف أمام مارستان المصابين بالجذام المسور بالحديد، يتأمل حركة المدينة، والسماء المزينة بالنجوم في الشرق. وميزنا المتسولين الراقدين على جانب الطريق خاسري الرؤوس يلبسون الملابس الصوفية العجيبة، ويحملون وعاء التسول، ويتبعون القوافل المسافرة. التقينا أيضاً بالغرباء الذين يطرقون الأرض بنعالهم على الأرصفة كالأشباح في الساحات الهادئة أمام العمارات في مشهد يذكرنا

بإسطنبول. وعندما وصلنا إلى قصر الشاه كان الوقت مبكراً جداً قبيل أذان الفجر.
كان الطريق شاقاً، وقد تمكن البرد منا لدرجة أنني كنت سأستغرق في النوم بمجرد وصولي إلى الغرفة الواسعة المخصصة لي، والتي كانت تفوح منها رائحة البخور، وقد نظفت بالمياه المعقمة وبالصابون المعطر بالليمون. إلا أنني لم أكد أضع أشيائي أمام الفراش حتى دخل التشريفاتي التركماني الجامد، وأخبرني أن الشاه في انتظاري. في تلك اللحظة طار النوم والتعب من عيني، إن لقائي بهذا القائد الأسطوري في مثل هذه الساعة المبكّرة من الصباح أدخلني بين الحلم واليقظة في دوامة القصص والحكايا، وشعرت بازدياد خفقان قلبي، وكأنما حجرٌ متوهجٌ تضخم في بطني، تضخم، وتضخم... لأنني كنت أرجو إن قتلت أن يكون بعد نوم هانئ. ولم يكن لي بد من الموافقة مضطراً.
مررنا بالدهاليز المقببة المضاءة بالمشاعل التي تذكرنا بالقصور في حكايات الأساطير، كنت متأكداً من روعة المنظر من خلف الزجاج الملون للنافذة المسورة، وعندما كنت أصعد الدرج الرخامي الملتوي إلى الطوابق العلوية، شعرت برطوبة في يديّ وقدميّ من شدة ما أشعر به من حرّ. حتى إن قميصي القطني الداخلي، وبالرغم من البرد كان يلتصق بظهري من العرق.
بالرغم من كثرة أسفاري، لم يسبق لي أن رأيت أبهة أكثر مما رأيته في غرفة العرش، لا عند ملك ولا عند إقطاعي. لكن سليم خان الذي يعرف جيداً أنني لا أتأثر بمثل هذه الإيحاءات، كان قد نبهني إلى ما يمكن أن يصادفني قبل أن أخرج، فهذه الطريق قد تكون بلا عودة، ولكنه كان مقتنعاً أن إسماعيل الذي يعرف جيداً أنني صديق السلطان المقرب ووزيره، لن يتجرأ على إراقة دمي. فمنذ فترة كان قتل صغار المبعوثين قد صار عادة عند الطرفين بسبب الرسائل الهجومية التي يحملونها، لكنني في الحقيقة كنت أرغب في القيام بهذه المهمة، وعندما رأى سليم خان تهوري أمسكني من يدي، وسحبني إلى زاوية، وقال لي: "لست مرغماً على الذهاب، فلماذا تطوعت؟! سأجد رجالاً آخرين يمكنني إرسالهم، أنت زوج جديد، وتنتظر مولوداً".
"عندما يعلم إسماعيل بحضور صديقكم المقرب، سيتأثر بشجاعتكم وقوتكم، وسيحاول أن يعطي مثلاً على التصرفات النبيلة".
"هل يمكن أن تتوقع من هذا الحقير أن يتصرف تصرفاً نبيلاً يا كنعان؟!".
"نعم يا مولانا السلطان، إن أمثال هؤلاء يتصرفون بنبل مع النبلاء، وسرعان

ما يكونون مع الحقراء حقراء. إن طبعهم يتغير حسب قيمة المخاطبين، لذلك فهم وضيعون".
رفع حاجبيه المتقوسين، وابتسم ابتسامة عتاب وهو يقول: "إننا نستطيع أن نقضي على هذا الزنديق الذي بنى دولته بالسرقة، وبتحريض شعبي بطريقة ما يا كنعان، ولكننا لن نجد صديقاً مثلك أبداً، فكّر في الأمر مجدداً".
ابتسمت لمولانا السلطان وصديقي وشريك أسراري قائلاً: "ما من شيء يحتاج إلى تفكير، إن التفكير في القدر ليس لأمثالنا".
أجابني السلطان سليم خان وهو يمسك بكتفي، بقول سأسجله هنا بافتخار: "الشجاعة طريق النصر، والتردد طريق التهلكة، والخوف يقود إلى الموت، انطلق، وفقك الله يا أخي".
كان الشاه إسماعيل، كما وصف تماماً، شابًّا جميلاً عيناه الواسعتان السوداوان المعبرتان على وجهه الأبيض، تزيدانه هيبة، كانت خطوط وجهه الناعمة تشع بالبريق الذي يوحي بالفهم العميق. في الحقيقة، إن الاختباء خلف تلك المظاهر من الأبهة والترف للتأثير بالمبعوثين، أمر سخيف، فالنظرات والإشارات وحدها تكفي. كان له وجود يذهل عقل الإنسان بدءاً من عرشه الذهبي، مروراً بقفطانه الحريري الأحمر الرائع وعمامته البيضاء على رأسه، وعباءته الحمراء، إلى ريشته المزينة بالألماس، كما أن جزمته الجلدية والتي تصل إلى ركبتيه كانت بلون ثيابه.
استقبلني بترحاب، وتحدث بحزن وحزم عن ضرورة إنهاء قتل المبعوثين. فأوضحت له أن لدى سليم خان الرغبة نفسها من دون أن أتطرق لمن بدأ هذا الأمر، وأخبرته بانزعاج السلطان سليم خان من إعلان شاهزاده مراد ابن المغفور له بإذن الله الشاهزاده أحمد سلطاناً، فأفحمني بصوته المقنع الجميل، وبموقفه المؤثر بأن ما جرى ظلم والمسلم الصالح يجب عليه أن يقف إلى جانب المظلومين دائماً، وأن هذا تقليد متبع لدى الأتراك. ثم سكت قليلاً، وهو يتابعني بنظراته الثاقبة، وحاولت كثيراً ألاّ أبعد نظراتي عنه، لكنني لم أفلح.
حاول أن يوضح لي بكل صبر أن الظلم ليس مسألة داخلية لأي دولة، وقال إنه يؤدي دائماً إلى مشاكل بين الأمم، وأن شاه جيهان مثله لا يسكت على ذلك. ثم فتح مسألة التركمان القزلباش في الأناضول، وتحدث قائلاً: "وردتنا أخبار أنكم اعتقلتم 40 ألفاً من التركمان، وتعدون الأيام لقتلهم". عندما كان يقول ذلك، لمحت على وجهه غضباً يتسلل من عينيه وأفكاره. كان واضحاً تماماً أنه يفكر في الأمر كثيراً، ويشعر بالقلق من ذلك،

فليترك سليم خان إخواننا ليذهبوا إلى شاههم.
قلت من دون أن أبدل لهجتي في الاحترام، وأنا أدرك أن هذه القضية هي الجزء المخيف من لقائي: "ليس الأمر كذلك يا شاهي، لقد وصلتكم الأرقام مبالغاً فيها، فأعدادهم لا تتجاوز الثلاثة آلافٍ، وهؤلاء كما تفضلتم سيرسلون إلى أراضيكم".
"لا تتعب نفسك يا باشا، أعرف أن سليم خان متهور وسفاك للدماء، فبلّغه مع رسالتنا أن الظلم لا يدوم، وسيعود عليه ما يفعله، وهو لم يكتفِ بذلك، بل يتجاوزه إلى حدّ تكفيرنا، فاسأله متى كان حبّ من يحبّ آل البيت وبغضُ من يبغضهم كفراً؟ نحن لا نرجع عن الطريق الذي نعرفه، وليذهب وليرَ الحقائق بنفسه، ولينضمّ إلى صفوفنا".
أكدت له وأنا أقدّم الرسالة إليه، بأنني سأبلغ ما قاله بحرفيّته. فتح الرسالة فوراً، وقرأها بصوت عالٍ: "اعلم وكن حكيماً بأنه فَرضٌ على كل مسلم، وعلى كل حاكم يحب العدالة، أن يمنع من يسعى لهدم الدين والشريعة، ويعرض عن أحكام الله، ومقصدنا من هذا الكلام هو التالي: أنت الذي صعدت من زوايا التكايا إلى الحكم، وسرت في هذه الطريق، واستوليت على بلاد المسلمين، وفتحت أبواب الظلم ضارباً بعرض الحائط الشفقة والحياء، وآذيت المسلمين الأبرياء، ورضيت الفتنة والفساد مبدأ أساسياً لك، وهدمك المساجد والمقابر والمزارات، وإهانتك للعلماء والأسياد من آل البيت هي بعض أعمالك السيئة. وبناءً على ما يدور على الألسنة من هذه الأعمال وما يشابهها، أجمع العلماء بالاعتماد على الدليل الشرعي القطعي على كفرك وارتدادك، ووجوب قتلك وقتل كل من يتبعك، والاستيلاء على أموالكم وأملاككم، واستباحة أسر نسائكم وأطفالكم. بناءً عليه، فإنني وتحقيقاً لأمر ربي، ونصرة للمظلومين، وصيانة لشرف السلطان، خلعت ملابسي الحريرية، ولبست الدروع، وتقلدت السيف، وركبت الخيل، ووصلت في أول شهر صفر إلى الأناضول. غايتي أن أمحو ملكك بإذن الله، وبهذه الطريقة سنرفع ظلمك عن الضعفاء ونزيل فسادك. ولكنني قبل السيف، فإنني أدعوك إلى الإسلام حسب السنة السَّنِيَّة، فإن ندمت على أفعالك، واستغفرت الله مخلصاً إليه، وأعدت القلاع التي استوليت عليها، فلن تلقى منا غير الصداقة، وإن بقيت على السوء نفسه، فسأحضر قريباً إن شاء الله لتحويل الأماكن التي سودتها بالظلم والظلمات إلى النور، وأخذها من يدك. وسيكون ما هو مقدر، والسلام على من اتبع الهدى".
ولما فرغ الشاه إسماعيل من الرسالة، كانت الابتسامة الحزينة تكسو وجهه

وهو يقرأ شعراً نظمه بنفسه، كان شعره مشهوراً بين الناس باسم هاتاي مخلصي:

هل رأيت الجبال تعلوها الثلوج؟
إنها الأيام تمضي كما تذوب
فليست مياهها الجارية إلا أنت
تكب وجهك على الأرض وتجرك
أنت قادر يا شاهي المعظم، قادر
فأينما يمت وجهي رأيتك
خيمة وظل أنت فوقنا
نزول كلنا بزوالك.
فلتُقبِلي يا طيور أسراباً أسراباً
إعجازاً، والشمس لا تحرقه في ظلك
والمثمرات من الأشجار منذ الأزل
لا تبقى وتمضي نحو الفناء.
بحرنا عميق لا يطال عمقه
ولو قلتُ ألفاً من الكلمات فلن أُفهم
يقود المرء ما لا يريده من الرسن
يمضي به إلى اللانهاية (26) .

II

قرمان؛ إسحاقلي، 17 أيار 1514م

كانت أياماً براقة عندما بدأ الربيع يحرك الطبيعة من أعماقها فتنشر في الكون روائحها المنعشة وسط الأناضول. كانت الأرض تبدو وكأنها ضاقت ذرعاً بالسكون بعد شتاء قاسٍ، فتبرعمت واكتست بألوانها الحية الزاهية، ودبت فيها الحياة ككائن محبٍّ انسلخ من سباته العميق ونهض بهدوء ليتطلع نحو السماء الزرقاء ويمد يده إلى الهواء المنعش حين كان الشاعر لامعي في هذا المكان يكتب قصيدته بديعة الكلام التي نالت الاستحسان في مديح السلطان سليم خان، وأمر له براتب يومي قدره 35 آقجة.

كان أطباء القصر يجمعون براعم الأزهار البرية الشوكية الزاهية، وأزهار الأقحوان الصفراء والبيضاء، وجذور نبات ساق الحمام البيضاء الرفيعة، وأوراق غر الشاب الصفراء والأرجوانية التاجية، ليحضّروا منها إكسيراً لمعالجة الصداع الذي بات السلطان سليم خان يشكو منه في الأيام الأخيرة.

كان الجيش معسكِراً في الخيام، وقد انتشر في الصحراء بانتظام شديد،

وكانت الخيم تتوزع على شكل دوائر في وسطها خيمة القائد، ويمكن الإدراك من النظرة الأولى أن هذا التطبيق الذي تكرر مرات من قبل، كان ناجحاً تماماً، فلا يضل أحد طريقه إلى خيمته، ولا تدب الفوضى عند نقل الأرزاق والمهمات وتفريغها.

أما راية السلطان البيضاء المطرزة بالذهب وتاجه العظيم، فكانا باديين من بعيد. وكانت الرايات التي تشير إلى رتب الوزراء وكبار قادة الجيش ذات الألوان البراقة ورايات فرسان قابي قلو الحمراء، ورايات الإنكشارية الخضراء والحمراء والصفراء، ترفرف على الخيام. لقد كانت عمليات التأسيس والاجتماع تتم بسرعة وصمت يثيران الإعجاب، مما جعل جيشاً قوامه 140 ألف جندي يتحرك بخفة وسرعة مدهشة.

كان السلطان سليم خان جالساً على مصطبة منخفضة تحت شجرة سدر أمام خيمته يراقب الوادي عندما قال: "إذاً، لم يقل شيئاً يخص تجارة الحرير التي منعناها؟! لعله يظن أنه بعدم مبالاته يستطيع أن يخفي الضربة الكبيرة التي تلقاها اقتصاد البلاد". تنفس بعميق، وأدار وجهه الذي يداعبه نسيم دافئ نحو الشمس، وأغمض عينيه برهة، ثم تابع: "في الوقت الذي يلقي فيه المواعظ عن التواضع، لم أصادف أحداً في تكبره. لقد شتتنا قوافل تجار بلاد فارس، واستولينا على أموالهم، ثم نفيناهم إلى البلقان. يمكننا تعويض الأضرار التي تصيبنا جراء ذلك، لكن تصدير حريرهم وحرير الهند يشكل أهم مورد اقتصادي لهم. في الواقع، سيفعلون ما في وسعهم من أجل الإبقاء على خط تبريز - بورصة مفتوحاً. سنضطر إلى تحمل الحسابات الخفية مع تجار البندقية عبر الموانئ الصغيرة في سوريا وفلسطين، حتى قراصنة البرتغال يمكنهم أن يتجرّأوا عندئذٍ على الدخول إلى عمقٍ كهذا. كما أنه لا يمكننا الوثوق في هذا الخصوص ببني "ذو القادر" ولا المماليك، فإن وجدوا فينا ضعفاً فلن يترددوا في طعننا من الخلف، والشاه إسماعيل يسعى إلى اتفاق مع المماليك من خلال الوفود التي يرسلها باستمرار، لكن السلطان غوري الذي تلقى إنذارنا لن يتجرأ الآن على شيء من هذا القبيل. في النهاية، لن نرتاح أبداً في البحر الأبيض ولا عند حدودنا الشرقية ما لم نرمِ بثقلنا على هذه المنطقة. فدول الجوار كلها، فضلاً عن أوروبا، تشعر بالقلق من نمو وتعاظم قوتنا، ونحتاج الآن إلى العمل المشترك مع الذين يطمحون إلى العمل معنا".

قال كنعان باشا: "بالتأكيد يا مولانا السلطان، فالقضاء على تهديد إسماعيل شاه يعني استقراراً للمنطقة وعيشاً مشتركاً بين شعوبها لفترة طويلة من

الزمن، ونحن نعلم أيضاً أن الشاه إسماعيل لديه أمنيات الفاتيكان ذاتها، ولا يمكننا أن نترك أنفسنا بين فكي كماشة عند حدودنا الشرقية والغربية، إنها مشكلات حياتية، وهي التي تدفعنا إلى السياسات الحالية".
قال مير عالم جلال بك: "المبعوث ينتظر منذ فترة طويلة يا مولانا السلطان، فلنستمع إلى الجواب الذي يحمله من إسماعيل شاه".
قال السلطان سليم ساخراً: "لن يكون في الجواب سوى تحدٍّ فارغ أو إهانة جديدة، ومع ذلك فلنستمع إليه".
لم تكن الرسالة مجرد تحدٍّ فارغ أو إهانات، بل كان الشاه يدعو السلطان سليم إلى المنازلة إن كان له قلب، كما أنه أرفق الرسالة بنقاب وثياب امرأة.
ضحك السلطان سليم خان وقال معلقاً: "إذاً، إنها لنا، إن كان إسماعيل يريد أن يشبهنا بنفسه، فليعلم أن الرجل لا يمد يده إلى مثل هذه الملابس". فضحك جميع الحضور. "قبل مدة أراد أن يطعمنا مما يأكل، وقد أرسلنا إليه مما نأكل. لكنه الآن يرسل إلينا مما يلبس، فليعذرنا عن إرسال هدية مقابلة لأننا لا نلبس من هذا النوع".
عم المجلس العسكري موجة من الضحك، ولم يستطع المبعوث أن يكتم ابتسامته التي علت وجهه، فصار وجهه بلون قلنسوته وحزامه.
تابع السلطان سليم: "ويقول إن العمل الذي يبدأ يوم الثلاثاء ويقصد سيرنا الهمايوني (27) الموافق يوم الثلاثاء في 21 آذار، لن يأتي بخير". وبعد ما ظهرت عليه ابتسامة باهتة، عقد حاجبيه كأنها الغيوم التي تغطي صفحة الشمس وأكمل: "فلتقل له أيها المبعوث إن أهل السنة لا يلقون بالاً لمثل هذه الاعتقادات، فكل أيام الله متساوية ومباركة، فليحزن على نفسه، وليلبس هذا النقاب الذي أرسله إلينا وليختبئ في قصره كل ثلاثاء". صمت الجميع مصغين، وتابع قائلاً: "إن الشاه إسماعيل عند أكثر العلماء ملحد ورافضي، وتوجيهه الشتائم والإهانات لأبي بكر وعمر وعائشة رضي الله عنهم، وأمره بشتمهم ثابت. وجهاد المرتدين في ديننا مقدم على جهاد الكفار. علاوة على أن إسماعيل أصبح ألعوبة بيد الأوروبيين الخصوم الأزليين للإسلام والمسلمين. فدمه بعد الآن حلال لنا. لقد بلغته بكل هذا في رسائلي السابقة، فلم يتعظ ويتُب، ولم يزدد إلا غياً".
(*)
في الأول من تموز، عسكر الجيش حول سهل كَكْنَم في سيواس، وجرى تفقد الوحدات كلها، وقد خصص نحو 40 ألفاً من بين 140 ألف جندي

يشكلون قوام الجيش، لتأمين مؤخّر الجيش، والسيطرة على حركات التمرد والعصيان في هذا الوقت الحساس. كانت معظم هذه القوة من الشيوخ والمرضى والشباب الأغرار، وقد تم تبليغهم بأهمية عملهم وضرورته في حركة لتطييب خاطرهم.

بدأت الصعوبات الحقيقيّة للجيش العثماني في الثالث من تموز بعد وصولهم الحدود الصفوية عندما فوجئوا بأنه لم يكن هناك أي أثر للشاه إسماعيل وجنوده، وقد خربت الأراضي كلها، وأحرقت الأعشاب، وسممت الآبار، فلم تترك قوات الشاه ما يستظل به الجيش سوى عدد من الأشجار لا تكفي أحداً، وبلغت مشكلة الماء والطعام لدى هذا الجيش الضخم ذروتها قبل أن يتجاوز الحدود الصفوية، وزادت حرارة الصيف من ضراوتها. وتعرض خط الإمداد الرئيس من ميناء طرابزون لهجمات قطّاع الطرق وبعض الوحدات التخريبية الصغيرة التابعة للشاه. طوال شهري حزيران وتموز، سرى التذمر في صفوف الإنكشارية أولاً، ثم أخذ ينتشر في صفوف الجيش كله. ومما زاد الأمور سوءاً أن جد سليم خان لأمه علاء الدولة ذو القادر أوغلو لم يستجب لنداءات الاستغاثة، والأسوأ من ذلك أنه عمد إلى ضرب خطوط الإمداد. بينما كان السُّنة الأكراد في تلك المنطقة لا يتوانون عن المساعدة الإنسانية والغذائية.

كان ياووز خان مستاءً من سياسة الحياد التي يتبعها جده، ومن موقف المماليك في هذه الأيام الصعبة. طبيعي أن من يحلل شخصية سليم خان التي تفيض حماسةً قبل أن يتولى العرش، لا يستبعد الخوف منه. كان علاء الدولة بوزقورت بك يدرك تماماً أن حفيده سيتحول إلى أراضيه ويستولي عليها في يوم من الأيام، أما سلطان المماليك قانصوه غوري فكان يدعم وجود منطقة ذات سيادة مستقلة في الحدود الجنوبية تكون منطقةً عازلةً آمنةً بينه وبين ياووز.

سمع سليم خان في نهاية ليلة عصيبة في أثناء تجوله بين الجنود من يقول: "لا بد لنا من العودة، لقد خاف إسماعيل منا فلم يجرؤ على مواجهتنا"، وبدأت تعليقات أخرى تعلو. لاحظ السلطان أن تأثير هذه الهمسات من الضيق والتمرد ستكبر. ما من أحد من المتضايقين كان مستعداً لتجاوز حدّ الاعتراض همساً والطلب من السلطان العودة، ولم يكن أحد يجرؤ على تحمل غضب سليم خان، ذلك الغضب الذي يعلم بنتائجه الناس كلّهم. حاول السلطان شرح أهمية التقدم للوزراء الذين يلمحون إلى الوضع في الاجتماعات المتتالية في الديوان، ولم يكن يثق بمن يسانده. لم

يكن أحد يهتم لجهود وحماسة الصدر الأعظم أحمد هرسك زاده باشا. لقد تجول بين الجنود بوجهه الأحمر وتحدث بأسلوب متفائل إلى الجنود وخاصة بين القوات الخاصة والسباهية عما سيحصل لهيبة السلطنة العثمانية إن خسروا المعركة، ومهما فعل، فقد كانت القيادة تنجح في وضع مسافة بينه وبين الجنود، وكان هذا خطراً جداً، لأن المواقف المماثلة عبر التاريخ علمتنا أنها تؤدي إلى التمرد.

بأمر من السلطان، كلّف كنعان باشا بتحديد المعارضين بين أركان الجيش. فالباشا يمكنه أن يكون في كل مجلس اعتماداً على حب السلطان له، إلاّ أن خدماته كمبعوث له، وقيامه بأعمال التجسس في حملاته، عقدت مهمته، فأركان الجيش كالجنود تماماً يغلقون الأبواب سراً في وجوه المقربين من السلطان. كان السلطان سليم خان يحس للمرة الأولى باليأس والغضب، ويبحث جاهداً عن استرجاع زمام السيطرة التي بدأت تخرج من يده رويداً رويداً. كان شديد الثقة بأمير أمراء الأناضول الخدم (28) سنان باشا، وأمير أمراء إقليم روم إيلي حسن باشا، لكن عندما تتداخل عوامل الحر والجوع والعطش، لا يمكنه أن يثق بمواقف هؤلاء القادة الخبراء الذين يولون جندهم قيمة تفوق قيمة أنفسهم.

بالفعل، وقعت حادثة مرعبة ليلة الرابع والعشرين من تموز، لم يتوقعها أحد، وتمكّن سليم خان من بسط سيطرته على معارضيه بشدة غير متوقعة. كان السلطان يتسامر كالعادة مع أمير أمراء قرمان، ويلعب الشطرنج كالعادة مع صديق طفولته همدم باشا في ساعات متقدمة من الليل، ويتسامرون حول تطورات الحملة، وينضم إلى المسامرة الجميلة بين الحين والحين كنعان باشا. كان مزاج السلطان مقبولاً كما يبدو، وكان يضيق الخناق على منافسه همدم باشا بهجماته المتتابعة، أما الباشا، فكان يبدو متشتت الذهن، ويرتكب أخطاء لا تليق به، ويفقد أحجاره الهامة تباعاً منذ بداية اللعب.

"انظر يا كنعان، يبدو أن همدم باشا فقد عقله اليوم خوفاً من إسماعيل، إنه يرتكب أخطاء بسيطةً جداً".

قال كنعان باشا: "لا داعي للخوف، فالرجل لا يظهر في الميدان أصلاً، فكأنما هو وجيشه غاروا في أعماق الأرض، وإذا سارت الأمور على هذا المنوال، فسندخل تبريز بكل ارتياحٍ".

تبادل سليم خان وهمدم باشا النظرات وضحكا، فسأل سليم خان: "أترى يستطيع هضم قرارنا اليوم، هذا المسكين؟!".

وقف كنعان باشا ضاحكاً، وقبل أن يخرج من الخيمة تلى الرسالة التي أملاها عليه السلطان بنفسه، ودوّنها الكتّاب، ونسخها عدة نسخ؛ "استجابة لدعوتكم، قطعنا مسافات شاسعة، وجئنا إلى بلادكم، لكنكم غائبون عن الميدان، فالبلاد بأيدي ملوكها مثل الزوجات، ومن كان رجلاً شجاعاً فلا يسمح لغيره أن يلامس زوجته. وقد دخلت بلادك بجيشي منذ أيام، ولم أتلقَّ أخبارك بعد، فإن بقيت مختبئاً ولم تظهر بعد اليوم فالرجولة عليك حرام، فضع بدلاً من الخوذة حجاباً على رأسك، والتحف شرشفاً بدلاً من الدرع، ثم تخلَ عن هوى السلطة".

وأضاف السلطان سليم: "أما الحجاب والشرشف اللذان أرسلناهما فهما إكراميته".

ضحك كنعان باشا وهو يقول: "هذا من شيم الكرام، والسلام"، ثم غادر الخيمة، وقبل أن يذهب إلى تفتيش قوافل المهمات التي يتوقع قدومها من أماسية، كان يريد لقاء حسن باشا أمير أمراء إقليم روم إيلي في خيمته، وكان متوجهاً إلى الخيام المهيبة التي كانت على بعد بضع عشرات الأمتار عن خيمة السلطان، حين سمع من خلفه صيحة من الفسطاط الذي غادره قبل قليل، كان الصوت صوت السلطان سليم الغاضب. في تلك اللحظة شعر كنعان باشا وكأن قدميه شلتا، وخطرت في باله محاولة اغتيال السلطان. دخل آغا الإنكشارية مستلاً سيفه، ومن ورائه حرس الخاصة إلى الخيمة، لكن المشهد الذي رآه في الداخل كان مختلفاً تماماً؛ كان همدم باشا وعلامات الارتباك بادية على وجهه، يقف بين جنود الإنكشارية، وقد أمسكوا بالباشا بشدة ورفعوه من يديه. أما السلطان سليم خان فكان يصرخ وقد احمرّت بشرته البيضاء، وكادت حنجرته تنشق من شدة انفعاله، أما أوداجه فقد انتفخت وصارت بحجم مرقاق العجين من شدة الغضب، وبرزت عيناه المحمرتان، أما يداه فكانتا منقبضتين على جانبيه كأنهما مطرقتان. انبرى كنعان باشا متوقعاً عاقبة همدم باشا، وقال: "خيراً يا مولانا السلطان؟!".

صاح سليم خان: "ليس خيراً يا كنعان باشا، هيا، احملوا هذا بسرعة".

أوشك كنعان باشا في تلك اللحظة أن يفقد رباطة جأشه المشهورة وقال: "الأمان يا مولانا، لا تفعلوا، إنه همدم باشا، ماذا حدث لكم؟! ماذا قال ليثير غضبكم هكذا؟ تعرفون أنه رجل صافي القلب، نزيه، كان وفياً لكم وداعياً لدولتنا دائماً، فإن كان مخطئاً، فلا بد من أنه سيصحح خطأه، وهل هناك عبد لا يخطئ يا مولانا؟!".

سار سليم خان نحو صديقه وإحدى يديه على وشك استلال السيف، ثم قال غاضباً: "كفى يا كنعان، هذا الكلب جاء يرجوني باسم أصحاب القلوب الفاسدة أولئك في موضوع هذه الحملة التي أوليها اهتماماً كبيراً، لا بد من أن يتحمّل عاقبة فعله".
كان كنعان باشا يسمع صوت الحشد الذي بدأ يعلو أمام الفسطاط، لكنه ونظراً إلى وجودهما بمفردهما داخل الفسطاط لم يتخلَّ عن التوسل إلى سليم خان: "إن كان لا بد من ضحية لإثبات تصميمكم، فلا يجب أن تكون هذه الضحية همدم باشا يا مولاي".
استل سليم خان سيفه هذه المرة وهو يصيح: "قلت كفى يا كنعان، أقسم لو قلت كلمة واحدة، فسأقضي عليك أيضاً، أمسك لسانك المسموم هذا".
سكت كنعان باشا في يأس، فقد استسلم سليم خان لغضبه، ولم يعد يصغي إلى نداء الصحبة والأُخوة. كان يدرك أن سليم خان سيبقى حتى نفسه الأخير يحمل عبء هذا القرار الذي لن يستطيع أن يضعه عن كاهله. إن الشدة التي يظهرها إلى العالم الخارجي تخفي خلفها قلباً حساساً سيتفطر يوماً بمرارة هذا القرار. انهمرت عيناه بالدموع، وتقطّع قلبه حسرة وهو يتذكر الكلمة التي وجهها إلى همدم باشا قبل سنتين، وانهمر الألم كسيل أحاط به فجأة مدوّياً على أركانه العامرة التي ظن أنها لن تنهار.
في تلك الليلة بدا ثانية وجه كنعان باشا على ضوء المشاعل، وكأن انكسار صديقه، ومواقفه المتخاذلة، ودهشته الطفولية، والألعاب النارية في الليلة العاصفة، كأن ذلك كله يعيد تشكيل تقاسيم وجهه من جديد، ويشكل في أعماقه همدم آخر في كل لحظة، ويده التي لكم بها همدم باتت تؤلمه كما كانت تؤلمه في تلك الليلة تماماً.

III

جالدران؛ 23 آب 1514

من مذكرات كنعان باشا:

الأربعاء 2 رجب 920

أعرف لماذا أرسلني إلى هناك، أو على الأصح، يمكنني القول إنني أعرف لماذا لم ينتظر عودتي، ولكن، هل من الضروري أن أقول السبب، أم إنه يجب عليّ أن أنسى كل شيء؟ لست أدري، فكل القيم في داخلي بدأت تتحول إلى رغبة في الانتحار، وأخذت تكبر في داخلي يوماً بعد يوم.
التزمت الصمت المطبق قرابة شهر، وعندما قال لي: "خذ كتابي هذا، وسلمه إلى الشاه، وليتب وليحقن دماء الإخوة والمسلمين". كان مرتدياً درعه وكان

أمام قدميه ترس برونزي مستدير، مددت يدي كي آخذ الكتاب، ولم أقل أكثر من أمركم يا مولانا السلطان. شعرت لوهلة بأنه يمسك اللفة المختومة، ولا يريد أن يتركها، ثم مال نحو أذني، وهو يقول: "إنك تعرف أنك لست في مكاني، ولكنه إن كان هناك شخص يفهمني فهو أنت، فلا تتركني وحيداً، على الأقل أرجوك أن تذهب كأخٍ من أجلي، وللمرة الأخيرة، فربما لن تعود هذه المرة".

قلت له: "أفهمكم يا مولانا السلطان، وأظن أنه ليس لعودتي أي معنى بعد الآن". ولكنه هزّ رأسه يمنة ويسرة وهو يبتسم، وقال: "لا!". هل كان ذلك الطنين الخفيف الذي سمعته في كلامه يدل على اليأس يا ترى؟! وتابع: "لا، إنك لا تفهم يا كنعان باشا، إنك لا تفهم شيئاً، لقد سار هذا الجيش 2500 كيلومترٍ، إنه غاضبٌ متعبٌ بلا هدفٍ، لا أظن أنك فهمت نوعية الحشد الذي أضطر إلى قيادته".

"بالنتيجة، رأيكم هو الصواب يا مولانا السلطان، فقد هدأ الاضطراب الموجود بين الجنود، وكذلك التقى جيش الشاه أخيراً في سهل جالديران الذي يقع على بعد 80 كيلومتراً جنوب شرق بيازيد الشرقية. وأنا متأكد من أنكم ستلاقون النصر في أقرب وقت. وربما لا أراه كما قلتم، لكن وجودي من عدمه لا يعني شيئاً، فالأمور واضحة وليس فيها شيء غير مفهوم، ولعل ثقتي بكونكم توالون جانب الحق يسعدني سواء أكنت بين يديكم أم في دنيا الحق".

تحول الغضب الذي كان في وجهه إلى كدَرٍ عميقٍ في عينيه الحزينتين، وقال "لم يكن هناك من طريقة لوأد المعارضة في مهدها إلا ما قمت به، لقد استخدموا أقرب أصدقائي إليّ ليتحدى قراري، ولو لم أفعل ذلك..."، قاطعت حديثه من دون إذن قائلاً: "إنها حملة كلفت حياة أقرب صديق لكم، كان ثمن وأد المعارضة غالياً؛ حياة أقرب أصدقائكم يا مولانا السلطان".

قاطعني بصوت ناعم قائلاً: "إنني أعفو عنك". وفجأة اختفى قناع الحزن الذي رأيته قبل قليل يعلو وجهه، ورجع إلى صورة قائدٍ حازمٍ، وشعرت ببرودة تنزل من معدتي وتصل إلى فخذي، وأحسست بخفقات قلبي بدقاتها المتزايدة في صدغي، وشعرت وكأن الزمن توقف. لقد أصبحت كمن يسبح في عالم آخر، وبدا في عيني لمعان نجوم الفضاء، وأحسست بالدوار.

"إنني أعفو عنك من أجل خاطر همدم باشا". كان صمتي يعني إقراري، ولذلك سألت: "هل فعلت ما يستوجب عفوك عني يا مولانا السلطان؟".

كنت أحاول أن أبدو متماسكاً لكنه شعر كما شعرت أنا؛ شعر بارتجاف صوتي.
بإشارة من يده خرج آغا الإنكشارية سكبان باشي من الخيمة، ولم يتجاوز صوته الهمس. واقترب مني وقبض على يدي بقبضته القوية بشدة قائلاً: "عندما وصلنا إلى ألشكيرت في الأسبوع الماضي، أعرف أنك حرّضت الإنكشارية الذين انهمرت سهامهم بغزارة على خيمتي، ولو لم أقف أمامهم، وأقول لهم: إن لم تأتوا للقتال معي، فسأذهب وحدي، ومن يخف من الموت، فليعد إلى أحضان زوجته الدافئة، لو لم أقف هذا الموقف، فلا يعلم أحد إلا الله ما كان يمكن أن يحصل. إن شجاعتي تقضي على ألاعيبك وألاعيب أمثالك. إن تجرأت مرة أخرى على الاعتداء على حقوقنا، فستلاقي مصيراً أسوأ مما قد سيفعله بك إسماعيل".
"إنني معجب بدرايتكم يا مولانا السلطان، وأنتم تعرفون هذا جيداً".
ترك يدي، وبينما كان يضع الصفيحة الحديدية في مكانها بين سلاسل الدرع المجلجلة بنفسه، أضاف قائلاً: "كنت أنت وهمدم أكثر من أخوين بالنسبة إليّ، وإن قتلتك جزاء لما فعلته، فسيلقبونني بالسفاح، ويعتبروننني مجنوناً بقتلي أعز أصدقائي بلا سبب".
لم أستطع أن أرد بكلمة واحدة.
سكت، واستند على طاولة حديدية ضخمة للخرائط، مطرقاً ببصره إلى الأرض ثمّ قال: "إنني أرى همدم باشا في أحلامي يا كنعان، أراه غاضباً وحزيناً من أجلي ومن أجله، لكنني متأكد من أمر واحد، إنه لا يريدني أن أنتقم. إنه يتصرف في هذه القضية بنبالة أفضل منك يا كنعان. حتى مصطفى باشا الكبير عندما كان يذهب لإعدامه قبّل طرف ثوبي"، ثم نظر إليه ضاحكاً وأضاف: "لكنني لا أعرف كم سيعيش أمثالنا يا كنعان؟ لن نعيش طويلاً وسنلتقي بأصدقائنا. ألم أعش كل هذا الوقت كمسافر؟ وأعمارنا تمضي في الأسفار؟! لا تخف، لن يطول الأمر، لن يطول، هيا اذهب الآن".
عندما خرجت من الخيمة، شعرت وكأن العالم يخنقني، كان يستطيع أن يأمر بقطع رأسي فوراً، كان يستطيع أن ينهي سخطي وحزني وكل شيء بلحظة، وعندما كنت أبتعد بصحبة الجنود الإنكشاريين المرافقين لي في الصباح الباكر، كنت متأكداً من كل قلبي أن خوفي لم يكن قطّ من الموت، فقد كان بإمكان أي من هؤلاء الجنود أن يفاجئني، ويقضي علي، بل إسماعيل الذي لا بد من أنه سيستشيط غضباً كما يقدر سليم خان، ولن يشفق علي. ولكن خوفي كان أسوأ من كل ذلك، سآخذ غضبي معي

حتى وأنا أموت. ما أسوأ أن تنتهي الصداقة بهذه الطريقة!
استقبلني الشاه إسماعيل على رأس جيشه ممتطياً صهوة حصانه الأشهب المهيب قمرتاي. كان هذا الحصان أيضاً كحصان سليم خان قره دومان حصاناً مهيباً لقي عناية خاصة، وكان ذكاؤه وفهمه يبدوَان من عينيه الواسعتين المعبرتين. كان يرافق الشاه إسماعيل صدره الأعظم سيد عبد الباقي، وكنت قد تعرفت إليه من قبل، والمحارب المجرب محمد خان أوسطجه علي؛ أمير أمراء ديار بكر، كان هو مَن أوصل الجنود العثمانيين إلى الوضع الصعب طوال الطريق. وما إن رآني حتى قال وهو يضحك: "لا بد من أن جماعتكم قد بلغ بها العطش مداه".
أجبته بصوت متهور وبعيد عن اللياقة: "إن شرف الرجولة أن تستبسل في القتال"، وتابعت: "إن تسميم مياه شرب عدوك، وحرق طعام الحيوانات لا يليق بكم يا أوسطجه علي خان".
فرد: "حسناً أيها المرتد، هل قتل 40 ألفاً من الأبرياء يعتبر رجولة؟".
وبالرغم من معرفتي بإمكانية أن تكون نهايتي بسيف هذا البطل التركماني الشجاع، إلا أنّ رغبة الانتحار المسيطرة عليّ جعلتني أندفع وأرد: "أنا مسلم، ولست نذلاً مثيراً للفتن بين المسلمين مثلك. فكفار موسكو الذين يشتد عودهم بسببكم، يعدون الأيام لتقضي على مسلمي آسيا الوسطى، فما تفعلونه ليس سوى فتنة، وليس لكم غاية سوى الاستيلاء على ممتلكات السلطنة العثمانية".
قال أوسطجه علي وهو يستل سيفه المصقول: "هذا الكلب متعطش إلى دمائه"، ولمع الفولاذ في ضوء الصباح.
قال إسماعيل: "توقف".
تابعت ببرود: "أما قتل 40 ألفاً، فهو منافٍ للحقيقة، فالمعتقلون الذين تم إعدامهم من زعماء الثورة لا يتجاوز عددهم 500 شخص، والباقون تم نفيهم، ولا يتجاوز عددهم 3 آلاف، وستكون السجلات شاهدة للأجيال القادمة. لا تفعلوا ذلك، ولا تشيعوا تلك الأرقام المبالغ فيها لتزرعوا فتنة بين المسلمين".
قال إسماعيل بصوت لطيف: "اقترب مني". كان بحركاته يحاول أن يزيد من هيبته، وكذلك بوجود حارسه داخل الدروع الرائعة على صهوة حصانه الأسود قربه، ثمّ تابع: "يا ضيفي العزيز، هل تعرفني على الجيش العثماني الذي يقف متجهزاً لحربنا؟".
اقتربت بهدوء، كان يقف على يمين الشاه حارسه الخاص، يرتدي ملابس

سوداء، ويخفي وجهه، ويقف كسيف صلب جديد لم يستعمل بعد.
قال الشاه: "أعتقد أن جيشكم لن يستطيع أن يبادر بالهجوم هذا اليوم، فقد سار 2500 كيلومتر، وعسكر هذا اليوم، فلا بد من أنهم متعبون يحتاجون إلى النوم وجائعون، هذا بالإضافة إلى العطش. فمن الأفضل لكم أن تستريحوا هذا اليوم، وتنتظروا إلى الغد".
"لا أعرف ما ينويه سليم خان يا حضرة الشاه، لأنني لم أكن حاضراً في المجلس العسكري، لكنّ ما ذكرتموه معقول، وربما سيفكر سليم خان في الشيء نفسه".
رد الفارس بقوله: "لا يمكن التخمين بما يفكر فيه ذلك البربري، فلا بد من أن نكون مستعدين". ذهلت عندما تأكدت أنه صوت نسائي! وعندما رأى إسماعيل دهشتي، قال: "إنها زوجتي تاجلي بكيم".
فغرت فمي مذهولاً، في حين كان الشاه يشير إلى الخلف، لم يكن المكان بعيداً كثيراً، فشاهدت امرأة أخرى على عرش فخم مرصع بالصدف والمجوهرات ومصنوع من خشب الأبنوس: "هل زوجتكم الأخرى هنا أيضاً؟".
"نعم، لم أستطع أن أرفض طلب تاجلي هانم ولا طلب تاجلي بكيم".
"ولكن يا حضرة الشاه هل هذا أمر حكيم برأيكم؟!"
"إنهما امرأتان مخلصتان، لن تتركاني ولو تركني الجميع، وحتى تكونا عبرة للجنود فلا تتركان شاهم في المعركة وتهربان".
في تلك اللحظة انتبهت مذهولاً إلى أن كل الأباطرة والسلاطين والشاهات والقياصرة لا يتورعون عن قذف أقرب الناس إليهم في الهلاك من أجل النصر، فغايتهم الوحيدة هي الفوز مهما كانت التكاليف.
قال إسماعيل: "على أي حال، لندع هذا الآن، فربما أكون مخطئاً، لا يبدو على جيشكم أنه سيرتاح يا كنعان باشا، فهم يقومون بالمناورات المستمرة تمهيداً للحرب، بل إن قسماً من الجنود الإنكشاريين يقرعون الطبول، وهذا الهجوم سيصل قريباً إلى غايته. سليم خان سيدفع بجيشه الجائع والمتعب إلى الهلاك حين يهاجم جيشنا القوي والمرتاح، لقد فقد هذا الرجل صوابه. أخبرني يا كنعان باشا، لمن هذه الرايات الحمراء التي تتدفق من الجبال كأنها أنهار من الدماء؟".
انتفضت محاولاً الخروج من الأفكار التي تثير الغثيان قائلاً: "إنهم من فرسان نيغبول تحت إمرة ميهال أوغلو".
"والرايات الخضراء التي نزلت الآن إلى السهل؟".
"إنهم فرسان بولو وقسطموني تحت قيادة إسفنديار أوغلو. وهما فيلقان

يشكلان مع المهاجمين مقدمة العثمانيين".
"والذين يندفعون كالسيل الجارف بملابسهم الحمراء؟".
"هؤلاء الذين في مقدمتهم جنود العزب – الفلاحون - المغاوير الشجعان، ندعوهم بالمجانين يا حضرة الشاه".
"والفرسان الذين يضعون أحزمة مذهبة تذهب بالأبصار، هل هم الحراس الشخصيون المحيطون بسليم خان؟".
"لا يا حضرة الشاه، إنهم الجنود المتطوعون من إمارات قرمان والأناضول وروملي".
"حسناً، ومن هؤلاء الجنود الذين يسدلون الغطاء الأبيض على أكتافهم وكأنهم يربطونه إلى رؤوسهم بدبابيس ذهبية؟".
"إنهم جنود الإنكشارية، والغطاء الذي على رؤوسهم من قماش الجوخ الأبيض، وما ظننته دبابيس ذهبية، هي أغطية الرأس مشغولة بخيوط الذهب على شكل ملعقةٍ ترمز إلى ربط الإنكشارية بسلطانهم. وهناك يا حضرة الشاه الرايات الحمراء في الجهة اليمنى والرايات الخضراء في الجهة الأخرى، وفي الوسط بين العلمين الأحمر والأبيض هناك السلطان سليم خان سلطان العالم. على يمنيه السباهية وعلى يساره رجال السلاحدار، وفي الوسط الفرسان الأولوفه لي (يعملون في قصر السلطان مقابل راتب يدفع لهم كل ثلاثة أشهر) والغرباء؛ وهم جنود السلطان".
"إنهم يتجهزون للدخول في المعركة يا كنعان باشا، هيا، عد كما أتيت، لا أريدك أن تضيع بين الجيشين".
ثم قرأ أبياتاً من شعره النفيس:
"فليتوشح المجاهدون سيوفهم وأسلحتهم، ففي ذلك للمنافق إرهاب وهلاك
إن جندياً من جيش الولاية يعادل جيش يزيد ولو بلغوا مئة ألف
عندما يظهر المجاهد يهرب جنود النفاق كأنهم قطعان الخرفان المذعورة من الذئب
إن نظرة من الشاه تكفي لينهار منها (شمر) و(مروان)
وحين يدخل المجاهدون الشجعان الميدان ينقلب صمود الخوارج فوضى
فلتقصف السيوف رأس اليزيد، والسهام والخناجر، فقد استهلك كل ما لديه
علم أحمر، وبيرق أحمر، وتاج أحمر؛ حين يتقلدها المجاهدون، فذاك يوم وعيد".

IV

كان السلطان سليم مع أركانه: الصدر الأعظم أحمد هرسك زاده باشا،

وأحمد دقاقين زاده باشا، ومصطفى باشا، والوزراء الآخرين في قلب الجيش العثماني، ينظمون الأوامر التي سترسل إلى الأجنحة، وينتظرون الانطلاق إلى النقاط الهامة على رأس وحدات الدعم الصغيرة كقوة إضافية. كان الجناح الأيمن بقيادة أمير أمراء الأناضول الخدم سنان باشا، والجناح الأيسر بقيادة حسن باشا أمير أمراء إقليم روم إيلي، والمركز في حماية مشاة الإنكشارية ممن يحملون البنادق، وفي المؤخر ثلاثمئة مدفع متحرك مشدودة إلى بعضها بالسلاسل، ولم تكن هذه الأسلحة المرعبة لدى أي جيش سوى الجيش الذي شكّله وخطط له السلطان بيازيد خان الثاني.

أظهر بيازيد خان الثاني فراسة لا مثيل لها، عندما حوّل المدافع الثقيلة التي كانت تعتبر من أسلحة القلاع إلى متحركة بنجاح، وشكّل بذلك طوابير مدفعية رادعة. أضف إلى ذلك التأثير المدمر لبنادق الأركبوز (29) الثقيلة، فقد تم تشكيل طوابير حمَلَةَ البنادق التي يزيد تأثيرها عن تأثير المدافع في المسافات القريبة بخبرة بيازيد خان الثاني وعنايته.

أما الجيش الصفوي فلم يكن يملك سلاحاً نارياً واحداً، وكان بقيادة الصدر الأعظم نعمة الله زاده مير عبد الباقي، وولاة بغداد، ومشهد، وخراسان، ودمغان، وبقية أركانه. فكان كل واحد منهم مقاتلاً مشهوراً. تولى الشاه إسماعيل قيادة الجناح الأيمن، وتولى أسطة جالو محمد خان قيادة الجناح الأيسر. كان الجيشان متساويين تقريباً من حيث عدد الجنود القادرين على الحرب، فكان الجيش العثماني يضم قرابة ثمانين ألفاً من المحاربين مع المتأخرين في الطريق نتيجة الظروف الصعبة، ويتقدم على جيش الشاه بالسلاح الناري. وكان جيش الشاه مثله في العدد، لكنه يتقدم على جيش سليم خان بفرسانه المهاجمين الأشداء الذين يشكلون غالبية جيشه. وإذا كان الجيش العثماني متفوقاً من حيث الأسلحة النارية، فإن هذا التفوق لم يجرّب في معركة كبيرة كهذه، نظرياً بدا أن النصر سيكون حليف الصفويين.

استطاع الفرسان الصفويون الذين انهالوا من المرتفعات القريبة كالمطر الأسود، يدعمهم رماة السهام المهرة، من صد التحركات العثمانية الأولى في بدايتها، فكان الجنود الفلاحون والفرسان متمركزين في أماكنهم في موقف دفاعي، ينتظرون وصول الدعم، لكنه تأخر، ورفع الفرسان الصفويون معنوياتهم إلى الذروة حين نجحوا في إلحاق الهزيمة بالجناح الأيسر من الجيش العثماني المتوقف.

بقي حسن أمير أمراء روم إيلي صامداً ووحيداً في الميدان لفترة من الزمن حين تأخر جنود الإنكشارية المتكبّرون بسبب برودة دمائهم عن تقديم

الدعم للجنود الفلاحين المتراجعين، ولم يمضِ وقت طويل حتى سقط شهيداً، ولهذا لم يكن أمام الجناح الأيسر مفرٌّ من الانسحاب.
تلقى السلطان سليم خان نبأ هذا الفقدان الأليم بغضب وحزن، وأرسل الداماد مالكوج أوغلو علي بك أمير مغاوير صوفيا خلفاً لحسن باشا، وعندما وصل مالكوج أوغلو عمل أولاً على تخفيف الضغط، لكن الفرسان الصفويين المدججين بالدروع الخفيفة والثقيلة كانوا أكثر حماسة للحرب، وشعر بأن الجنود سيفقدون شجاعتهم إن لم يتدخل شخصياً، فتقدّم صفوف الجنود ليكون قدوة لهم، وأقدم غير هيّاب، لكنه سقط شهيداً في وقت مبكر بسبب جروح السهام والرماح التي تلقاها. لقد نشأ هذا القائد في ثغور أوروبا، وكان شاباً قديراً وابن فاتح وارسو المجاهد قوجة مالكوج أوغلو باشا. كان أخوه مالكوج أوغلو طور علي بك رفيق طفولة السلطان ياووز سليم خان، ومن أحب رجالاته إليه، وقد تأثر كثيراً باستشهاد أخيه الأكبر، فاستأذن السلطان، وعمل فوراً على سد الثغرة لكن شهادته أيضاً لم تتأخر، فلم تفصل بين الشهادتين سوى نصف ساعة.
فسطاط سليم خان: الساعة 10.30 صباحاً
صاح ياووز خان: "لا أستطيع تحمّل هذه الخسارة خلال خمس ساعات يا لالا جعفر باشا"، ورمى بخرائط التحصينات التي قدّمها إليه المختصون في وجه الباشا العجوز، وأضاف: "جناحنا الأيسر لا يستطيع التماسك، إنني أفقد أفضل قادتي وأنتم تنظرون هكذا"، ثم رمى ياووز جانباً درعه التي تغطي رقبته المتعرّقة ودروع ساعديه الفولاذية التي تذكر بجذوع شجرة، وفي رعشات شاربيه الكثّين العريضين وحشة تثير الفزع لدى الباشا العجوز. انكمش الباشا داخل قفطانه المصنوع من البروكار الأخضر انكماشاً كأنه غاب به عن الوجود.
قال أحمد دقاقين زاده باشا، وقد انكمشت عيناه الشهلاوان، وبدت على وجهه الطويل عبارة ذكية: "مولانا السلطان، إن أوسطجه جالو محمد خان يقود المحاربين الأشداء في القسم الذي يواجه الجناح الأيمن من العدو".
"أعرف هذا يا دقاقين زاده، فدع الهراء".
"فلنحرك يا مولانا السلطان إلى ذلك الموقع أمير أمراء الأناضول خدم سنان باشا، فهو عسكري ماهر، وهو وحده الذي يستطيع التغلب على أوسطجة جالو الآن".
"المسألة الأساسية هنا هي ثقة جنود العدو بما يفعلونه أكثر من مهارة أوسطجه جالو، إنهم لا يحاربون من أجل الغنيمة كما يفعل جنودنا، إنهم

مرتبطون بشاههم حتى الموت، ويعتبرون الموت في سبيله مفتاح الجنة، وهذا هو الفرق بيننا أيها الباشا".
"ما هي اقتراحاتكم يا مولانا السلطان؟".
جالت عينا سليم خان اللتان تقدحان شرراً على أركانه، ثم قال: "ليتراجع الجناح الأيمن أيضاً نحو الوسط مع الحفاظ على شكل الهلال، ولنتظاهر بالهزيمة عند الجناحين، ولنوهمهم بانسحابنا، عندئذ سيتجهون نحو الوسط، وعندها سنريهم مهارة رماة المدفعية".
قال دقاقين زادة: "أوامركم مطاعة يا مولانا السلطان". واعتلى صهوة حصانه ليبلغ الأمر بنفسه.
ترك خدم سنان باشا قيادة الجناح الأيمن بموجب الأمر الذي تلقاه، لمساعده صلاح الدين باشا، وتحرّك بنصف قواته وهو يجمع الجنود المشتتين على طول الطريق في أثناء الانسحاب. استوعب الأمر جيداً، وفي ظل برود أعصابه وطبعه في اتخاذ قرار سريع، طوّر خطته الشخصية، وهذه الخصائص الشخصية ستفتح له طريقاً ليكون صدراً أعظم.
الجناح الأيسر العثماني والهجوم الشامل:
ساعات الظهر
عندما رأى خدم سنان باشا الحالة المريرة للجناح الأيسر، أمر بدفع جنود الإنكشارية المسلحين بالبنادق إلى المقدمة. كانت نيته تنظيم صفوف رماة السهام عنده تحت طلقات البنادق، لكن نيران البنادق لم تستطع إيقاف الفرسان الصفويين، ولو أنها أبطأتهم قليلاً. فقد كانت البنادق الكبيرة ذات الطلقة الواحدة فعالة، لكن استخدامها مجدّداً يستغرق وقتاً طويلاً. فهذه البندقية كانت تعمل بتعبئتها من فوهتها، ثم يشعل البارود في المخزن بواسطة فتيل يصل بين الزناد والمخزن، هذا الفتيل كان بطيء الاحتراق، ولكنه بعد كل إطلاق كانت السبطانة الفولاذية تسخن كثيراً، وتنفجر أحياناً بسبب انفجار البارود غير المضغوط جيداً، مما كان يؤدي إلى جرح الجندي الذي يستخدمها أو موته.
بتجمّع الفرسان ومبادرتهم إلى الهجوم، توازنت المعركة لبعض الوقت، إلاّ أن ذلك لم يستغرق سوى ساعة، حين بدأ تفوق الفرسان الصفويين بمعنوياتهم العالية يظهر مرة أخرى. في تلك اللحظة أمر سنان باشا بالانسحاب التكتيكي، فظن العدو أنه أحرز نصراً حاسماً جديداً، لكنهم هذه المرة تغلغلوا في الوسط ليشتتوا الجيش العثماني تماماً، فحمل الفرسان الصفويون بكل قوتهم، وفي هذه النقطة بدا أن مبدأ الشاه إسماعيل الحربي في

الاعتماد على سرعة فرسانه ومهاراتهم التي لا تبارى يترنح.
بدأت المدفعية في الوسط بسحق الفرسان برميات سريعة، ومتتابعة أذهلت الصفويين، وأجبرتهم على التراجع، لكن الشاه إسماعيل الذي أحس بقرب النصر، لم يشأ التراجع، وعلى الرغم من مسارعته لنجدة فرسانه بالقوات الخاصة التي كانت تحت إمرته، إلا أنه لم يستغرق وقتاً طويلاً حتى يدرك أنه لن ينجح، فسبطانات المدافع كانت تقصف بسرعة لم يكن يتوقعها، فكانت تفتح نيرانها قبل أن يتمكن فرسانه من تطبيق هجومهم المخطط له، أدرك الشاه إسماعيل خطأه بعد فوات الأوان، وذكّر بغضب قادته الذين وقفوا بشدة في وجه أي تجديد في نظم الحرب التقليدية واحداً واحداً، وكان مخطئاً أيضاً إذ لم يُعِر قادته الذين قدموا له التقارير، الاهتمام المطلوب، وكان واثقاً بنفسه وجيشه فحسب. عليه الآن أن يدفع بالمشاة والقوات الإضافية إلى الهجوم، في سبيل تأمين فرسانه وجمعهم من جديد، إن استطاع رماة السهام عنده التغلب على النيران العثمانية من الجناحين، وكان واثقاً من ذلك ويأمل تحقيقه لتحويل كل شيء لصالحهم.
في هذه الأثناء أصابته شظية في ذراعه اليسرى، فأطاحت ببدنه القوي، مع حصانه الجريح.
تبعثر رمحه، وترسه، وخوذته جانباً، وكان حصانه قمرتاي الذي يحبه، مصاباً بشظية ويحتضر. نهض بسرعة يصيح بحزن وجلال، ولم يحسّ بأي قوة في ذراعه اليسرى تحت الدرع. وكان لا بد من التكيف مع الموقف إن كان يريد البقاء حياً، وكان لا بد من البحث عن خبراته في الحروب السابقة. وكان السيف لا يزال بيده اليمنى وهو يبحث عن أعدائه الذين يقتربون منه، فالعيون لم تعد تستطيع الرؤية في ظل دخان البارود.
في تلك اللحظة، رأى سباهياً (30) عملاقاً كان على وشك الترجل عن حصانه، ربما عرفه، فكان يبدو عليه أنه يسبح في خيال نيل المكافأة الكبيرة مقابل رأس الشاه. كانت أسنانه الدامية التي تبدو من بين شفتيه المنفرجتين، وعيناه الجاحظتان، تذكره بضبع، اتخذ إسماعيل موقف الدفاع، وهو يتمتم: "هيا اقترب أيها الكلب". كان شبابه وتصميمه يكفيان لمواجهة هذا العثماني العملاق. حين خطا عدة خطوات إلى الأمام كان الألم المنبعث من ذراعه اليسرى يكاد ينتزع روحه كلها، وارتعشت ركبتاه، ضغط على أسنانه غضباً، وهمهم قائلاً: "تحمّل، اصبر يا إسماعيل، اصبر، فستنجح، فلا يليق بك الرحيل قبل الانتقام لخلاّنك، وقمرتاي".
اقترب السباهي، وقد أسبل الدبوس المسلسل في يده، وكان وراءه آخرون

قادمون، وربما أدركوا ما كان يدور، لكن بدا على السباهي أنه لن يترك غنيمته الكبيرة لأحد، وتراجع إسماعيل متجنباً الضربة الأولى للعدو بسهولة، لكنه لم يقوَ على شن هجوم مضاد، وكان الدم الذي بصقه من بين شفتيه يبدو له كحلم قديم مزعج رآه، وأياً من هذه المشاهد يمكن أن تكون حقيقة.

رفع سيفه، لكن السباهي الذي كان يهمه إنهاء المعركة بسهولة جدد هجومه بالدبوس الذي بيده قاصداً سحق رأس الشاه. انحنى الشاه، لكنه لم ينجُ من مسامير الدبوس المدببة التي كشطت قفا رأسه العاري، فاسودَّت الرؤية في عينيه للحظة. وكأنما أثارته كثرة الدماء التي سالت منه، فصاح بتأثير ذلك السائل الأحمر المراق: "إن لم أحارب بكل قواي، وأبادر الآن، فلن تكون لي فرصة ثالثة".

طيلة سنوات اعتاد على إجراء تدريبات صعبة جداً، بيد أنه لم يحارب البتة، وهو الآن جريح. كان يعرف كل تقنيات استخدام السيف، لكنه الآن يقاسي من الألم المبرح. وعلى الرغم من ذلك، وبسرعة تذكر سرعته القديمة، فأرسل سيفه من الأسفل نحو الأعلى فما كان من السباهي إلا أن تعلق بطرف سيفه من أسفل ذقنه كسمكة يائسة علقت بطعم صنارة صيد، وصدر منه صوت مخنوق مرعب، وشخر، ثم انقلبت عيناه وابيضتا، وامتدت ذراعاه على جانبيه.

ضربه أحد جنود الإنكشارية الذين وصلوا آنذاك فألقاه أرضاً بجسمه المجروح، فطار سيفه من يده. فالتفت الجندي إليه، ووقف بالقرب من رأسه، وقال له وقد علت وجهه تكشيرة مرعبة: "أعرف من أنت". فرد إسماعيل: "إنك لا تعرف، بل تظن أنك تعرف".

"أعرف، أنك الشاه إسماعيل".

قال الشاه الشاب وهو يحاول الوقوف: "إنك تعرف اسمي فقط".

لكن الجندي كان قد أمسكه من شعره، واستعد إسماعيل لآخر ضربة سيف تنزل على رقبته، وهو يبتلع ريقه، وتمتم: "إلى هنا يا علي". وبينما كان على وشك النطق بالشهادة لاحظ انغلاق شفتيه، فتشتت عقله في تلك اللحظة، وأحس بالرغبة في النظر إلى الشمس للمرة الأخيرة، وكان لا بد من أن يحس بتلك اللمسة الدافئة لأشعتها ما دامت الروح لم تغادر جسده بعد، ووجّه عينيه إلى الشمس التي كانت تضيء مثل قنديل ببياض اللبن في سماء دافئة يسودها بياض ضبابي.

في تلك اللحظة رأى ميرزة علي أحد رجاله المخلصين قادماً على حصانه

الكميت. كان الشاب، في أوائل العقد الثاني من عمره، وكان واحداً من المستعدين للتضحية بأرواحهم في سبيل شاههم، رمى ترسه البرونزي الذي كان بيده نحو الجندي، وهو يصيح: "أنا الشاه إسماعيل". غرز الجندي العثماني خنجره البارد في أمعاء الشاه إسماعيل، ثم خصص ميرزة علي بضربة من دبوسه. إلا أن ميرزة أفلت من ضربة الدبوس، وانهال بالفأس الصغيرة التي يحملها على وسط جبين الإنكشاري، وانقض بسرعة البرق على الشاه، ورفعه على حصانه، ولكزه، وهو يقول: "اذهب يا شاهي حماك الله، وأي معنى للحياة من دونك، سر ولا تتوقف أبداً".

قال إسماعيل: "حماك الله". وحث الحصان بكل قوته، فهبّ الكميت على قوائمه الأربع منطلقاً. آنذاك، خطرت بباله زوجتيه اللتين بقيتا وحدهما في فوضى ساحة الحرب، وعندها شعر بذعر لم يشعر به من قبل قطّ.

وقع الجيش الصفوي بكل أخطائه بسرعة فريسة لذلك المرض المسمى الهزيمة، كان الجنود يفرون متشتتين، وقد ترك الميدان كل ذي عقلٍ سليمٍ. ومنذ ذلك الحين أصبح واضحاً أن جيشاً لا يملك أسلحةً ناريةً، لن يملك حظاً أكثر من هذا.

الفصل الخامس:

الدرب طويل والعمر قصير

I

كانت السلطنة العثمانية مخلصة جداً للإسلام حتى تماهى وجودها بالإسلام. فلم تعرف بالبلاد العثمانية، بل كانت (ممالك إسلامية)، وكان حاكمها بادشاه الإسلام، وجيشها العساكر الإسلاميين، وزعيمها الديني شيخ الإسلام.

برنارد لويس

تبريز؛ أواخر آب، أيلول 1514م

نتيجة هزيمته النكراء، خسر الشاه إسماعيل إمكانات جيشه الذي كان يغتر به، ويصونه كما يصون عينه وخزائنه وعرشه الذهبي المشهور وقادته الأفذاذ، لكن الأهم من ذلك كلّه، أن زوجته ونور عينيه وفتنته التي جمالها على كل لسان بهروزة خاتون المعروفة بتاجلي هانم، وقعت أسيرة في أيدي العثمانيين. أما زوجته الأخرى تاجلي بكيم، فقد نجحت في الوصول إلى تبريز في ساعات المساء من اليوم التالي، ومعها مئتان من فرسانها.

لقد وصل الشاه إسماعيل - الذي أزال من الوجود نصف دزينة من الدول حتى اليوم، ذاك المغرور الذي لم يعرف الهزيمة - إلى قصره في ساعات الصباح، وجمع ما خف حمله وغلا ثمنه مما يملك، وغادر تبريز مع قادته

الذين ظلوا على قيد الحياة، وقرابة أَلفٍ من رجاله المخلصين. عُولجت ذراعه خلال ساعات وجوده في قصره، وضمدت جروحه البليغة والخفيفة الأخرى، لكنه لم يستطع أن يضمّد ولو قليلاً جرحه البليغ المتجذر في نفسه. لم يجد وقتاً لجمع جثث أحبابه وقادته ومسؤولي دولته الكبار من ساحة الحرب، ودفنهم كما يليق بمكانتهم. فكم من أبطال من أمثال سيد عبد الباقي، ومير سيد شريفي، وأَوشار سلطان علي، ولالا حسين بك، وطاليش خادم بك، وآخرون ممن لم ترد أسماؤهم، قضوا نحبهم على يد وحدات ياووز الضاربة! لم يكن يستطيع حتى البكاء، لقد كان منهكاً تماماً، وكان لا يزال في السابعة والعشرين، لكنه لم يكن يميزه عن أبطاله الصرعى سوى أنه لا يزال على قيد الحياة. كانت تقاسيم وجهه غائرة، وأبيضت أطراف شعره في ليلة واحدة، وكان كل ما يفكر فيه حينها هو فعل أي شيء لاستعادة حبيبته وزوجته تاجلي هانم من أسر سليم خان.

أما جيش سليم خان فقد تفرغ يومين لدفن الجثث، ثم غادر الجيش الظافر صحراء جالديران في السادس والعشرين من الشهر، ودخل تبريز من دون مقاومة في السادس من أيلول، كان الشاه إسماعيل ومن معه قد غابوا عن الأنظار.

خرج الأهالي في المدينة لاستقبال الجيش خوفاً من النهب والسلب، وجاء وجهاء المدينة يتضرعون باسم الأهالي، فقوبلوا بالرحمة. وفي الثامن من أيلول كانت خطب صلاة الجمعة تدعو لسلطان إقليم الروم السلطان ياووز سليم خان.

(*)

لم يكن سليم خان يرى هذا النصر كافياً، فهو لم يتمكن من القبض على الشاه إسماعيل والقضاء على الخطر الصفوي نهائياً. وعلى الرغم من صلابته التامة، قرر سليم خان هذه المرة قراراً عقلانياً، بالاكتفاء بالخزائن التي لا تقدر بثمن، والغنائم، والهيبة.

أخيراً، تحققت رغبات الجيش، فكان الجنود يودون مغادرة أرض الأعداء قبل حلول الشتاء، حيث من الممكن التعرض في أي لحظة للكمائن. وبالمقابل، ظل سليم خان في تبريز أسبوعاً زار خلالها الأماكن التاريخية الهامة في المدينة، كما أرسل رسائل الفتح إلى ولي العهد في إسطنبول الشاهزاده سليمان، وسلطان مصر غوري، ودوق البندقية، وملك المجر، وخان القرم، وقادة آخرين في دول هامة. ثم قاد إلى إسطنبول الصناع، وأصحاب المهن المهرة، مع من ثبت على مذهب أهل السنّة من التركمان.

قرر ياووز أن تمضية الشتاء في أراضيه أكثر أماناً، لقد كان قادته وجنوده الذين اتخذوا شكل كتلة ثرثارة لا تسكت أبداً على حق. فربما أدى البرد وكثرة حروب العصابات إلى تفكك الجيش، كما أن حركات التمرد التي قد تظهر مجدداً قد تلحق أضراراً كبيرة لا يمكن تلافيها في سلسلة القيادة والتحكم. فضلاً عن أنه يمكنه العودة في الربيع. وعلى الرغم من أنه لم يكن يرغب في المغادرة في صميمه، فقد انصاع ياووز هذه المرة لمطالب المحيطين به.

في تلك الأيام، كان حفيد تيمورلنك سلطان بديع الزمان ميرزة موجوداً في تبريز، وهو الابن الأكبر لحسين بيقره بك، وولي عهده. وكان قد لجأ إلى الشاه إسماعيل بعد أن فقد عرشه بسبب احتلال القائد الأوزبكي شيباني محمد خان عاصمته هرات. وبعد هذا الاحتلال الأوزبكي الذي قضى نهائياً على إمبراطورية تيمور الأسطورية الكبيرة، تفرقت هذه الأسرة الكبيرة في أرجاء الأرض المختلفة.

على الرغم مما جرى بين جده الكبير يلدريم بيازيد وتيمورلنك، فقد أبدى ياووز احتراماً كبيراً لحفيده، لأنه كان يرى في تيمور فاتحاً كبيراً مثله. ولم يفارقه طيلة مدة وجوده في تبريز، وعامل بديع الزمان ميرزة معاملة تليق بإمبراطور. وعندما كان يغادر تبريز في 15 أيلول متوجهاً إلى إسطنبول، ودّع بديع الزمان بعد أن خصص له مورداً محترماً للعيش. كان برفقة ياووز أيضاً، مؤذن تبريز المشهور الحافظ محمد أفندي وابنه حسن جان الذي صاحبه وصار نائباً له في ما بعد. كان الجيش متجهاً إلى مشتاه في أماسية.

II

20 أيلول 1514

من مذكرات كنعان باشا:

الأربعاء 1 شعبان 920

لا تتوقف الأمطار في هذه المنطقة لا صيفاً ولا شتاءً، لم يتمكن جيشنا من عبور نهر أراس (31) بالرغم من الجهود التي بذلها رجال الاستحكامات بسبب رخاوة أراضي ضفتيه. فقدنا خلال الساعتين الأخيرتين عشرة من جنود الهندسة بينهم ثلاثة قادة بارعين، اثنان منهم التحقا بالجيش بأمر من السلطان سليم خان شخصياً. انهار أول جسر في النهر بعد إقامته بنصف ساعة مع عشرين شخص وأكثر من مئة دابة بين خيل وبقرة. لقد غضب السلطان من تشتت العوامات في كل مرة أمام تدفق النهر الجارف، وخوفاً من غضب السلطان، عبّر عناصر الاستحكامات عن حاجتهم إلى مزيد من

الجنود العزب، ومع ذلك فإن إنشاء الجسر اللازم للعبور السريع للجيش يحتاج إلى وقتٍ طويلٍ، واستدعى السلطان رئيس المسَلِّمين (32) وعمال الأنفاق وصفعه صفعة طرحته أرضاً.

حافظ السلطان على وقاره وسكينته التي تشبه السحب الرمادية التي تتكاثف فوق رأسه، وفجأة أمر الجيش بالنزول والعسكرة على طول ضفة النهر، وكان من المناسب نصب خيمة السلطان عند السفح القريب من الغابة، لكنه في هذه الحالة تظهر المشاكل الأمنية، ففرق الاغتيالات من الحشاشين يمكنها أن تكون في كل مكان بهدف الانتقام لكرامة الشاه المهدورة الذي لا بد من أن يكون في منتهى الغضب الآن، وطبيعة الأرض خلف نهر أراس كانت متغيرة بتأثير انحدار السيول من الجبل مما يشكل مصدر خطر آخر، مما جعل نصب خيمة السلطان عند ضفة النهر خياراً لا بديل له، وكان لا بد من الحذر الشديد لأن النهر لم يكن أفضل حالاً من الغابة في أمنه من الحشاشين.

يبدو أن الصفعة صقلت ذهن رئيس العمال، فقام بتشحيم الحبال التي مكنته من ربط العوامات ببعضها بإحكام، وبعد عبور الجيش كله نهر أراس بعد عصر ذلك اليوم قاموا بإزالة الجسر تماماً، وأحرقت الحبال التي طليت بالزيت فاشتعلت النيران وارتفعت ألسنة اللهب، أمام أنظار الجيش كله صغاراً وكباراً، قادة وجنداً بما فيهم السلطان ذاته. في هذه اللحظة بالذات رأيت الشوق المدهش الساحق المخيم على وجوه البشر، تعكسه ألسنة اللهب المرتفعة تضرب بشوقها صفحة الساعات الرمادية الحزينة المخيمة عند الغروب.

في الصباح الباكر عندما كان الجيش يجمع أمتعته استعداداً للمسير، وصل المبعوث الصفوي وهب زاده بعد عبور النهر على خشبٍ وانتظر طويلاً أمام خيمة السلطان حتى يُؤذَن له بالدخول. وكنت أعرف أن السلطان سليم لا يحب هذا المبعوث ذا العينين الكبيرتين المكحولتين والوجه المصبوغ والسلوك المتغطرس المختال الذي التقاه في زياراته السابقة، ثم مثل بين يدي السلطان بالسلوك المتغطرس نفسه وكأنه مبعوث دولة منتصرة لم تذق مرارة الهزيمة، وقدّم الرسالة التي يطالب فيها الشاه إسماعيل بزوجته تاجلي هانم.

ألقى السلطان سليم نظرة ذات معنى على مبعوث الشاه إسماعيل. كانت تفوح من شاربيه الكثّين المفتولين رائحة الورد واللوز، وكانت نظراته جامدة باردة، وكانت عمامته اللاهورية تحيط بقلنسوته الحمراء، أما ثيابه فكانت

من الحرير الأصفر فاقع اللون فوقها رداء مرصع بخيوط الذهب والفضة، أما سرواله فكان باللون الأحمر القاني، ويطوِّق خصره بحزام من الحرير الأخضر، وينتعل حذاء من جلد الماعز اللامع. ارتسمت ابتسامة خفيفة مظلمة على ثنايا شفتيه، عندما التفت السلطان إلى الحضور في مجلسه من وزراء وقادته، وقال: "أيظن هذا الكلب أن الحرب بيننا قد وضعت أوزارها، حتى يبعث إلينا بمبعوث مخنث من غير حياء ولا خجل؟". ثم التفت إلى جليسه الجديد حسن جان بالرغم من وجود الكبار من رجال دولته، فسأله: "ماذا تقول يا حسن جان؟ ماذا نفعل أيها الصديق؟".

في ظل اللامبالاة التي تبدو في تعابير وجهي، والغضب الظاهر في نظرات الآخرين، قال حسن جان بوجه طيب محبب: "أنتم أوسعنا معرفة، والأمر لكم يا مولانا السلطان". تنفس السلطان بعمق، ثم قال: "أحسنت الكلام يا حسن جان"، ثم أمر وهو ينظر إلى عيني المبعوث بتزويج بهروزة خاتون المعروفة باسم تاجلي هانم والتي كانت في ضيافتنا حتى اليوم، برئيس الديوان والكاتب (فتح نامه) والقاضي عسكر تاجي زاده جعفر جلبي. فصعق من في الديوان بهذا الخبر ودهشوا. كان جعفر جلبي هذا، عفا الله عنا، غليظاً منفراً قبيح الوجه والجسد، ولم يكن نداً لبهروزة خاتون، ولكن السلطان أراد أن يحتقر الشاه إسماعيل.

ثم قال: "أيها السادة، ما بكم استغربتم كثيراً؟ ألم تعلموا أن رجاء هؤلاء الرافضة غير مقبول لدينا؟ أنسيتم كيف دعونا للحرب، وتركوا جنود الإسلام جوعى وعطشى، أم إنكم نسيتم كيف بعث لي بجيفة حيوان، ولباس امرأة محتقراً سلطانكم؟! وتلك الرسائل الوقحة أنسيتموها؟! أجيبوني!". فلم ينبس أحد ببنت شفة.

السبت 11 شعبان 920

نحن الآن أمام قلعة تالين الأرمنية المشهورة، المستعصية على الاستسلام، فقام جنودنا بمحاصرتها، وبدأت المدافع المتحركة بدك بابها الحديدي المحكم، وسرعان ما خارت قوى المدافعين أمام قنابل المدافع، ولو أنهم استسلموا وطلبوا الأمان من سليم خان لكان خيراً لهم، ولم يتعرضوا للنهب. وهل يعاب على المدافعين عن أرضهم وبلادهم؟! فما السبب في هذا الغضب لا يفارق السلطان، حتى غدا وكأنه صفة ملازمة له، وسجية من سجاياه؟ أم كان ذلك شوقي وحنيني لأيام طفولة الشاهزاده سليم الهادئة المرحة؟ في تلك الأيام، كنا نتأثر معاً ونحن نقرأ قصص الغزاة والفرسان الأبطال الذين يقاتلون حتى آخر قطرة من دمائهم. وذات يوم، وبعد أن أنهينا قراءة

كتاب ملحمي، تعاهدنا على ألاّ نموت قبل أن نغزو الأعداء، لكن الحياة الحقيقية والمسؤوليات القاهرة قتلت فينا تلك الملاحم، وزرعت بيننا عوائق تفوق نهر أراس وقلعة تالين.

لم تصمد قلعة تالين أكثر من يوم وبعدها صارت مرتعاً للغزاة الناهبين، وبينما كانت تضرب أعناق المقاومين جميعاً، كان سليم خان ينسحب إلى خيمته، وكانت أصوات الخوف والعويل تصمّ الآذان، ترى كيف كان يتحمل كل ذلك؟! قديماً كنت أدخل خيمته من دون استئذان، وأعرف كل شيء، وليس لي الآن سوى الظن والتخمين؛ ربما يقرأ شيئاً ببصره الذي يزداد مدُّه مع الأيام، أو أنه يكتب شعراً يضيفه إلى ديوان شعره. كنت أعرف أنه لا يستطيع أن ينام في الليل، فهل يمكن أن يكون ذلك بسبب العذاب الداخلي الذي يعانيه؟ ترى بأي حال هو الآن؟

تجرأت ذات يوم وسألت حسن جان ما إذا كان سليم خان يذكرني أم لا، لكن حسن جان ابتسم وهو يتلو أبياتاً من شعر السلطان:

سال عمري من عيني كالبحار
أصدقائي رأوا في رأسي المبتلى مطمعاً
أنا الفقير في ديار الغربة أبقى وحيداً
لو لم يكن البلاء والمحنة صديقيّ

كأنه يكاد يختنق من وحدته، سألت: هل يمكنه أن يقوم بحملة للعودة بالصداقة إلى أيامها القديمة؟! وإن تصرفت وكأن شيئاً لم يكن، فهل سيغيب عن ذهني خيال همدم باشا العزيز؟! فقد كنا نشكل ثلاثياً لا يفترق، وكنت أظن أن هذه الصداقة ستدوم إلى الأبد، ولأننا نحافظ على بعضنا، كنت أظن أننا أقوياء، وكانت هذه الافكار تحيرني وتكاد ترمي بي نحو الجنون. لكنني على ثقة بأن لي مكاناً في قلبه طالما أنه لم يعزلني، ولم يرسلني إلى الجلاد ليضرب عنقي. نعم، فأنا على يقين من ذلك، وهذا ينفعني في هدفي النهائي.

ثم قلت لحسن جان: "أرجو ألاّ تسيء فهمي، ما الذي تتميز به حتى جعلك صديقاً مقرباً بهذه السرعة؟! ألم تستغرب ذلك أيضاً؟!".

"بلى، في بادئ الأمر". هكذا أجاب حسن جان، وعلى وجهه تعبيرٌ غامضٌ لا يمكن حله، يتمزق قسمات تبدو وتختفي. وبعد تفكير قليل أدركت أنها رسالة لي مفادها؛ إن مقام السلطان لا مكان فيه للصداقة الدنيوية، وإنه محكوم بالوحدة المؤبدة.

قلت له بغضب يكوي كبدي: "كيف؟! كيف تكون واثقاً إلى هذه الدرجة!".

فالتفت حسن جان إليّ بوجهه المحبب تعلوه الدهشة، وقال ذاكراً لي البارحة قول سيدنا علي رضي الله عنه: "اعف عمن أساء إليك، ولا تعفُ عمن أساء لملتك" (33) . فقلت له بسذاجة من غير تفكير: "أنتم الآن، أنتم الدولة وأنتم الشعب". فأمسكني بيديه القويتين من تلابيب ثوبي يهزني بشدة، ولو أراد كسر رقبتي لفعل يا كنعان باشا، وهو يقول بصوت صاعق: "أنا هيـچ! (34) أنا لست شيئاً!". وارتجفت شفتاه، وهو يتابع: "أنا لا شيء، وأنا لا أبلغ فرداً من هذه الملة، أنا من حُكِمَ عليه إدارة هذه الملة، فأنا المقيد من قلبي إلى ضميري ووجداني".

تشرين الأول 1514

السبت 25 شعبان 920

في هذا اليوم وصل العالم المؤرخ إدريس بيتلسي إلى السلطان سليم الذي أقام مع جيشه في صحراء باسين، وكان السلطان يحبه كثيراً، ويجلّه كما هو مجلٌّ في بلده وبين قومه الكرد. فنظرة الكرد السنيين الدافئة إلى إدارة السلطان سليم ومسارعتهم لنجدته في الحروب، كانت نتيجة تقدير السلاطين العثمانيين لهم، ودعمهم وحمايتهم لهم. وأتت هذه السياسة ثمارها عندما حكم العثمانيون كردستان حقيقة، لأن الكرد شعب متدين، وفخور، ومدافع، ومقاتل، ووفي، ويمكن الثقة به ما لم يكن هناك حكم مستبد. لذلك كان قدوم قائدهم إدريس بيتلسي هذا على السلطان في وقت ينشغل فيه بتعيينات جديدة وتغييرات في الجيش.

الأحد 11 رمضان 920

حدث تطور لم يكن في الحسبان هذا اليوم، كنا نعسكر في مرج غوركين في قرية مرقوم قرب طرابزون، وكان الهواء عليلاً، لكن الجيش كان في استراحة مبكرة بأمر من السلطان بسبب صيام أكثر الجند، وكانوا قد بدأوا بتحضير موائد الإفطار، عندما بلغ السلطان خبر ظلم الجنود للرعايا المستأمنين في قلعتي بايبورت وكيغي عن طريق مبعوثين أوفدهم وجهاؤها.

وكان خبر عزل الوزير الأعظم أحمد هرسك زاده باشا والوزير الثاني أحمد دقاقين زاده باشا بسبب إهمالهما، يتردد صداه في الخيام. وكنا مستائين، ولم يكتفِ بعزل هرسك زاده، بل لكمه بقبضة يده القوية لكمة طرحته أرضاً، وأراقت الدماء على وجهه ولحيته التي اصطبغت باللون الأحمر بعد البياض، فخرج من الخيمة باكياً يركض.

حزنا لحاله كثيراً، وهو الذي تولى نيابة السلطان عند فتح القلاع، وقيادة الجيوش، ولم تدم الصدارة العظمى الرابعة طويلاً، برأيي لا بد من أن

يفرح لنجاته من القتل، كان واضحاً أنهما لن يتفقا، لأنه كان كثير الشكوى من كل تصرفات السلطان الصغيرة والكبيرة، ومن لباسه إلى مائدته، وكان السلطان يصبر عليه حفظاً لود أبيه بيازيد الثاني.

الاثنين 26 رمضان 920

اليوم 13 تشرين الثاني بالتقويم الإفرنجي، ونحن في قصر قرية حجيلار، إن تحركنا غداً نكون قد بلغنا نيكصار. كان الجو يزداد برودةً، واليوم ليلة القدر المباركة، والوقت قبيل صلاة العشاء، بدأ القراء والحفاظ بتلاوة القرآن بأمر من السلطان سليم خان، والجميع يحيون هذه الليلة المباركة بالقرآن والذكر والدعاء.

بعد صلاة العشاء، أعاد السلطان الوزير الأعظم أحمد هرسك زاده باشا والوزير الثاني أحمد دقاقين زاده باشا إلى وظيفتيهما، وقرر أيضاً أن يكون محمد باشا الذي يحبه ويجله كثيراً وزيره الثالث في الدولة. وهل يمكن لي ألاّ أفهم كآبة هرسك زاده وهو مثلي سقطت مكانته من قلب السلطان، وأهمل حتى النسيان؟! والوزير الثاني دقاقين زاده كان معارضاً كأكثر الجند لمسير الجيش إلى فارس مرةً أخرى. ولم يكن يتحدث برأيه هذا في مجلس السلطان، بل يبقى كلام مجالسنا الخاصة معاً، فلا أحد يستطيع أن يثني السلطان عن قراره.

بعد صلاة التراويح، ذهبت وحسن جان وأحمد هرسك زاده باشا ودقاقين زاده باشا إلى خيمة السلطان، وقبلنا يده وجلسنا. فأخذ يطيب خاطري، ووعد بأنه سيتصدق بعشرة آلاف فلوري - ليرة ذهبية - للفقراء على روح المرحوم همدم باشا، فاكتفيت بابتسامة. نعم، إنه مبلغ كبير ينتفع به الفقراء، ولكن هل ستحلّ شيئاً من الواقع؟!

حدثنا السلطان طويلاً عن جده علاء الدولة ذو القادر أوغلو - ذو القادر - وعبّر عن استيائه من مواقفه، وتبين أن هذا الأمر يشغل باله كثيراً في هذه الأيام. كيف يترك الجد الذي يبلغ السادسة والستين من عمره حفيده وحيداً في مواجهة الشاه إسماعيل؟ ولم يكتفِ بذلك، بل استمر على سياسته الموالية للمماليك، وهذا ما لا يفعله أب مع ولده، ولا حليف مع حليفه، ولم يكن أحد يجهل سلوك سليم خان تجاه من لا يفكر إلا بأنانيته ومطامعه الشخصية. وكان من الواجب على أي دولة سنية أخرى كمماليك مصر أن تناصر دولته السنية وهي تخوض حرب بقائها. لكنهم كانوا يخافون من الشاه إسماعيل إلى حدٍّ يجعلهم يفضلون قطيعة السلطان سليم ولو أدى إلى غضبه، لكنهم سيدفعون الثمن غالياً.

الأربعاء 6 شوال 920

وصلنا إلى أماسية، ودخل السلطان إلى قصره في مراسم كبيرة، وسرعان ما بدأت الاستعدادات للموائد الضخمة بمناسبة عودة الخاقان المظفر، وكنا سنبقى هنا إلى الربيع. كان مجلس السلطان هذه الليلة ممتعاً يزيل الكرب عن النفس حتى بدت آثار السفر والحرب وآلامه وكأنها محيت في لمحة بصرٍ واحدة. لكنه في تلك المدينة الكبيرة كانت تدور أحاديث إسطنبول، وربما كان حرص السلطان على عدم ذكر إسطنبول دليلاً على ما سيكون في المستقبل من تغيرات، وربما كان من غير المفيد توقعها الآن، فهناك خمسة أشهر طويلة.

الثلاثاء 25 شوال 920

خرج السلطان في الصباح الباكر إلى ساحة القصر، وقام بتمارينه الرياضية تحت الثلج المتساقط وفي الهواء البارد. لم أكن أرى هذه التمارين مناسبة لرجل بلغ من العمر أربعاً وأربعين سنةً، وعلى كاهله مسؤوليات جسام، وفي السنتين الأخيرتين ابيضت لحيته وشعر رأسه جراء توتره الدائم والمسؤولية التي يحملها على كاهله. لكنه لم يكن يأبه لذلك، بل كان يحتضن الصخرة التي تزن أكثر من ثمانين أوقة (35) ويرفعها عن الأرض ثم يضعها بهدوء. تلك الصخرة التي لا أستطيع تحريكها عن الأرض. كان يقوم بهذا التمرين كثيراً، ويريح نفسه كل عشرين مرةً، فترى بخار عرقه في هذا الجو البارد، وكأنه قدر على شكل إنسان تتصاعد منها الأبخرة.

كان إلى جواره حسن جان كعادته، وكان السلطان يبدو منشرح الصدر يمازحه وهو يقول: "هيا يا أيها السمين المترهل"، ويضحك للخجل الطفولي الذي يبدو على حسن جان، ويقول: "حسناً، فلتحاول على الأقل عدة مرات".

"اعذرني أيها السلطان، فخادمك الضعيف لا يستطيع أن يقوم بهذه التمارين، أنا عاجز عن تحريك يدي في مثل هذا البرد القارس الشديد، لقد غطى الثلج الأرض بثوبه الأبيض الجميل والرياح لن تكون دافئةً، وإنما كالسوط ينزل على جسم الإنسان، ولكنك أيها السلطان لا تأبه لهذا البرد، فلا تعزم عليّ أيها السلطان، فأنا لست مثلك، ولكن جنودك الأبطال ربما يقومون بهذه التمارين". ورفع حسن جان يديه، وكأنه يقول للسلطان لقد استسلمت. فيقول السلطان مبتسماً: "لا بأس يا حسن، لا بأس عليك أيها الصديق". في تلك اللحظة رآني السلطان مقبلاً عليه، كانت عيناه تضحكان وهو يقول لحسن جان: "انظر من القادم". فقال حسن جان بعد أن أصلح

هيئته وعمامته: "تفضل يا كنعان باشا".
فقال السلطان: "تفضل يا كنعان"، فكان كلامه كأيام الطفولة دافئاً، من غير تكلف، ولكنني كنت متوتراً، والأيام التي أمضيتها بعيداً عنه، جعلتني أرتبك، حتى إنني لم أعرف أين أضع يدي، فبعد تلك الليلة المشؤومة، كانت هذه المرّة الأولى التي أدخل فيها إلى قصره من دون أن يطلبني. فلما اقتربت منه شعرت بأنني سأكلمه في أمر خاص، عندما قال: "خيراً، كأنك تريد أن تخبرنا شيئاً".
فقلت: "مولانا وسيدنا السلطان، بعض المسائل إن لم نجد لها حلولاً وهي صغيرة، فسنعجز عن حلها إن كبرت".
فانتبه وقال بكل جدية: "ما هي تلك المسائل؟!".
فقلت: "كأنني أرى لدى الإنكشاريين أموراً تدل على التمرد والانقلاب".
فقال: "أعلم أن أمراً ما يدور بينهم". ثم حمل صخرة جاء بها اثنان من جنده، كانت أكبر من الصخرة التي يتمرن بها بمرتين، فحملها ووضعها خمس مرات حتى تعب، وذهب ليغير ملابسه. ولما دخلنا الغرفة الخاصة، قال السلطان: "لست واثقاً مما ينبغي لي أن أقوم به". وقُدِّم لنا شرابٌ دافئٌ لذيذٌ بأوعية خزفية، وتابع السلطان حديثه: "لقد كان هؤلاء العصاة المتمردون سبباً في قتل أخينا همدم باشا بطيشهم، واستطاعوا أن يسخّروه لغاياتهم، ولم يكتفوا بذلك، بل هاجمونا في الأشكيرت على طريق جالدران، وأمطروا خيمتنا بالنبال والسهام، فهذه طائفة طائشة ومتمردة توجب علينا أن نتعامل معها بمزيج متآلف من السياسة والحذر، فجنود الإنكشارية ضمانة السلطنة العثمانية في مواجهة تركمان الأناضول أصحاب القوة والنفوذ، ومعرفتهم بأنهم ضمانة وجود السلطنة ووحدتها، تجعلهم يتغطرسون هكذا، فلتكن يقظاً وافتح عينيك جيداً يا كنعان باشا، فهناك كثيرون يرونك بعيداً عنا بسبب ما جرى بيننا، لذلك تستطيع أن تتسلل بينهم، وتجمع الأخبار، فإن استطعنا تحديد الرؤوس المحرضة يكون تأديب الباقين سهلاً، إنهم يدركون حاجتي إليهم الآن، فهم يستغلون ذلك في طغيانهم، وسيأتي يوم أصفي فيه حسابي معهم أيضاً".
"إن الوزير الأعظم أحمد دقاقين زاده باشا يتابع هذه القضية أيضاً، ويحقق في الموضوع سراً يا مولانا السلطان".
- "فليستمر في ذلك".
فقال حسن جان: "من الصعب يا سيدنا ومولانا الحفاظ على ودّ هؤلاء وتأليفهم. فعلى الرغم من كل ما وصلوا إليه من متاع الدنيا، فإن موضوع

الطاعة المطلقة صعب عليهم، فمن يظن أنه دائم لا بديل له، يكُن قد وقع في خطأ كبير".
التفت إلي سليم خان وهو يقول: "حسناً، لا أزال أراك قلقاً، كأن هناك كلاماً آخر تريد أن تقوله لنا أيها الباشا".
كنت واثقاً من أن القلق يبدو عليّ، واستأنفت القول بتأثيره الخبيث: "مولانا السلطان، المشكلة الحقيقية عزم قسم من الجيش الإنكشاري على الانفصال بأثقالهم عن معسكر الجيش غداً".
لزما الصمت والسكون تحت وطأة الخبر، وخيم السكوت المخيف الرهيب وكأنه يمتد إلى اللانهاية، ثمّ قال: "هل أنت واثق مما تقوله؟ وهل بلغ جحود هؤلاء المتمردين ونكرانهم للجميل هذا الحدّ؟".
حرت في أمري، ولم أدرِ ما أقوله، فلم يكن جبينه يتعرق من الإكسير الذي يشربه، بل من شدة الغضب، واحمر جلده الأبيض، وانتفخت أوداجه، وتقطب جبينه، واسودّت عيناه كأنهما الفحم. "من يقف خلف هذا الأمر يا باشا؟ يكفيني أن تعرف من يرأس هؤلاء ويديرهم، واطلب مني ما يريده يا صديق العمر. لم أقلدك وزارة حتى الآن، لأنهم يدفعون الثمن غالياً، لكن، ثق بأنني أضعك فوق كل الوزراء".
"مولانا السلطان، لا أعلم رئيسهم، ولكنني علمت أنهم سيجتمعون بعد منتصف الليل في شمال المدينة، يرأسهم ثلاثة أو أربعة من آغوات الإنكشارية، ومعرفتي بالوزراء المتورطين تحتاج إلى وقت، ولا يمكنني أن أتهم أحداً وأتحمل ذنبه في عنقي".
فقال السلطان: "اذهب أيها الباشا وائتني بأسماء. والأمر بعد ذلك سهل. ننصب الكمائن وننتظر وقوعهم في قبضتنا".
- "أمرك موجوب الطاعة يا مولانا السلطان".
خرجت أمشي في ممرات القصر الباردة محافظاً على سكينتي ووقاري، وأحاول أن أكتم في أعماقي رغبة في الركض هرباً إلى اللانهاية، وبلغت بصعوبة القصر الذي يملكه خالص بك من أشراف المدينة حيث أقيم.
كان رأسي متصدّعاً، وجسمي يتعرق ويبرد في غير انسجام من شدة الخوف والقلق، حتى كأن جسمي الضخم تقلص وصار كجسم الولد الصغير، وعيناي الحمراوان كعيني خائن يسترق النظرات، وشفتاي متقلصتين كشفتين جافتين متشققتين مرتعدتين من افتضاح الكذب الذي تسلل منهما، ولساني يضرب بباطن حلقي الجاف، وقامتي كأنها مالت نحو الأمام أرقب في الأفق ما يمكن أن تصنعه يداه الدمويتان، ترى إلى متى سنخوض مغامرات لا تعرف

عقباها مع هذا القاتل المجنون؟ ولكن كان لا بد من ذلك لأن إنقاذ الدولة العليّة كان واجباً علينا. فالشاه إسماعيل لا يقع في الكمين في كل مرة، ولن ينجوَ في كل مرة. في المرة القادمة سيقتلنا الشاه إسماعيل عن بكرة أبينا، ونموت قبل أن نرى إسطنبول مرة أخرى.

الأربعاء 26 شوال 920

قرأنا مع السلطان في صغرنا قصصاً كثيرة تحكي نهاية الخونة كما سيكون في وقتنا هذا، وربما تناقشنا وتجادلنا كثيراً، لكنه لم يذكرني قطّ بهويتي ويعيرني بها، وتقاسمنا أموراً كثيرةً، ولم أكن أظن أن قلعة الروح هذه يمكن أن تنهار في يوم من الأيام وأبقى تحت أنقاضها مقطوع الأنفاس إلى هذا الحدّ، وطبيعتي الحساسة التي لم تستطع قطّ نسيان الماضي ربما كانت تنسج نهايتي. وبهذا أكون قد هيأت بيدي فكرة الانتحار التي ستقودني إلى النهاية الأليمة والتي لم تفارقني منذ مدة. فالسلطان سليم حرك جواسيسه الذين يتقنون مراقبة الأعداء جيداً، وربما راقب حالتي المترددة بعد قتل همدم باشا، وأنقذ نفسه.

كانت خطتنا تقضي باستدراج السلطان إلى المنطقة المكشوفة شمال المدينة لمطاردة بعض الإنكشاريين والإمساك بهم، فيقوم الجيش الإنكشاري المتبقي بالاستيلاء على القصر، وبعد أن نغلق أبواب المدينة ننصب كميناً قريباً من أسوار المدينة لقتل السلطان سليم، ونعلن الشاهزاده سليمان خان سلطاناً مكانه، وأثأر بذلك لهمدم باشا، وأجعل قلعة أماسية قبراً له. لكننا فشلنا بحماقتنا ولم نتمكن من حفظ سرنا، حيث فتح أحمد دقاقين باشا الموضوع مع أحمد هرسك زاده باشا وهو يريد أن يستغل حرصه للعودة إلى مقامه ليكون في صفنا، نعم، هذه الحماقة التي لم يكن لي علم بها كانت سبباً في نهايتنا. وعندما مثلنا في مجلس السلطان، أنكب الأحمق أحمد دقاقين باشا على يدي السلطان ورجليه، يلتمس العفو والرحمة، وظل يحاول استعطاف السلطان الذي صرخ فيه قائلاً: "قم وواجه مصيرك كالرجال الأبطال". حتى نفد صبر السلطان، فأخرج خنجره، وضربه في عنقه، فانفجر الدم على وجهه، وهو ذاهل لا يدري ما حلّ به، حتى خارت قوته ودارت عيناه الزرقاوان، ووقع على الأرض، فسحبه الجنود إلى الجلاد ليفصل رأسه، من دون أن يتمكن من أن يصرخ صرخة واحدة.

ثم التفت إليّ بعينين معاتبتين يقول: "لم تستطع أن تنسى، وكل الأخوة والصداقة بيننا لم تستطيعا أن تنسيك ذلك اليوم، أليس كذلك؟! ألا ترى أن ما تجبرني عليه يقتلنا معا؟!".

قلت بهدوءٍ واطمئنانٍ من تجاوز عتبة المجهول، ورأى راحة السابقين قبله: "بلى، وأسلم أمري، وأحني بعنقي لحالي".
"إذاً، أنت لست نادماً، ولا تزال مصراً على خيانتك لي، فهذه ليست خيانتك الأولى لي، بل كان يجب عليّ أن أذبحك أمام الخونة المتمردين يوم ألاكشيرت يوم هاجموا خيمتنا بالنبال والسهام".
ابتسمت وأنا أقول: "كنت شمعة تشتعل من طرفين، وأموت ببطء بينهما، وكنت نادماً دائماً، وكلما أستيقظ من النوم ونمت أحدق في أعماق المرآة، لكنني لم أكن أجرؤ على النظر فيها إلى وجهي، كان لقائي صديقي همدم باشا الذي قتل مظلوماً يشكل هاجسي، ويدور في خاطري ونظراتي، لم أكن أستطيع الاعتراف بخيانتي له حتى لنفسي التي بين جنبي، فأنا قتلت يوم قتل همدم باشا، فأنا جسد يمشي بلا روح".
أشار السلطان بيده، فخرج الناس وأخلي المكان، ثم اقترب مني وسألني: "ما أهون اتهامك لي، أليس كذلك؟". لم أكن أريد أن أتذكر وجهه على هذه الحال في آخر لحظات حياتي، هذا الوجه الذي ظهرت عليه خطوط الشيخوخة قبل الأوان، ومال برأسه إلى الأمام، وأغمض عينيه. تُرى ما الذي يفكر فيه الآن؟ ثم تابع حديثه قائلاً: "كنت أتمنى أن يكون سفرنا إلى فارس انتصاراً للدولة العليّة بقدر ما يكون انتصاراً لي، ولكنني وللأسف، أفقد أصدقائي الواحد تلو الآخر".
فقلت: "هل يمكن أن يكون النصر الشخصي موضوع بحث في رأيك يا مولانا السلطان؟ ألا يفقد النصر معناه أحياناً عند ابن آدم الذي تتلطخ يداه بهذا القدر من الدماء؟ قتلت أباك، ثمّ أخاك، ثم أولاد أخوتك، ثم أصدقاءك، وستقتل الجميع، حتى تملك الكل".
امتلأ وجهه غيظاً وغضباً وقال: "ألم تعلم أيها الكلب أن والدي مات بأجله ولم أقتله، لماذا لا يصدقني أحد؟"، ثم تغيرت نبرة صوته فجأةً، وقال بهدوء: "أنت لا تستحق شيئاً، لأنني عندما كنت أمزق نفسي وأحملها ما لا تطيق من أجل قومي وملتي، كنت تظن أنها مجرد أطماع شخصية للسلطة، أليس كذلك؟ وأنت تعلم يقيناً أنني لو لم أستولِ على السلطة، لكانت الدولة الصفوية الآن تعد أيامها للاستيلاء على الأناضول، وأن هذه السلطة لو بقيت في يد إخوتي الذين لم يعرفوا حق المسؤولية كما أراد أبي، لضاعت الأمة وتشتّتت"، ثم أضاف بأعلى صوته: "أنت كاذب، أنت مجرد خائن، أعمى الانتقام بصره، ولكنك ذكي لأنك تريدني أن أقع فريسة تأنيب الضمير. وأريد أن أخبرك شيئاً؛ إنني سأترك لولدي مملكةً عظيمةً

قبل أن أموت. أقول لك هذا ليطمئن قلبك، وهموم الدولة التي أجمعها في قلبي والعبء الذي أحس بوطأته في أعماقي، ربما تدفعني لأحسد في بعض الأحيان الرجل الذي يأخذه الجلاد ليقتله، فتعب الجسد يزول بالاستراحة، لكن تعب النفس لا يزول إلا بخروج الروح رويداً رويداً". شعرت بألم في خاصرتي وهو يقول: "هذا آخر ما أستطيع تقديمه لك يا أخي". فإذا بالألم يمتد من الأمعاء إلى المعدة، وأضاف: "لا تشغل بالك بامرأتك وابنتك فإنهما سترثانك، وستعيشان حياة مرفهة".

ثم نادى الحرس وهو يقول: "خذوه واسجنوه في خيمته، وكرمى لوده القديم، دعوه يتمّ آخر واجباته، وعند الفجر اضربوا عنقه". وبينما كان الجلادون يسحبونني خارجاً، تمكنت من النظر إلى الوراء، كان السلطان واقفاً، وبيده سيخ طويل مضرج بالدماء، كنت سأموت مرةً واحدةً، لكنه سيبقى وحيداً ليموت كل يوم مئة مرة". في ساعات الليلة الأخيرة، تناهى إلى سمعي صوت الحفر في المقبرة، فصلاة الجنازة عليّ وعلى أحمد دقاقين زاده باشا ستُقام بعد صلاة الظهر، ولن نُذكَر بعد ذلك على وجه الأرض. تُرى ما الذي يفعله السلطان في هذا الوقت؟ وكم سيتحمل تلك الذكريات الأليمة في قلبه؟

كان الدم النازف من ظهري قد تخثر مكانه وتوقف، تاركاً مكانه لألم خفيف، لقد جرحني السلطان سليم بسيخ مسموم. سم من ذلك النوع الذي يمنحني جرأة ويُذهِب عني الخوف ولو إلى حين، وأعلم أنني لن أكون على قيد الحياة أكثر من أربع وعشرين ساعة. سأضع دفتري الآن على فراشي، وأصلي ركعتين، ثم أتفرغ قليلاً للتفكير في امرأتي الشابة أدونيا، وابنتي الصغيرة، وربما في المحيط الجميل الذي تمنيت أن أراه في حياتي، مياهه العميقة بالملح والطحالب والسلام.

III

تحرك السلطان سليم خان في ربيع عام 1515 مع جيشه الذي لا ينتهي تذمره، وهو يدرك أن الصعوبات التي كانت تعيق حملته هذه المرة إلى فارس قد أزيلت. إنه يريد الآن تأمين حدوده الشرقية والجنوبية الشرقية قبل العودة إلى إسطنبول، فبادر في البداية إلى المسير إلى قلعة كماه التي تعتبر نقطة الحماية الأولى للصفويين، فسقطت في 19 أيار 1515 بهجوم قصير بين الظهر والعصر من المدفعية التي يقودها الفلاحون العزب، من دون الحاجة إلى تدخل الإنكشاريين، لكنهم طالبوا - بالرغم من تحذيرات السلطان - بحصة من الغنائم مساوية لحصة المهاجمين، فرضخ السلطان

لمطالبهم مضطراً.
لم يستطع أحمد هرسك زاده باشا أن يخالف سوء طالعه، ويبقى في الصدارة العظمى أكثر من بضعة شهور بعد إعدام أحمد دقاقين زاده، بعدما يَئِس السلطان سليم من ذلك العجوز الذي لا يستطيع السيطرة على الإنكشارية، وبقي منصب الصدارة العظمى شاغراً عدة شهور.
تولى بنفسه أمر الجيش الذي اضطرب استقراره وعاد إلى سيواس في 28 أيار، وبالرغم من حديثه المطول، لم يتمكن من إحداث التأثير المطلوب في جيش متعب فكرياً ونفسيًّا. لكنه كان مصمماً على محاسبة جده علاء الدولة وقد بلغ السابعة والثمانين، فرفع تعيينات الجيش وجوائزه. وسيّر في 5 حزيران 1515 قوة من عشرة آلاف مقاتل من النخبة على رأسها الخدم سنان باشا وقد عينه صدراً أعظم، لقتال علاء الدولة. وانضم إليه في الطريق شاه سوار أوغلو ابن أخ علاء الدولة - الذي عينه حاكماً على سنجق ذو القادر - مع ثلاثين ألف مقاتل.
يوم الأربعاء 13 حزيران، أُلقِيت رؤوس علاء الدولة وأربعة من أبنائه وثلاثين من قادته مغموسة بالعسل في أكياس جلدية أمام سرادق السلطان. وكان علاء الدولة بوزقورت بك قد سقط في أرض المعركة ببطولة وهو يقاتل دفاعاً عن استقلاله، وبعد ذلك لم يعد للصفويين حدود مجاورة للمماليك.
بهذه الحملات توسعت الدولة نحو الشرق والجنوب 212 ألف كم2، وارتفعت الواردات بسبب التحكم الكامل بطريق الحرير إلى أضعاف مضاعفة، واعتبر الجيش العثماني أعظم قوة برية في العالم.
كُتِبَت رسائل الفتح السلطانية، وأُرسِلت مع أسرع سعاة البريد، كما أُرسِلَت رسالة مرفقة برأس علاء الدولة بوزقورت بك، إلى سلطان مصر قانصوه غوري في القاهرة، وكان لهذا الأمر دلالة لا تخفى. ويوم الثلاثاء 26 حزيران تحرك الجيش المظفر قافلاً من سيواس إلى إسطنبول.
(*)
من مذكرات حسن جان:
الثلاثاء جمادي الثاني 921
خرج السلطان سليم الذي لا يحب مراسم الاستقبال من معسكر الجيش في موقع كبزة، خفية بين جماعة من جنده، وركبوا من ميناء ديل في سفينة شراعية متجهين إلى القصر، وكان ذلك أمراً محيراً. وعندما كان الجيش يدخل المدينة من طوب قابي في اليوم التالي في مراسم استقبال عظيمة،

وبينما كانت المَهتَر (36) تؤدي المراسم، والطبول تقرع، والأدعية الجماعية تقرأ احتفالاً بالعودة المظفرة لهذا الجيش، وبينما كانت عمائم الوزراء وأكتاف القادة تغطيها الورود المنثورة، كانت العيون تبحث عن السلطان سليم خان.

دخلت الفرحة إلى قلوب الجميع صغاراً وكباراً. ولجأوا إلى المساجد مسرورين يقرأون ختمة جماعية للقرآن، ويسجدون شكراً لله على هذا اليوم العظيم، لأنه من الأيام التي لا يعيشها الإنسان في حياته إلا قليلاً. كان المداحون يدورون بين الناس، يقصّون عليهم أنباء ذلك الانتصار العظيم، بأدق تفاصيله، وكأنهم كانوا في المعركة معهم، علاوة على الرجال الأقزام الذين يملأون مجالس الناس فرحةً وسروراً بأقوالهم وحركاتهم وتقليدهم حركات الجنود الصفويين وهم يهربون من المعركة، ونشرت الموائد العامرة بشتى أنواع الأطعمة، وعزف العازفون في الحوانيت والشوارع، فالجميع فرحون ومنتشون إنه يوم عظيم. عندما اكتمل دخول الجيش من باب المدينة، دهش الناس من عدم وجود السلطان، فأخذت أشرح والوزراء للناس عن تواضع السلطان؛ حقاً إنه من أعظم السلاطين العثمانيين، كثرت في زمانه الخيرات والبركات، وعلى الرغم من كونه صلباً لا يعرف التنازلات، لقد كان متواضعاً، إلى الحدّ الذي يمنعه من مشاركة الناس واختلاطه معهم في مثل هذا اليوم العظيم.

الخميس 29 جمادي الثاني 921

بعد التحقيقات المتتالية ظهر باقي المحرضين في تلك المشكلة الأليمة، وهم: القاضي عسكر ومسؤول الختم تاجي زاده جعفر جبلي زوج تاجلي هانم (زوجة الشاه إسماعيل التي وقعت أسيرة)، والوزير الثاني إسكندر باشا، ورئيس مربي كلاب الصيد بال يَمَز عثمان آغا، وأُحضِروا إلى مجلس السلطان، فسأل السلطان جعفر جلبي: "ما حكم من حرض جنود المسلمين على عدم طاعة سلطانٍ مسلم؟!". فقال جعفر جلبي بكل سذاجة: "إذا ثبت ذلك فحكمه الإعدام". فقال السلطان: "لقد حكمتَ على نفسك بنفسك". فأخذ الجلادون هؤلاء، وجعلوهم جثثاً هامدةً أمام دهشة أعضاء ديوان الهمايون (37) ، بعدما حسبوا أن المشكلة طويت باعتذار قادة الجيش الإنكشاري وطلبهم العفو من السلطان عما جرى في تلك المشكلة الأليمة، وقبول السلطان اعتذارهم، وضمه الجند إلى صدره.

الأربعاء 11 شعبان 921

أرسل قانصو غوري مبعوثه مغول بك في رسالة يظهر فيها نياته الطيبة

للسلطان، ويهنئه على فتح ديار بكر أكبر قلعة للصفويين في الأناضول، وقد تم الفتح بجهود العالم الكبير إدريس بيتلسي ومن دون إراقة دماء، فقد انضمت العشائر الكردية كما حصل في جالدران إلى جيش السلطان، فاجتمع عشرة آلاف جندي عند باب ديار بكر، وانضموا إلى قوات أمير أرزنجان محمد باشا وأمير أمراء أماسية شادي بك. فأدرك جنرال الشاه إسماعيل الكبير قره جان أوسطجه أوغلو أخو المتوفى محمد خان أوسطجه أوغلو خطورة الموقف في ديار بكر؛ فانسحب من المدينة، وصار مظفر بيقلي محمد باشا أمير أمراء ديار بكر.

الاثنين 8 رمضان 921

كان السلطان سليم خان يتمشى في دهاليز وصالات قصره بجسده، لكن عقله يحلق في سماء الحروب والمعارك، ولم تكد تمضي ثلاثة أشهر على رجوعه حتى ضاق ذرعاً بالقصر، فطاقاته وروحه المتوقدة ليس لها حدود، ولا أحد يستطيع أن يفهم ما يدور في عقله، ولولا لعبة الشطرنج التي ألعبها معه، لما كانت له أيّ صلة بالناس، حتى زوجته السلطانة حفصة التي يغيب عنها كثيراً لا يهتم بها ذلك الاهتمام الكبير عند رجوعه، والغريب أنه ليست له زوجة غيرها، أما الجواري فإنه يعتبرهن إضاعة وقت لا أكثر. ولم يكن يريد أن يقابل أحداً خارج مصالح وعلاقات الدولة، وعينه لا تمل القراءة، وجسده لا يمل التدريب، ولا يرضى عن خطأ مهما كان صغيراً، وطوره هذا كان مزعجاً لأصدقائه وأقاربه، لكنه كان حافزاً لهم على الدقة والانتباه والحذر الشديد.

عندما كنت في قصر الشاه إسماعيل قديماً كان يقيم مجالس شورى وسمر، وكنا نتحاور فيها حول شخصية السلطان سليم وصفاته، فقال إسماعيل شاه ذات مرة: "إن السلطان سليم يتيم ومسكين، فهو كطفل وحيد ليس له قريب في الدنيا، ولا يجلس مثلنا في سمر، ولا يتمتع بملذات الدنيا، بل ينظر إلى الدنيا بجدية تامة، ويحكم قومه وجنده بالحديد، وهذا مفتاح نجاحه، وهو مفتاح نهايته". لم أفهم حينها كلام الشاه إسماعيل، ولكنني أفهمه الآن جيداً، فجديته وعصبيته أنهكتاه أولاً، فهذه العصبية أهلكت في فترةٍ قصيرةٍ، أصدقاء طفولته همدم باشا الذي لم أتشرف بمعرفته، وكنعان باشا الذي صاحبته ولم أرَ منه إلا الخير، غاب أصدقاؤه الواحد تلو الآخر، وأضناه غيابهم. إنه يحمّل نفسه فوق طاقتها، تجرأت وقلت له ذات يوم: "حرام عليكم تحمّلون نفسكم كل هذا الهم يا سلطاني، فتوكّلوا على الله الذي يعلم حجم مسؤولياتكم، ويعلم طاقاتكم أكثر منكم، فخطأ كنعان باشا

كان هذا، ولم يستطع أن يضع نفسه مكانكم". فلم يجبني ولو بكلمة واحدة.
إنه يتابع كل التفاصيل، ويحمل نفسه مسؤولية الأخطاء كلها، حتى إنني لا أدري متى يجد الوقت ليحمّل نفسه مسؤولية كل هذه الأخطاء. وكان يسدل على هذه الشدة حجباً من اللين للناس والعطف عليهم، ولا بد لي من أن أُبيّن هنا أن كنعان باشا كان يعرف فيه هذه الصفة، وقد أخبرني بذلك عند قدومي الأول إلى السلطان. كان يخاف أن يُرى ضعيفاً، أو أن يتم التعامل معه على أنه ضعيف.
إنه لمن العجيب هذا الصباح أنني رأيته سعيداً كما لم أره من قبل قطّ. عندما دخلت عليه بعد صلاة الفجر، رأيته كعادته لم ينم من الليل إلا قليلاً، فلما اقتربت منه، سألني بصوت يملأه الكدر: "أين كنت؟". فانحنيت برأسي خجلاً وقلت: "كنت نائماً يا مولانا السلطان، فلم أستطع أن أستيقظ لصلاة الفجر".
- كنت نائماً طيلة الليل؟!
- مع الأسف نعم!
- إذاً، حدثني عن الحلم الذي رأيته.
- فقلت بعد أن فكرت جيداً: "لم أرَ الليلة أي حلم يا مولانا السلطان".
- كيف يكون ذلك؟! رجل ينام طيلة الليل ولا يرى مناماً! تذكر جيداً، لا بد من أن تكون قد رأيت.
- لا والله ما رأيت يا مولانا السلطان.
- عجيب هذا الأمر.
ثم أرسلني إلى رئيس البوابين حسن آغا لأحضر له الأوراق اللازمة التي تركها عنده ولي العهد الشاهزاده سليمان خان.
كان حسن آغا في الفناء الثاني للقصر، غارقاً بين أكداس من الأوراق المصقولة والتي تفوح منها روائح عطرة. كانت الأوراق آبادية تصنع في مدينة دولت أباد في الهند من لحاء شجر الخرنوب، رائحتها طيبة فواحة محملة بذكريات الماضي الدافئ الجميل.
لم يكن حسن أفندي مرحاً كعادته، ورأيت على قسمات وجهه آثار التفكير والاكتئاب، ورأيت الجدية في كل تصرفاته، وعندما أردت أن آخذ تلك الأوراق التي أتيت من أجلها، وجدت يديه ترتجفان. فقلت له: "ما بالك لا أراك اليوم طبيعياً، ما الذي حصل؟!". فسكت لفترة، ثم رفع حاجبيه الكثّين قائلاً: "لقد رأيت اليوم مناماً عظيماً، وأنت أول من سأقصّه عليه".

- إذاً، فاتبعني إلى السلطان.
- ماذا تقول يا حسن جان؟!
- سألني السلطان منذ الصباح إن رأيت الليلة مناماً؟ وعندما أجبته بالنفي، استغرب. والآن تخبرني بمنامك، واسمك حسن كاسمي، فلا بد من وجود حكمة في هذا الأمر يا حسن آغا.
وبالرغم من ممانعته، سحبته معي مسرعاً إلى غرفة السلطان.
عندما دخلنا كان السلطان يجفف وجهه ويديه بالمنشفة التي مدها له كبير الخدم، وكان عنده محمد آغا رئيس الخزندار، يجلس أمام السلطان بجسمه الضخم المهيب، يكسوه قفطان لازوردي جميل، وعمامته البيضاء الكبيرة تميل إلى الوراء قليلاً، كان العرق يسيل أنهاراً على جبينه ووجنتيه وهو يجيب عن أسئلة السلطان. فقال السلطان بعد أن رأى توترنا وارتباكنا: "ما بك يا حسن جان طلبت منك إحضار الأوراق، لا أن تأتي بحسن آغا".
فقلت: "يا مولانا السلطان، المنام الذي سألتني عنه رآه حسن آغا، ولم أره أنا، واسمانا واحد".
فقال السطان مبتسماً: "هيا حدثنا عن المنام الذي رأيته يا حسن آغا".
فقال حسن آغا بصوت مرتجف بعد أن هدأ قليلاً: "سيدي، كنت أقرأ القرآن الكريم في الليل فأخذتني عيني ونمت، فرأيت نفسي في صحراء أحرس خيمتك في ليلة مظلمة اختفى قمرها خلف الغيوم، وهبت رياحها الباردة. فإذا بي أرى أربعة فرسان بيدهم رايات خضراء، يقبلون باتجاهي، فلما اقتربوا أردت أن أوقفهم، وأسألهم؛ لولا أنني رأيت حوافر خيولهم السوداء لا تدوس الأرض، وتملكتني رعشة الهيبة التي كانت على وجوههم، وانهمرت دموعي من النور الذي يشع منهم، والدفء الذي ينبعث من أعينهم، فاستحييت أن يسأل مثلي هؤلاء الكرام ويستجوبهم، وكان يليق بي ألاّ أنظر إلى هذه الوجوه، وأن أنحني وأقبل أيديهم، فسألوني عن السلطان فأجبتهم أنه نائم. فقال الفارس الذي في المقدمة: لا بأس لا توقظه، ولكن أخبره في الصباح بقدومنا نحن أصحاب سيد المخلوقات محمد عليه الصلاة والسلام، وبأن رسول الله صلى الله عليه وسلم يسلم عليه، ويخبره بأن خدمة الحرمين الشريفين أعطيت له. قالوا ذلك، ثم ابتعدوا عني شيئاً فشيئاً، كانت راياتهم تضيء أمامهم وخلفهم، فسألت نفسي: مَنْ هؤلاء الصحابة؟ وما أسماؤهم؟ فإذا بصوت يقول: ألم تعرفهم؟ كان في مقدمتهم أبو بكر، وبجانبه عمر، ثم عثمان، وعلي رضي الله عنهم".
استمع السلطان إلى هذا المنام مائلاً برأسه إلى الأمام، ثم اتجه إليّ قائلاً

بصوت يرتجف: "أعلمت يا حسن جان، نحن لا نستطيع أن نتحرك إلا بأمر، وقد جاء الأمر الذي كنا ننتظره، وسنخرج إن شاء الله في مطلع الربيع القادم".

الأربعاء 1 شوال 921

عقب صلاة الفجر، وبينما نحن ننتظر صلاة العيد؛ سمعنا جلبة بين المصلين، وإذا بحرس الباب يمسكون برجل فدائي صفوي. وبعد صلاة العيد، وقف السلطان سليم في باب السعادة يتقبل تهاني العيد من الناس، ولم يجلس على عرشه المجهز المزخرف من أجل العيد، وبعد أن تبادل الناس تهاني العيد مع السلطان وفي ما بينهم، وبعد الأدعية، افترق الناس، ورجع سكان القصر وكبار رجال الدولة إلى مساكنهم، وبينما هم كذلك؛ كان كتخدا الباب (38) نوري جلبي يمد يده ليعطيني مغلفاً وجدوه عند الفدائي الصفوي الذي أعدم، وهو يقول: "لقد اعترف بأشياء قبل موته، منها أن إسماعيل شاه باع الأسرى المسلمين لقطاع الطرق، وبأرخص الأسعار، لأن دماء المسلمين رخيصة بحسب رأيه، وما كان شراء قطاع الطرق للأسرى من أجل التجارة، بل من أجل تعذيبهم والتنكيل بهم. ولشدة بغضهم للمسلمين قاموا بصلبهم على الطريقة الفرنسية على ألواح خشبية، وثبتوهم عليها بمسامير دقت في أيديهم وأرجلهم، فماتوا جميعاً على هذه الحالة من كثرة النزف".

اقشعر جسدي مما سمعت، فقلت متمتماً: "النزف ليس سبباً للموت".

قال نوري جبلي: "إذاً، ما هو سبب الموت؟".

فقلت وأنا أحدق إلى البعيد: "لا يكون النزف سبب الموت عندما يصلب الرجل على لوحة خشبية كما سمعت من مبعوث البندقية عندما جاء إلى إسماعيل شاه، بل السبب هو الصدمة والاختناق، لأن الرئتين تكونان مشدودتين في حالة الصلب، وإذا أراد المصلوب أن يتنفس، فإن الآلام التي تنبعث من يديه ورجليه المثبّتة بالمسامير، تمنع الرئتين من العودة إلى حالتهما الطبيعية للتنفس، وبذلك لا يستطيع أن يتنفس، فيموت خنقاً نتيجة هذه الآلام الشديدة".

فلما سمع نوري جلبي ذلك، ابتعد عني والحيرة تأكله.

عندما دخلت على السلطان وهو يشرب حساء اللحم بشراهة لم أعهدها من قبل، قال عندما رآني: "ادنُ واشرب معنا هذا الحساء، فاليوم عيد"، ولم أتكلم حتى أنهينا الطعام وشربنا الشراب، حتى لا أعكر مزاجه، ثم أعطيته الرسالة، وأخبرته بما قال نوري جلبي، فهز رأسه بغضب، ثم جمدت نظراته في الفراغ لحظات وهو يفكر، ثم أخذ الرسالة وبدأ يقرأها، فظهرت على

وجهه ابتسامة مؤلمة، فسألته: "خيراً إن شاء الله يا مولانا السلطان؟". فلم يجبني، وأعطاني الرسالة، ثم اتجه إلى النافذة التي تطل على البحر، وكان في الرسالة شعر إسماعيل شاه لتاجلي هانم التي وقعت أسيرة، وترملت بعد أن أعدم زوجها جعفر جلبي. وبالرغم من أن السلطان سليم أعطاها بيتاً كبيراً، وخدماً وعربة، ومنحها خمسة آلاف ليرة ذهبية، وعيّن لها راتباً يكفيها معيشتها، فإنه لم يكن يريد إطلاق سراحها من دون مراقبة.
لقد أراد الشاه إسماعيل علاوة على اغتيال السلطان سليم، إيصال شعره إليها.

26 اشتهر ذلك العصر بالرباعيات ، كما في هذا الشعر ، والرباعيات تتميز عادة بأن كل رباعية تحمل فكرة مستقلة .

27 المبارك .

28 أي المخصي .

29 أول سلاح ناري محمول تم استخدامه للمرة الأولى في القرن الخامس عشر في فرنسا .

30 السباهي : فارس من الفرسان يقطع السلطان كلا ًّمنهم أو من ينوب عنه من الولاة والحكام؛ أرضا ً بمساحة تقدر بإنتاج سنوي يبلغ (30.000-20.000) أقجة (نوع من مسكوكات النقود الذهبية والفضية في ذلك العصر بوزن معين)، لقاء خدمات يؤديها أولئك من الخيول والجنود في الحروب ، والعناية بالمسافرين وخيولهم وغير ذلك في حالة السلم ...

31 نهر من أنهار أرمينيا الحالية .

32 المس َل ّ ِم هو الموظف الذي يعينه الوالي لإدارة أرض (= تيمار).

33 لم أجد مثل هذا النص .

34 هذه الكلمة مشهورة عند العثمانيين ، ويكتبونها في لوحات الخط ، وتعني (لا شيء).

35 الأوقة : 1283 غ

36 الفرقة الموسيقية الخاصة بالمراسم .

37 السلطان .

38 أمين الباب المسؤول عن البوابين ومراسم الاستقبال .

الفصل السادس:
حاكم الدنيا
I
من خلال التوازن بين الأضداد والمتقابلات، يمكن للسلطة أن تبقى إلى الأبد.
جورج أورويل (رواية 1984)
بحلول ربيع العام 1516، أصدر السلطان سليم أمره إلى الجيش بالاستعداد للحملة؛ كانت نشاطات إدريس بيتلسي العظيمة مستمرةً، فكان يجمع البيعة للسلطان سليم في إقليم جنوب شرق الأناضول. كان التقدم مستمراً في الإقليم من دون إراقة قطرة دم واحدة لأن الكرد السنّة قبلوا بحكم ياووز. وبعد انتصار أمير أمراء ديار بكر بيقلي محمد باشا على قره خان أوسطجه أوغلو في قوج حصار في 4 أيار 1516 تم القضاء على المواقع المهمة من المقاومة الصفوية في شرق الأناضول. قتل قره خان أوسطجه أوغلو في هذه المعركة، فكان أحد أكبر خسائر الصفويين. وبعد الانتصار في قوج حصار سقطت قلاع كثيرة، تباعاً، وكانت قلعة بيرَجِك المركز التجاري الهام على الضفة الشرقية لنهر الفرات، وأورفة وسيرت، من أهم هذه القلاع. ولم تبقَ سوى قلعة ماردين التي ستقاوم سنة أخرى.
في تلك الأيام أيضاً، أرسل قراصنة البحر المتوسط المشهورون، وحماة المسلمين في شمال إفريقيا الشجعان بإمرة القائد خير الدين بربروس، هدايا مؤلفةً من أسطول مكوّن من ست سفن محملة بالغنائم. كان قائد الأسطول الرئيس بيري ابن أخ البحار التركي المشهور الريس كمال.
استقبل سليم خان الرئيس بيري استقبالاً خاصاً، وأهداه سَيفَين مرصّعين بالألماس، وقال قوله المشهور: "ليتوشح أحد السيفين معلمي أوروج، والآخر معلمي خير الدين، وليغزوَا العدو. أدعو الله ألاّ يخزلهما".
استمر بيقلي محمد باشا في فتوحاته التي استمرت طيلة الربيع، والتي أدخلت البهجة في نفس السلطان، فاستولى على الرقة كمركز لشمال شرق سوريا كلها، واستطاع أن يتغلغل إلى ما بين النهرين، وكان هذا الوضع مثار قلق كبيراً ليس للصفويين وحدهم، بل وللمماليك أيضاً. وفي تلك الأيام، بدأت تدور في الأوساط أنباء عن بدء الجيش الهمايوني بحملة ضد فارس.
قصر المشتى؛ 200 كم جنوب دمشق
(17 تموز 1516م)
كان السلطان قانصوه غوري يختنق بين الجدران العالية للقصر المهيب الواقع وسط الأسوار المدعومة بالأبراج المتبقي من العهد الأموي (39) . كان

يفكر بيأس وقلق في عاصفةٍ رمليةٍ جديدةٍ اقتربت، وبدأ يشم رائحتها، التف بعباءته البيضاء، ومسح لحيته الطويلة، ودار بعينيه الزرقاوين الشركسيتين على ما حوله. كانت الجدران تملأها الزخارف اليونانية من اللبلاب، واللوتس، والغار، وأغصان الزيتون، يرافقها وصلات بأسلوب فارسي خفيف، وتزداد تمازجاً في تصاميم شبكية، كانت تذكر بالأجواء الباردة والجبال الخضراء لبلده الأم القفقاس. كانت الحرارة التي تتسلل من زجاج النوافذ القاتمة ذات الحزام الإجاصي غليظة إلى حدّ يكاد المرء أن يمسك بها.

كان السلطان غوري يتحرك في دمشق وما حولها منذ التاسع من حزيران تاركاً وزيره الأول الأشرف طومان بك نائباً عنه على القاهرة. فاحتراسه اللامحدود الذي تحول عنده إلى كوابيس دفعه للتحرك إلى حدوده الشمالية ليكون مستعداً لصدّ أي هجوم يمكن أن يشنه خاقان الترك الخارق. وأرسل السلطان سليم زيرك زاده ركن الدين أفندي وقره جه أحمد باشا مبعوثين إلى السلطان غوري ليُبَلِّغ أن هدف الحملة كان فارس. واستقبل السلطان غوري المبعوثين بالترحاب وحسن الضيافة، ولم يظهر لهما عدم قناعته، وأن ما يُنقَل إليه ليس إلاّ هراء.

صحيح أن ياووز لم ينهِ حساباته مع الشاه إسماعيل بعد، وكان من الممكن أن يجد فرصة ليعلق مشنقة الزعيم الصفوي الذي لم تنتهِ فترة نقاهته بعد في ساحة تبريز، وعليه، فإن توجهه إلى سوريا ومصر وترك هدفه الأساسي، لا يمكن وصفه إلا بالجنون، ويمكن أن يعرض قواته لخسائر كبيرة، مفوِّتاً على نفسه فرصة تصفية الحساب مع الشاه، فضلاً عن أن الجيش المملوكي واحد من أقوى جيوش العالم، وإعلان الحرب على الجيش المملوكي ذي الكفاءة الحربية العالية جداً، في هذا الفصل من السنة، أقل ما يقال فيه إنه جنون، في الحقيقة، لم يكن ياووز يسعى وراء الانتقام، ففي جالديران خذله جده لذلك سعى للرد بالمثل، فهل كان في حسابه الشيء نفسه بالنسبة إلى المماليك؟ هل كان ساذجاً بسيطاً إلى هذه الدرجة؟

في الحقيقة، كان هناك تبادل للمراسلات بين قانصوه وإسماعيل، وكان توحيد جهودهما هو النقطة التي اتفقا عليها أياً كانت وجهة هذه الحملة، ولو تمكنا من تشكيل خط دفاع مشترك، لأجبرا ياووز على الانكماش إلى أواسط الأناضول.

بالرغم من أن إسماعيل كان يولي هذا الاتفاق أهمية، إلا أنه لم يكن يتجرأ على اجتياح الأراضي العثمانية والدخول في صراع جديد بعد الضربة

الكبيرة التي تلقاها في جالديران، وبعد قضاء ياووز على ذو القادر، وعندما أراد أن يقلد حسن الصباح (40) ، وأرسل اثنين من فدائييه لاغتياله، كان نصيبهما الفشل. لقد فقد الشعب وكبار رجال الدولة ثقتهم بإسماعيل، وكان هذا سبباً في تخبطهم في إنجاز مهامهم، أو في التخلي عنها بسهولة.

أيقن السلطان العجوز الذي يبلغ السادسة والسبعين من عمره، أن الأمر بات على عاتقه وحده. لم يكن يطمئن لقادته الذين أقسموا له أغلظ الأيمان على الوفاء له، وكان يشعر بأن بعضهم، وعلى الأخص أمير أمراء حلب، اتفقوا على التعاون مع ياووز، وكانت تبلغه الأنباء عن أمراء الحدود أنهم يأتون أفعالاً تضر بالاتفاق مع الشاه إسماعيل، وذلك مقابل الهدايا والأموال التي يتلقونها من ياووز. كان السلطان غوري يعرف بموجب تجاربه ألاّ يثق تماماً بأحد في مراحل مضطربة كهذه.

كان برفقته للمرّة الأولى الخليفة العباسي المتوكل الثالث وعلماء مصر الكبار. ومهما حاول السلطان قانصوه غوري أن يتظاهر بمظهر المسرور، فإن اضطرابه لم يكن يخفى عن العيون. جلس في مجلسه في تلك الليلة كما يجلس عادة، وتنفس بعمق، وارتشف رشفة من شرابه المثلج، وتحدث طويلاً إلى مسامريه، ولم يستطع إخفاء امتعاظه عن أحد: "إننا نعلم جميعاً أن الهدف الأساس من تقوية أسطوله في البحر المتوسط ليس القراصنة البرتغاليين، فالبرتغاليون هم المشكلة المشتركة لدول المنطقة كلها، وعلى الرغم من المبعوثين الذين أرسلناهم مرات عديدة أصر على عناده، واحتمال استخدام ياووز ذلك الأسطول بقصد نقل الأرزاق والسلاح ضدنا كبير، فقد نقض ياووز عقد الصداقة الذي بيننا حين أرسل إلينا رأس علاء الدولة مع رسالة الفتح، لأن علاء الدولة بوزقورت بك كان تابعاً لنا، وبالرغم من الخلافات القديمة بيننا كانت أراضيه بمثابة أراضينا. إن سيطرة ياووز على ديار بكر، واستيلاءه على خربوط في شهر آذار من هذا العام، لم يتركا لنا خياراً، ولم يعد السكوت عما يحدث ممكناً. إضافة إلى أن وفاة قره خان أوسطجه أوغلو في قوج حصار تشكل مسألة هامة بالنسبة إلينا. لقد كان رحمه الله من أبرز قادة إسماعيل، وبالتالي من قادتنا. وإسماعيل لم يعد ليتجرأ على خوض حرب جديدة بعد وفاة قره خان، وهناك أمر ربما يتجاوز كل هذا خطورةً، فالنجاحات التي حققها العثمانيون على الصفويين لقيت ترحيباً في القاهرة، ولم تعد القاهرة وحدها، بل الشعب المصري كلّه يحترم ياووز ويحبه، ويقيم الاحتفالات بفتوحاته. وعلى أيّ حال، سنتحرك غداً إلى حلب، وإذا كانت تصرفات أمير أمراء حلب خير بك في الفترة

الأخيرة مشبوهة، فعلينا الانتظار حتى تعود المياه إلى مجاريها".
كانت لفته البيضاء كبيرة يبلغ طولها عدة أمتار، ويتدلى طرفها حتى منتصف ظهره، وكانت حواشي جبته القطنية البيضاء ترفرف بفضل الهواء الحار الذي يدخل من النوافذ، عندما كان الخليفة المتوكل يقول: "إن ياووز يحلم بدولة متوسطية، وشرق أوسط بضم دولتنا الممتدة من سوريا، وفلسطين، وشبه الجزيرة العربية، ومصر، إلى شرق شمال إفريقيا. إنه يثق بنفسه أكثر من اللازم، وتفوقه على الشاه إسماعيل رفع من شأنه. والآن يسعى ليكون الحاكم الوحيد، لا للمسلمين السنة فقط، بل لمسلمي العالم كافة".
قفز نائب دمشق صباي، وفي عينيه المنجليتين وبشرة وجهه البيضاء شرراً، وقال: "خرج الوزير الأعظم خدم سنان باشا على رأس جيش يبلغ عدده أربعين ألفاً، في السابع والعشرين من نيسان". صمت قليلاً محاولاً أن يستجمع أفكاره، وهو يعلن في أعماقه الغضب على جسمه الذي يغرق في عرقه داخل قفطانه الأخضر البهي، ثم أضاف: "وسينضم ياووز بقواته إلى الباشا. لا بد من أن منعنا سنان باشا من عبور دجلة لدخول ديار بكر قد أغضب ياووز كثيراً، وفي هذه الحال يمكنه أن يعتبر وجودنا في المنطقة كمعرقلين سبباً للحرب. لكنه بالتأكيد لن يكشف عن هذا حتى اللحظة الأخيرة، إنه قائد ذكي يعرف حيل الحرب جيداً".
لاحظ السلطان غوري العرق الذي يسيل من تحت قبعته المزينة بالزمرد والياقوت، فأخرج منديله، وقال: "إن ياووز الشاب يخاطبني في رسائله بقوله والدي المحترم، ويتلطف كثيراً عندما يخبرني بحملته على فارس، ويلحّ على عودتي إلى القاهرة. وتقدمنا إلى حلب سيثيره لشن الحرب علينا، ورغم ذلك فلا أرى وسيلةً أخرى تردعه عن الحرب غير هذا. فما هو رأيكم أنتم يا نوابي الأعزاء ويا قادتي وشيوخي؟ هل يستطيع جنود ياووز الذين عانوا من الحرب وتعبوا، أن يصمدوا أمام فرساننا المشهورين الذين ركعت لهم الدنيا؟".
قال صباي: "لقد نجحوا بذلك أمام فرسان إسماعيل". قال ذلك من دون أن يتمكن من إخفاء اضطرابه، فابيضت مفاصل يديه الكبيرتين القابضتين على مقبضَي سيفيه عند خاصرتيه.
قال السلطان غوري بتصميم كبير: "ذلك يحدث مرة، فكما استطاع أبي وجدي قطز وبيبرس أن يقيما سداً لا يمكن تجاوزه بالأجساد الفولاذية أمام الاستيلاء المغولي، وأنقذا العالم الإسلامي من ذلك الكابوس، كذلك نحن اليوم

نستطيع صد ياووز وجيشه المحتل. كان خطأ إسماعيل الشاب أنه قلل من شأن وحدات المدفعية لدى ياووز. لن نقع في الخطأ ذاته، ولن نهدر قواتنا بتقوية الجناحين مثلما فعل إسماعيل، بل سنركّز على الوسط، ويمكن الاستيلاء على مدافعه وسحقها بضربة قاضية. لن يتوقع هذا، فياووز مدمن انتصارات، ومغرورٌ يرفع أنفه بالانتصار على شاب مثل إسماعيل. يظن أن موقعه عالٍ لا يطوله أحد، لكننا سنثبت خطأه".

وافق مجلس الشورى بالإجماع على ما قاله السلطان.

صحراء ملاطية 28 تموز 1516 م

كان المتحدث الشيخ محمود بك شيخ آل رمضان أوغلو الذي أدى فروض الطاعة قبل يوم واحد، وانضم بجيش تعداده خمسة آلاف من النخبة إلى الجيش العثماني: "بناءً على فتوى شيخ الإسلام علي زنبيللي أفندي، أصبح فرضاً علينا أن نسير على هؤلاء المماليك الذين تحالفوا مع الشاه إسماعيل، وناصبوا العداء لسنّة الرسول والشريعة".

قال ياووز بحدة من دون أن يبالي بالريح الحارة التي تهب من أسفل جدران خيمته المشدودة إلى بعضها بإحكام: "إن قانصوه غوري رجل عاقل وذو فراسة، يظن أننا سكارى النصر، وحمقى بلا خبرة".

قال الحاضرون في المجلس بصوت واحد: "حاشاك يا مولانا السلطان، أستغفر الله!.

"هكذا يظن، وسيحاول ضربنا في الوسط، ولن يركّز على الجناحين كما فعل إسماعيل الذي أضاع وقته الثمين. لكننا لن نقع في هذه الحيلة، ستضرب قواتنا جناحي العدو، وسينسحب المقاتلون كما لو أننا نعود إلى الوسط. سنشغل بذلك قادة قانصوه غوري الذين يهدفون إلى إلهائنا عند الجناحين في آنٍ واحد، محاولين جرنا نحوهم، بانسحابنا سنشغلهم بجني الغنائم فنلهيهم بدل إلهائنا، وبذلك ترتد سيوفهم إلى نحورهم؛ أي إننا سنستخدم سلاحهم ضدهم يا أصدقائي. وسيؤدي هذا الوضع إلى ضياع الوقت اللازم لهم للهجوم على الوسط، وحين تشتد المقاومة سيفقدون جرأتهم، وفي تلك اللحظة سينتشر رجال البنادق عندنا بدعم من المدفعية كالمروحة، ويتقدم فرساننا. سيحيط حملة البنادق بفرسان العدو الذين صدوهم من الجناحين، وتبدأ حركة القضاء عليهم. أما أنا فسأكون بين الجنود، ولن يكون هناك أحد إلاّ ويسمع صوتي ويرى وجهي".

وبالرغم من اعتراض أركانه، إلا أن ياووز اسكتهم جميعاً عندما قال: "إن لم يأكل من يزعم أنه سلطان مما يأكل جنده، ولم يلبس مما يلبسونه،

ولا ينام في ظروفهم نفسها، ولم يصاحبهم في ساحة الحرب، فإن دولته محكوم عليها بالتقهقر والفناء. ليعلم الجميع هذا، وليبلّغه لمن يأتي بعدي".
"أما الأمر الثاني، فهو قلق المماليك وخشيتهم من أسطولنا الذي اقترب من السواحل السورية، وتعسفهم بحق مبعوثينا وحبسهم، ولذلك فلتضرب رقاب من يأتي إلينا من مبعوثيهم، ولترسل رؤوسهم إليهم مع رئيس القافلة بعد حلق شعره ولحيته تحقيراً له. يجب التحدث إلى كل واحد باللغة التي يفهمها. يا وزرائي، ويا أمرائي، ويا قادتي، أعلن اليوم في صحراء ملاطية هذه جهاراً بدء حملتنا على المماليك".
من مذكرات حسن جان:
الجمعة 18 جمادي الثاني 922
بعد بيعة الأميرين رمضان أوغلو وأمير عنتاب أصبح السلطان سليم سلطان ما بين النهرين. أما المماليك والصفويون الذين ذهبت أراضيهم، وقلَّ اعتبارهم في أعين الناس، فقد أصبحوا في حيرة من أمرهم، ولم يبقَ أمام المماليك إلا الحرب مع العثمانيين حتى يتبين من سيكون سلطان عموم المسلمين في الشرق والغرب. يبدو لي أن السلطان قانصوه غوري إن تراجع وانسحب من حلب، فإنه على الأرجح سيفقد سيطرته على الأراضي المباركة أيضاً، وعلمنا أنه جعل الخليفة المتوكل الثالث في صفه، ليبدو بوجود الخليفة الشاب بجانبه بأنه ناصر الحق الأوحد. كان عاقلاً وذكياً يعرف كيف يحشد الناس حوله.
في الليلة الماضية وفي الوقت الذي كانت تنصب فيه خيمة السلطان، التفت إليّ مولانا السلطان سليم مبتسماً وقال: "هيا نتجوّل على الخيل قليلاً"، وأخبرني بأنه كان يتجوّل قبل ذلك مع كنعان باشا وهمدم باشا، وكانوا يتكلمون في جولتهم شتى الأحاديث، بعضها مهم وبعضها ثرثرة لا تقدم ولا تؤخر. كان قربي منه يسعدني بالقدر الذي كان يقلقني ويحزنني.
أوشكت الشمس التي احمرت على الرحيل، بعد أن أحرقت تلك الرمال بسياطها الملتهبة، وأظمأت تلك الأكباد بحرارتها المرتفعة، حتى جف الريق في الفم، والتصق اللسان بسقف الحلق، ولكن لا بأس، يكفيني فخراً أنني أتجول مع سلطان المسلمين. ولم يمضِ وقت طويل حتى وضعت الشمس قبلتها على جبين السماء في وداعها آخر النهار، وتركت وراءها ألواناً زاهيةً من الأرجواني والأحمر والبنفسجي تشع منها الحرارة.
ثم أسدل الليل ستاره على تلك الألوان، وأظلمت الدنيا، فقال السلطان سليم: "إن الدولة التركية المعروفة بدولة المماليك، كانت تسمى في العربية

دولة العبيد أيضاً، فالجيش العباسي الخاص المكون من نخبة من المماليك المعتقين والمقاتلين القبجاق المرتزقة استولى على إدارة الدولة في مصر، وأصبح أيبك مؤسساً رسمياً لدولة المماليك، وأول سلطان لها، وكانت الدولة الوحيدة التي تمتلك بنية منظمة وخطط حرب استطاعت الوقوف أمام زحف المغول".

اهتزت الأرض تحتنا هزة خفيفة ونحن نتكلم، وارتفعت من الشرق عاصفة رملية هوجاء تكونت بعد الاهتزاز، وشكلت دوامةً كأنها تدور عند حوافر خيلنا، فسألني السلطان: "هل هذه إشارة يا حسن جان؟"، فقلت: "أراها كذلك يا مولانا السلطان". فسألني: "إذاً، نهاية من ونجاة من؟". فقلت: "النصر للذي يبتسم الزمان لوجهه، وأراك هو يا مولانا السلطان". ربت بيده على كتفي وقال: "حان الآن وقت الرجوع، واستدار بخيله راجعاً".

الجمعة 3 رجب 922

بعد صلاة الجمعة، أقبل مبعوث المماليك مغول باي إلى بلاط السلطان سليم، ومعه قورت باي ذو العينين الجاحظتين المنجليتين، وقد استاء منه السلطان كثيراً عندما رآه، إذ كان قد أمر بقتل مبعوثيهم رداً على فعلهم، وكان السلطان يرغب في أن يفهم قورت باي بأنه سيدفع ثمن قدومه غالياً. جثا مغول باي على ركبتيه بكل أدب أمام السلطان سليم، ربما لأنه أدرك ما سيحيق به، وبلغه النيات الحسنة للسلطان غوري ورغبته بالسلام والصلح. وبقي قورت باي على حالته الأولى من العنجهية والأنفة، إما بسبب جرأته الفائقة، وإما لجنونه المطبق، وإما لأنه لا يعرف السلطان سليم حق المعرفة.

بدأ قورت باي يخبر السلطان سليم قصة عن رجل الثلج الكبير الضخم الذي يذوب كلما ارتفعت الحرارة أمام الشمس. واستمع السلطان إلى القصة بنفاد صبر، وبقي مبتسماً حتى نهايتها، كان يحب الشجاعة ولكنه لا يعفو عن الوقاحة. فهذا الرجل الثلجي الضخم (بغض النظر عمن صنعه) كان يحلم في أيام الشتاء الباردة أنه سيحكم الدنيا لكن هذا الحلم لم يصمد طويلاً، وبدأ يتلاشى مع الذوبان السريع تحت أنظار الشمس، فالإنسان عليه ألاّ ينظر إلى نفسه في مرآة عملاقة مكبرة. ربما كان يريد أن يعود إلى أصدقائه ويحدثهم بغرور عن قصته مع السلطان سليم. التفت السلطان سليم إلى مغول باي قائلا: "جوابي لسلطانك أن يواجهني في مرج دابق". وفجأة أخرج الدبوس الذي يخفيه تحت قفطانه.

ورأيت قبل أن أغمضَ عيني من الدهشة أن قورت باي ما زال يبتسم،

ثم سمعت ما يثير الغثيان من صوت انغماس شيء صلب في جسم طري ورطب، وأحسست بانهمار أشياء دافئة على رأسي ووجهي وعيني، واستطعت بصعوبة أن أسيطر على تدافع الغثيان نحو فمي.

السبت 25 رجب 922

الموافق 22 آب بالتقويم الإفرنجيّ؛ في هذا اليوم الحار غادر السلطان سليم بجيشه عنتاب، وعسكر في سوركون. وفي 23 آب وصل جيش السلطان إلى بلدة تل حبش شمال حلب، ومدت موائد للجيش. وعندما بلغنا خبر خروج الجيش المملوكي من حلب ووصوله إلى مرج دابق، نادى المنادون بين الجند: "الحرب غداً إن شاء الله". ليت أعجوبة ما تحصل وتحقن دماء المسلمين، فالزمان زمان السلطان سليم. وليت السلطان غوري يفهم هذا ويحول دون هذه الحرب العبثية، ويحقن دماء المسلمين. ففي جيشه بعض الأسلحة النارية، ولكنها قليلة غير كافية، فالجيشان، الصفوي والمملوكي، لا يعتبران استعمال السلاح الناري من الشجاعة والرجولة، والشجاعة عندهم القتال بالسيوف والرماح. وربما كانوا محقين في ذلك، ولكن، أي نصر هذا الذي يُبنَى على الأشلاء؟

في الصباح كان الجيش قد أتم استعداده للحرب في مرج دابق الذي يقال إن فيه مقام سيدنا داود، ويبعد ثمانية وثلاثين كيلومتراً شمال حلب، ويمر عبره نهر القويق القادم من أنطاكيا.

II

مرج دابق؛ 24 آب 1516م

صباح يوم الأحد، وقبل أن يطبق حر الصحراء المخيف، تقابل الجيشان على طرفي مرج يغطيه الضباب. كان الجيشان متساويين تقريباً بعدد الجنود؛ إذ بلغ عدد كلٍّ من الجيشين ثمانين ألف مقاتل. فقد استنفر الجيش العثماني للحرب اثني عشر ألف إنكشاريّ من حملة البنادق، وثلاثين ألفاً من جنود القصر، وعشرين ألفاً على الجناح الأيمن، ومثلهم على الجناح الأيسر من جنود الأناضول وروم إيلي. وكان السلطان سليم خان والصدر الأعظم خدم سنان باشا في المركز خلف حملة البنادق من جنوده الإنكشاريين، وكان هناك ثلاثمئة مدفع متحرك مشدودة بعضها إلى بعض بالسلاسل كما كانت الحال في جالديران. كان الجناح الأيمن يتشكل من قوات؛ أمير أمراء قرمان خسرو باشا، وأمير أمراء الأناضول زينل باشا، وعلي بك شاه سوار أوغلو، ومحمود بك رمضان أوغلو من آل ذو القادر. أما في الجناح الأيسر فكان هناك قوات؛ أمير أمراء روم إيلي يوسف باشا، وأمير أمراء ديار بكر بيقلي

محمد باشا، وقوات سعادة غيراي ابن غيراي منغلي.
أما الجيش المملوكي، فكان الجناح الأيمن بقيادة نائب دمشق صباي، والجناح الأيسر بقيادة نائب حلب خيرباي، أما الوسط فكان تحت إمرة الخليفة المتوكل الثالث الموجود مع السلطان قانصوه غوري.
(*)
قال سليم خان: "يا معلم جعفر باشا، إن هذه الدنيا لا تتسع لسلطانين؛ لعلها تكفيني فقط". وبعد أن ساعده الخدم على تركيب الصفائح الحديدية على درعه، امتطى حصانه قره دومان المدرّع مثله. كان هذا الحيوان يصهل في مكانه، وعضلاته البارزة السوداء ترتعش، وقد غطته السلاسل حتى ركبتيه. كان سليم خان على صهوة حصانه وقد لطخ أنف حصانه بالدم وفق أسلوب مغولي قديم، وقد اتسعت عيناه ولم يعد يصبر على الوقوف في مكانه، ولو أنه بدأ الجري وحده الآن لما توقف حتى يسقط على الأرض من الإرهاق.
سأل لالا جعفر باشا وهو يداعب لحيته التي تزداد نمواً يوماً بعد يوم على الرغم من تقدمه في السن، وبالحماسة التي تسبق الحرب: "ما هو هدفنا بعد هذا إن شاء الله يا مولانا السلطان؟". ضحك السلطان وقد تفتحت أسارير وجهه بالأمل وقال: "هل تستطيع كتم الأسرار يا باشا؟".
- لا شك يا مولانا السلطان.
- أثق بذلك. قالها سليم خان وانفجر ضاحكاً! وسرت القهقهات في كل من حوله.
اقترب حسن جان بدروعه الثقيلة من السلطان سليم وهو يعلق قائلاً: "كم هو السرور الذي يسود جنودكم وتوقهم إلى القتال يا مولانا!".
ربّت سليم خان على كتف صاحبه قائلاً: "فلتسُد الحماسة بين الجنود قبل المعركة، حتى لا يفكروا في احتمال الموت بعد قليل". وهكذا تكون الخطوة الأولى من المعركة قد بدأت. ولكن للأسف ستكون فرحة ما بعد المعركة مقتصرة على المنتصرين فقط.
(*)
كان السلطان قانصوه غوري في مقدمة جيشه، فأشار إلى قادته برأسه، فبدأ جنده يصغون في نظام مهيب من دون أن يصدر منهم أدنى صوت:
"أيها الجنود، أيها الأبطال، يا أبناء الترك، يا أصحاب هذه الأرض الحقيقيين، الذين جيء بكم عبيداً، كنتم مساكين لا يحق لكم الكلام، تضطرون إلى تنفيذ ما تؤمرون به، إلا أنكم وبعد أن ملكتم دولة تعد إحدى أقوى

الدول، كنتم القوة الوحيدة على هذه البسيطة التي تمكنت من صد المغول، أنتم كنتم السد المنيع يوم وقع يلدرم بيازيد مع حاشيته أسرى، ومات في بلاد المغول الأعداء، أنتم وحدكم نور هذه الدنيا، أنتم الذين سموتم بانتصاراتكم، أيها الأبطال، يا قرة عين الزمان، لعل من يريدون إزالتكم من الوجود اليوم هم من عرقكم، حافظوا على ثباتكم، ولتكن أيديكم صلبة كالسيوف التي تحملونها، ولا تجلعوا للرجفة طرقاً إلى قلوبكم، ها قد جاء اليوم الذي تثبتون فيه للقاصي والداني كبرياءكم وشموخكم وإرادتكم التي لا تلين، من العار ألاّ تدين الأرض لأمثالكم بالولاء. بوركتم وبوركت فتوحاتكم".

بدأ الجيش كله يكبّر، والجنود يضربون دروعهم بسيوفهم ورماحهم. فغطى مرج دابق دوي مخيف.

(*)

كان ياووز على رأس جنده وخلفه فرسان غلمان القصر بمظهرهم المهيب يحملون ألوية جيشه السبعة:

"أيها الأبطال، إن من يسكت عن الكفر شريك فيه، والفساد منكر لا بد من القضاء عليه. إن الجيش الذي سنقابله اليوم يحمي من يحتقر أبا بكر وعمر وأم المؤمنين عائشة رضي الله عنهم. لقد سكنت الفتنة قلوبهم وكيانهم، فأصبحت دماؤهم مباحة، فكم أريق من دماء إخوانكم الطاهرة نتيجة دعم المماليك للصفويين! اليوم يوم إثبات الشجعان شجاعتهم، فالسعادة لنا في دار الآخرة إن سقطنا شهداء، والدولة لنا في الدنيا إن انتصرنا على الأعداء. سبحان الذي سخّر لنا هذا. اضربوا في سبيل الله أيها الشجعان، ولا تتوقفوا".

(*)

اصطف الجيشان على شكل هلال بمقتضى استراتيجية الحرب التركية القديمة، وبدأت المعركة بتقدم قوات المماليك، وبموجب خطة السلطان غوري تُشن في البدء هجمات وهمية على جناحي العدو، ثم يتم التراجع فجأة، لتحريك قوات الوسط، وبذلك يقطع الاتصال بين جناحي العدو اللذين يقومان بملاحقة القوات المهاجمة والمنسحبة، وبين وسطه، وعندها يتم شن هجوم صاعق على المركز حيث تتواجد وحدات المدفعية والبنادق العثمانية.

لكن خيرباي قائد الجناح الأيسر المملوكي لم يطبق الخطة الأساسية، ووقع ما يخشى منه السلطان غوري، فقام بهجوم قوي على الجناح العثماني الأيمن فأجبره على التراجع. لكن سليم خان، حرّك وحدات البنادق من الوسط إلى

الجناح الأيمن، واستطاع أن يحدّ من سرعة هجومه منذ اللحظة الأولى. في هذه الأثناء وقعت حادثة في الجناح الأيمن من الجيش المملوكي لم تكن متوقعة.

فقد أصيب نائب دمشق صباي برصاصة وسقط عن حصانه، وأصبح في لحظة بين الأعداء، والأسوأ من ذلك، أنه فقد حصانه، وبينما كان ينظر حوله يائساً أحيط به من قبل جنديين من جنود الفلاحين، فطُعِنَ بالرماح من صدره ومن بين كتفيه. فأسرع إليه مساعده بلبك يشق الصفوف على حصانه وهو يلوح بالسيف يمنة ويسرة، يقوده بمهارة كبيرة، فبدا أن اللحاق به، والإطاحة به مستحيلاً. فلما وقف عند صباي وقفز عن حصانه، قال صباي قوله المشهور: "إن الإنسان لا يتألم عند الموت يا بلبك، لكنه يشعر بانقطاع النفس، واضمحلال القوة، ليت هذا لم يكن".

لما رأى السلطان غوري انهيار خطته وهجماته الوهمية في زمن قصير عبر الجناحين، دفع بكامل فرسان الوسط إلى الهجوم، لكنه أدرك جهله لمدى المدافع العثمانية التي وصلت رماياتها إلى مسافات بعيدة، واستطاع رماة المدفعية تسديد رميات متتابعة، محققين إصابات لا تصدّق. وكانت حصيلة التغطية التي نفذتها المدافع، حصاد الفرسان المماليك كما يحصد المنجل الزرع، فاضطروا تحت تأثير هذه القوة النارية إلى الانسحاب إلى الطرفين محاولين لـمّ الشمل من خلال رفع الرايات، إلا أن حَمَلَة البنادق اصطادوهم بنيران بنادقهم، فأجبروهم على التراجع مجدداً.

في تلك اللحظة أدرك السلطان غوري مدى خطأ الهجوم الشامل. لكن الخطأ الذي لا يغتفر والذي وقع فيه إسماعيل شاه وكرره هو، كان الهجوم المباشر على مركز القوات العثمانية بوحداته الخاصة التي تحت إمرته بعددهم البالغ خمسة آلاف في ظل الغبار والدخان. ربما كان لمثل هذا الهجوم حظ من النجاح، لكن ياووز كان متيقناً من إقدام السلطان المحارب على مثل هذا الجنون، فاستقبل قانصوه غوري ووحداته بحَمَلَة البنادق والخيالة الذين احتفظ بهم حوله. حين واجه السلطان غوري عدواً مستعدًّا للقائه؛ كان يتوقعه مزهواً بنشوة النصر، توقف قليلاً، ثم أدرك ألاّ مفر من التراجع. كان عليه أن يستجمع قواه ويحارب باستراتيجية جديدة، ويعمل بخطة جديدة. فأمر بالتراجع في الوقت المناسب، والإفلات من الطوق، لكن قلب السلطان العجوز لم يكن قوياً يستطيع تحمّل توقع الهزيمة النكراء، فأحس بضيق في صدره وانقطاع نفسه، وأحس بتراخي عضلاته القوية، وزاغ بصره، ولم يطل الأمر كثيراً حتى سقط عن حصانه.

وكانت تلك اللحظة بداية الهزيمة للجيش المملوكي الذي لم يذق طعم الهزيمة من قبل قطّ، تماماً مثل الصفويين.
بدأ الفرسان، وجنود غلمان القصر يلاحقون الأعداء، وأعملوا السيوف في غالبية جيش المماليك، يتبعهم الجنود الفلاحون وجنود الإنكشارية، فأسروا ألفين من الأعداء. وفر الجيش المملوكي تاركاً خلفه كل ما ثقل حمله وخزائن الجيش وتبعثرت السيوف المملوكية في ساحة المعركة.
بقي ياووز سليم بعد المعركة في مرج دابق أربعة أيام، يقيّم الوضع مع قادته. فقد من جيشه ثلاثة عشر مقاتلاً. وخسر المماليك ثلاثة أرباع مقاتليهم. وقد سر القادة والجنود لسحقهم عملاقين كالصفويين ومن بعدهم المماليك، وقد وعدوا بالغنائم، وأمّن صمت أعداء سليم خان مدة من الزمن على الأقل. كان الجيش راضياً عما تحقق، لكنه كان يشكو من كثرة الخسائر، ويريد العودة. وأغلب القادة كانوا يميلون إلى هذا الرأي. لكن سليم خان يعرف كيف يسكت هذا التململ بإغداق الأموال، أو بالتغاضي عن سماع تلك الأصوات، والأسرى المماليك، فقد ضربت أعناق عشرين ألفاً منهم عبرةً للعالم منذ اليوم الأول.
دخل سليم خان حلب في 28 آب. وكان المتوكل الثالث بين المستقبلين، وتحركت في السلطان مشاعر احترام الخليفة كثيراً، فلم يسأله أي سؤال عن سبب وجوده إلى جانب قانصوه غوري في أثناء الحرب، لكنه أفاد بوضوح رغبته في تولي منصب الخلافة، فالمماليك فقدوا صفة حماة مكة والمدينة وطرق الحج. ورغم أن الخليفة ذكّر بالحديث النبوي الخلافة في قريش، لكنه لم يعترض على فكرة تولي الخلافة ممن هو أهل لها من الأمم الأخرى عندما لا يكون هناك قرشي مؤهل، وعندما تستوجب الشروط التاريخية ذلك بالوكالة. وسلم رموز الخلافة إلى ياووز، وفي اليوم التالي، في التاسع والعشرين من آب 1516 م، قبل صلاة الجمعة مباشرة، أعلن رسمياً انتقال الخلافة إلى آل عثمان، وأضيف إلى ألقاب السلطان ياووز سليم خان لقب خليفة الأرض (Zemin Ruy-i Halife-i).
في تلك الجمعة، جاء ياووز خان مع أركانه إلى الجامع الكبير بحلب، وعندما تُلِيَت الخطبة باسم السلطان ياووز سليم خان، وقعت حادثة سيسجلها التاريخ ما بقيت الدنيا في التواضع والأخوة، فعندما وصل الخطيب إلى لقب حاكم الحرمين الشريفين مكة والمدينة، تدخل سليم خان في الحال قائلاً: "لا، بل قل: خادم الحرمين الشريفين يا سيدي الإمام".
وسيبقى هذا العنوان لقباً لمن بعده من السلاطين العثمانيين الآخرين، وحين

يرى شيخ الإسلام أنه من غير المناسب أن يخرج السلطان للحج، كان عليهم ألا يترددوا في تأمين مرافق إقليم الحجاز الذي يضم مكة والمدينة.
لم يستطع سليم خان أن يتمالك نفسه بعد هذه الكلمات، وبعد هذا الموقف المثير، دمعت عيناه، ثم أزاح سجادة الجامع، وسجد على المرمر شكراً لله. بعد الصلاة، خلع قفطانه المصنوع من الأطلس المزركش والمزيّن بمجوهرات مختلفة لا تقدّر بثمن، وقد لبسها خصيصاً في هذا اليوم، وألبسه الخطيب.
بالاستيلاء على حلب، وهي أحد أهم المراكز التجارية في الشرق الأوسط، وإرسال رسائل الفتح السلطانية، تأكدت سمعة ياووز في اتجاهات الدنيا الأربعة. وأُعلِنَت حلب مركزاً لإمارة شمال سوريا، وكان قرجه باشا أول أمير عليها. مكث ياووز سليم خان في المدينة سبعة عشر يوماً، أي حتى الخامس عشر من شهر أيلول، وفي غضون ذلك، كان يقيم مأدبةً كل ليلةٍ حتى يدخل السعادة إلى نفوس الجند، واستنفر جميع العقلاء وعلى رأسهم صاحبه حسن جان، ليثيروا في الجند الحماسة، فكان الحديث يدور عن خزائن أكبر، لا تقدّر بثمن عما قريب، وأن غنائم عظيمة أكثر على الطريق. وأنه لو لم يكن في الجيش رؤوس فتنة تعمل سراً، لما كانت مرحلة الاستعداد النفسي للجنود صعبةً إلى هذا الحدّ.
أقام سليم خان في خيمته التي نصبها قرب المدينة، وفي النهار كان يزور الأماكن المباركة والهامة في عاصمة الأمويين التاريخية (41) . ووقوفه مطولاً عند ضريح صلاح الدين الأيوبي وبكاؤه عليه وقراره بتجديد الضريح، كلّها تركت أثراً عميقاً لدى الناس.
(*)
في تلك الأيام، وفي ساعات متأخرة من ليلة هادئة وباردة، وجد ياووز خان نفسه في موقف غريب لدى عودته إلى خيمته. فقد علقت ورقة على السارية المغطاة بقماش القمحا الأحمر وسط الخيمة الداخلية حيث فراشه، تمتم في سرّه: خيراً إن شاء الله، ما هذا؟ توقع أن هناك من يختبئ في الداخل، فدفع يده إلى سيفه، لكنه عندما اقترب بحذرٍ، وقرأها، وجدها مكتوبةً بلغة عربية سليمة: "ماذا يفعل المهموم؟". نادى أولاً كتخدا الباب وحسن جان، وأراد أن يسأل رأيهما في هذا الأمر العجيب، لكنه لم يضع أي احتمال لتجاوز أي واحد منهما إلى الخيمة سراً متخطياً أولئك الجنود الأشداء المحيطين بالخيمة وبابها، والذين لا يسمحون لطيرٍ أن يمر منها، فتناول الورقة، ثم طواها وشمها، فأحس أن بها عطراً أنثوياً. أمسك بالورقة

على ضوء قنديل، ودقق في آثار الريشة، ولاحظ أن الريشة الرفيعة عند تجوالها على الورقة تركت أثراً ظريفاً مرتجفاً. كان هذا دليلاً على وجود يدٍ خفيفة، أي يد امرأةٍ. إلاّ أنه لم تكن في معيته سوى عدة جوارٍ يقمن بأعمال التنظيف. ثم تخلى عن التحقيق في هذا الأمر، ومد يده إلى الريشة، بتأثير رغبة لعوب تحرّكت في داخله، فكتب تحت السطر نفسه: "فليقل ما يهمّه". ثم ثبت الورقة في المكان نفسه. وحاول أن ينشغل بكتبه طيلة الليل، وفي عقله أفكارٌ مختلفةٌ.

في المساء التالي، لاحظ تحت سطره وبالاهتمام نفسه: "وماذا يفعل إن كان يخاف؟". ابتسم سليم خان، وأحس بما حاولت الجارية أن تشرحه بهمسةٍ من ذلك المخلوق الذي يسمى عشقاً، والذي تحرك في أعماق روحه المعتمة. فأخذ ريشته وكتب: "فليقل من دون خوف". وفي النهاية جاءت هذه السطور الجميلة منظومة هكذا:

ماذا يفعل المهموم؟

فليقل ما يهمّه؟

وماذا يفعل إن كان يخاف؟

فليقل من دون خوف.

يقول حسن جان: كانت هناك جارية تركمانية واحدة تدخل هذا القسم من الخيمة السلطانية، فتاة نحيفة الجسد، طويلة القامة، خجولة، وظريفة. ووقعت في قلب حاكم العالم نار الفضول الطيبة التي أثارتها الجارية، فأمر حسن جان وهو يدخل عليه وقت الفجر بأن يأتي بها.

لم يمضِ وقت طويل حتى أُحضِرَت الفتاة، كانت لا تزال سكرى من أثر النوم، عيناها الكبيرتان البنيتان ترفان كثيراً بتأثير الدهشة والخوف اللّذين ألمّا بها وهي تنظر أمامها، وتجول على وجهها الأسمر الفاتن علامات القلق، لقد كانت هذه الفتاة أجمل مما تحدث عنها حسن جان. وتذكر قول أبيه له ولإخوته قبل سنوات: "جمال المرأة لا يُدرَك على حقيقته إلا في الصباح في ساعات استيقاظها الأولى".

أمرها سليم خان قائلاً: "انظري إليّ". نفذت الفتاة الأمر بصعوبة، شعر منها سليم خان أن قلبه اكتوى بما لم يحس به منذ سنوات، بالحب الذي رآه في تينك العينين، فسألها: "ماذا تطلبين مني أيتها الجميلة؟". قالت الفتاة وهي تتنفس بصعوبة: "مولاي السلطان، قلب جاريتكم فيك". وانهارت الفتاة الشابة في مكانها فجأة كورقة شجرة غضة، وارتعش جسدها لحظة مثلما ترف وردة جميلة بأول نسمة صباحيّة، واستدعى سليم خان الأطباء فوراً،

لكن عينيه الخبيرتين أدركتا وداع روح الفتاة في تلك اللحظات.
قال بصوت هامس: "هكذا نفقد من نحبّ ومن يحبوننا تباعاً يا حسن جان. يجب أن نفهم هذا، إن العاشق الحقيقي هكذا يجب أن يموت من أجل معشوقه. وأمر السلطان بتجهيز جنازة جاريته المحبوبة، وأن تُكتب هذه الرباعية على قبرها:

لا أدري كيف نسج الفلك روعته في عينيّ،
ترك الدم في عينيّ، وزاد من عشقي،
من قبضتي ترتعش الأسود، لكنه
قدر أوقعني أسيراً في عينَي غزال.

في النهاية غادر حلب، فاستولى تباعاً على حماة في 19 أيلول 1516 م، وحمص في 21 أيلول 1516 م، ودمشق في 27 أيلول 1516 من دون مقاومة. فضم بذلك إلى سلطانه كلاً من سوريا ولبنان وفلسطين.
بينما كان يقيم في دمشق، كان الصدر الأعظم خدم سنان باشا ووزيره يونس باشا يتابعان تحركاته في الجنوب وفي جوار بلدة خان يونس (42) التي ستذكر باسمه، وتمكنا من مواجهة بقية الجيش المملوكي. كما تمكن جيش عثماني تعداده سبعة آلاف جندي من إلحاق الهزيمة بجيش والي لبنان العام جانبردي غزالي وجيشه البالغ عشرة آلاف في نهاية مواجهة قصيرةٍ شديدةٍ. وبعد هذه المعركة، طرد المماليك تماماً من غرب آسيا إلى إفريقيا. وفي النصف الثاني من شهر تشرين الثاني وصلت أنباء عن تنصيب ابن أخ المرحوم قانصوه غوري ووزيره الأول طومان باي سلطاناً على المماليك، وسرت أنباء عن شروعهم بإنشاء استعدادات دفاعية كبيرة أمام القاهرة. ولعله يواجه هذه المرة ملاحقة جيش مملوكي حاشد، لو تردد سليم خان في التقدم.
في ليلة 31 كانون الأول وصل ياووز سليم إلى القدس، وتجوّل في شوارع المدينة المباركة متضرعاً إلى الله، وصلى في المسجد الأقصى المضاء بآلاف القناديل، صلاة الشكر، ونقل قسماً من الأمانات المباركة التي تم الاستيلاء عليها إلى إسطنبول فوراً.
من مذكرات حسن جان:
الجمعة 10 ذو الحجة 922
وصلنا إلى غزة يوم عرفة الجمعة الموافق 3 كانون الثاني 1517 م، واليوم عيد الأضحى، وقد أقبل الناس يهنئون الخليفة بهذا العيد المبارك، وقد أمضى يومه مع الجند، يرفع معنوياتهم، ويزرع في أفئدتهم طموحاته

وأفكاره، لعلهم يكونون مثله.
ثم جمع قادة الجنود الإنكشارية وغيرهم على مأدبة طعام من لحوم الأضاحي، وسقاهم بعد ذلك أنواع الشراب اللذيذ، ولكن السلطان كعادته لم يأكل إلا قليلاً، حتى إنه في رمضان كان يكتفي على الإفطار بطبق الحساء.
هذا الخليفة العظيم الذي يبذل ما في وسعه من أجل تحقيق أهدافه العظيمة، ومن أجل أن يحيي هذه الأهداف في عقول وقلوب من حوله، لا يفكر فقط كغيره في أيام قاسية قصيرة ومعدودة ستمر عليه، بل يتجاوز بفكره هذه الأيام. وأستثني من أولئك بعض الرجال الذين يفكرون مثل السلطان، ولا أظن أن هذا الخليفة سيهزم في موقف إلا إن تقاعس مَن حوله عن أمره وأفكاره.
تبعد غزة عن البحر الأبيض المتوسط، أربعة كيلومترات، وكان جوها حاراً في هذه الفترة، ولكنها مدينة صغيرة وجميلة ببيوتها المبنية من التراب الأبيض وشوارعها الضيقة وضجيج الأولاد الذين يركضون في هذه الشوارع. لم أتذكر أنني رأيت أطفالاً بهذا الجمع والكثرة في آنٍ واحد، لذلك لم نتمكن من إبعادهم عن المعسكر وعن مقر القيادة التي اجتمع حولها باعة الفواكه والخضار والمتسوّلون وقد كثر عددهم حتى أصبحت الساحة كمقر المهرجان والمعرض.
انضم الوزير الأعظم سنان باشا مع جنوده إلى معسكر السلطان سليم بعد أن استقبله الجنود مدهوشين من قدومه وانضمامه إلى المعسكر، ولم يعد أحد يجهل أن نية السلطان هي عبور صحراء سيناء إلى مصر، هذه الصحراء التي لم ينبت فيها عشب؛ دخلها سيدنا موسى عليه الصلاة والسلام عندما خرج من مصر، ولم يستطع أحد عبور هذه الصحراء، حتى جنودُ المغول المتوحشون الذين كانوا يأكلون أمعاء الحيوانات إذا جاعوا، لم يستطيعوا عبور هذه الصحراء، وإسكندر الكبير لم يتمكن من عبورها أيضاً، وإنما دخل مصر عن طريق البحر بالسفن. أما ما يذكره التاريخ عن عبور إمبراطور الفرس هذه الصحراء مع جنوده، فهي حكاية تحتمل الصدق والكذب.
الأحد 12 ذو الحجة 922
ومما أغضب السلطان سليم إرسال طومان باي مبعوثيه بأموال كثيرة إلى أوروبا لشراء مدافع وخبراء مدافع، وأخشى ما أخشاه أن ينقلب اللطفُ واللينُ اللذان يسودان مزاجه عقب الانتصارات المتعاقبة إلى الشدة والقسوة من جديد نتيجة اختلاف الآراء في الاجتماع الأخير بين الوزراء وقادة

الإنكشاريين. فعلى الرغم من انحياز الوزير الأعظم سنان باشا والوزير الثاني يونس باشا بما لهما من مكانة وتأثير في الجيش إلى جانب السلطان، فإن شوكة المعارضين وجدت قوتها من جديد بتأثير الجيش الإنكشاري. ثم إن حالة يونس باشا المترددة لا تُطَمئِن النفس، ولا يمكن الجزم بانضمامه إلى أي جهة من الجهات.

أما الفرقة التي تضم الفلاحين الأتراك أصحاب القلنسوات الحمراء فكانوا كالعادة أوفياء للسلاطين، وعلى الرغم من الخلافات التي جرت بينهم وبين الإنكشاريين، فإنها لم ترتقِ إلى مستوى العداوة، ولا أريد لهذا الكلام أن يورث أحداً ممن يقرأه بعدي فهماً غير صحيح.

ما كان ينبغي للوزير حسين باشا أن يثق بنفسه كثيراً ويتفوه بهذه الكلمات. فبعد صلاة العشاء اجتمع الناس في الديوان، وأخذوا يتحدثون عن هزيمة المماليك وانسحابهم من آسيا الصغرى كلها، وذكر من التفاصيل ما يلزم وما لا يلزم، في حديث طويل مملّ، وتحدث عن ضرورة إيقاف الحركة البرية وعبور سيناء، وكان برأيه أن يتولى الأسطول الهمايوني هذه المهمة (دخول مصر)، فأثارت هذه الكلمات غضب السلطان سليم. فحسين باشا لم يذكر في كلامه كم من الوقت سيستغرق بناء هذه السفن، والوقت الذي سيستفيد منه المصريون، وكيف ستكون معنويات الجنود. وبرأيي أنه إذا عبر الجنود هذه الصحراء، فإن الضربة ستكون قاسية وقاضية للمصريين.

ومما زاد من غضب السلطان سليم هو عدم دراية رجاله بما يقوم به طومان باي من استعداد بالمدافع القوية لهذا الهجوم، ومما يزيد من الحزن أكثر، أن يلقى رأي حسين باشا تأييداً من أعضاء الدولة. لم يتكلم السلطان سليم قطّ، بل اكتفى بمراقبتهم والاستماع إليهم، وفي هذا الوقت دخل أمير أمراء الأناضول زينل باشا مع دفتردار الأناضول زهريمار قاسم أفندي، وبدخولها اشتد الخلاف والنزاع بينهم أكثر، فقد كان برأي زينل باشا التحرك مباشرة لعبور الصحراء من دون تأخر، لأن طومان باي قتل المبعوثين الذين أرسلوا إليه، ورد على رسالة السلطان أقبح رد، ولم تكن الرسالة تطلب منه إلا الدعوة للسلطان سليم في الخطب، وصك النقود باسمه، ودفع الخراج، ويبقى هو على عرشه وحكمه في مصر. لكن طومان باي رفض العرض.

أما رأي زهريمار أفندي فكان مغايراً لرأي زينل باشا، لأنه كان يرى في عبور الصحراء مغامرةً بحياة هؤلاء الجنود الأبطال، مؤيداً برأيه هذا حسين باشا، فما كان جواب السلطان سليم إلا قوله: "رئيس البستانيين". فدخل

رجل ضخم حليق الشعر على رأسه قبعة حمراء من اللباد، وعلى خصره حزام أخضر مرصع بالذهب، يلبس جبة حمراء تصل إلى ركبتيه، ومن تحتها يلبس سروالاً أزرق، وينتعل حذاء يمنياً أصفر، دخل كالريح إلى الغرفة، وخيم السكون على الجميع. فمشى حتى وقف أمام حسين باشا، فنظر حسين باشا إليه، ورأى هذا الوجه الأبلق، والشارب المبلول في دهشةٍ وحيرةٍ، وأيقن بالهلاك، ونزل حاجباه على عينيه تطلبان العفو من السلطان، وتمتم بكلمات لم نسمعها.

بما أن الزمن لا يعطي المرء ما يستحق من تقدير واحترام، سيظن من سيأتي بعد السلطان أنه كان ظالماً بأفعاله وأحكامه. إلا أن العكس هو الصحيح، فالمقربون منه وأصدقاؤه مثلي ومثل كنعان باشا وهمدم باشا متأكّدون من أنه غير ظالم، وأنه لم يفعل إلا ما يجب عليه فعله في سبيل الحفاظ على وحدة واستقرار الصفوف، فكان يقوم بهذا الواجب على أكمل وجه وبالوقت المناسب، وكان لا يمكن للأسف الحفاظ على هذا الجيش الذي ليس له مثيل في تركيبته وتوازناته الداخلية الحساسة، إلا بهذه القبضة الحازمة الحذرة الماهرة.

وعندما وضعت رأسي على الوسادة هذه الليلة كان ضرب عنق حسين باشا على يد البوستانجي باشي هو الشيء الوحيد الذي يمكن أن أفكر فيه، فوأد فتنة يمكن أن يشعلها الموقد الإنكشاري، وربما تتسبب بالقضاء على السلطان والسلطنة، والحفاظ على وحدة الجيش، وحقن الدماء، كلّها كانت تتوقّف على رأس هذا الرجل الوحيد، وقد أخرس بعزل أمير أمراء الأناضول زينل باشا والدفتردار زهريمار أفندي الأصوات المعارضة كلها، وانكفأت رؤوس الفتنة على أنفسها وخلاياها.

الجمعة 16 ذو الحجة 922

في هذا اليوم بدأ المسير الكبير، فالصلح الذي تم تجديده مع المجر، وخبر وجود الشاه إسماعيل في تبريز، عدّلا مزاج السلطان كثيراً، فهو يستطيع الآن تركيز تفكيره واهتمامه على مصر. كنا نسير في صحراء سيناء بما يزيد على ستين ألفاً من الجنود والحمد لله، في سير غريب تنخفض فيه الحرارة قرب ساعات الصباح الأولى إلى ما دون الصفر بكثير، نعرف ذلك من تجمد المياه في قِرب المياه التي نحملها، لكننا ندرك أيضاً أنه لن تمضيَ ساعات حتى ترتفع فوق الخمسين، لا تذوب معه المياه المتجمدة فقط بل الأدمغة في الرؤوس أيضاً.

لا نعثر في هذه الرمال الممتدة في هذه الصحراء إلا على العقارب والحيات

والحشرات السامّة، فطراوة رمالها تجعلها موطناً صالحاً لها. وكنا نكمم أفواه قِرَب الماء بجلود البعير لكننا لم نكن نستطيع منع الرمال من الوصول إلى الماء، حتى الطعام الذي نأكله أصبحت الرمال جزءاً لا يتجزأ منه، حتى إنني كدت أشيع بين الجد والمزاح القول إن الرمال تشفي، إلا أن الأطباء وقفوا لي بالمرصاد، وقالوا: "إن الرمال تؤذي الكليتين". لكنه هراء، فهل أمامنا مفر من هذه الرمال؟

عندما يميل النهار عن منتصفه تحترق الرمال بأشعة الشمس الملتهبة، ويغدو السير فيها عذاباً، على الرغم من أن هذا هو اليوم الأول من السفر، فإن هناك خيالات بدأت تتراءى لبعض الجنود.

في المساء خاطب السلطان سليم خان جنوده قائلاً:

"إن أظهر الجندي شجاعته في ظروف يختارها، فذلك أمر حسن، لكن الشجاعة تنال بالثبات في أرض العدو عندما تكون الأسباب تميل إلى صالح عدوك، وأولئك الجنود هم الشجعان الحقيقيون يا أبنائي. أعلم أن هذا السؤال لا يغيب عن أذهانكم أبداً: كيف نصبر؟ وليس له إلا جواب وحيد: النصر والقوة من الله وحده. لأن العالم الإسلامي أُوذِيَ كثيراً بسبب تعدد القيادة. وحاكمية الإسلام للعالم مرهونة بهذه الأيام المعدودة التي نصبر عليها من المشقة والعذاب. فلا تخافوا ولا تفكروا في احتمال الهزيمة، فالخوف يجر الخوف، ويقضي على القوة في سواعدكم وأرجلكم، تصرفوا بشجاعة، فإن لم تملكوها فتظاهروا بها، لأن الإنسان مع الزمن يتحلى بما يتظاهر به".

الأحد 18 ذو الحجة 922

إننا نبحث في الوديان الملتهبة والمخيفة، وبين كثبان الرمال، عن الأراضي الصلبة بعض الشيء للسير فيها، لكن عجلات المدافع كانت تغوص في الرمال، فتبطئ السير كثيراً. فتحدث محمد أوسطجه القرماني عن إمكانية توزيع الضغط الذي تمارسه العجلات على الأرض على مساحات أوسع تخفف من غرقها في الرمال. ونجحنا في زلق المدافع من المرتفعات من خلال آلية جديدة أوجدها للانزلاق. فرح السلطان بهذا العمل فرحاً شديداً، فوزع ألف ليرة ذهبية لكل جندي.

مع ذلك، كان لا بد من مطر يخفف من حدة الحر، تتصلب به الأرض وتقسو قليلاً مما ييسر السير على هذه الرمال. كنا نسير على شريط البحر الأبيض محافظين على مسافةٍ محدودةٍ بيننا وبين البحر، وكانت انحرافات الطريق تبعدنا أحياناً عن البحر، فنعاني شحَّ المياه ونقص الزاد إن طال

الابتعاد عن البحر، فالطعام يأتينا عن طريق البحر بالسفن، وتكون الصفوف النهائيّة من الجيش هدفاً لقطاع الطرق واللصوص. تعرضنا بعد ظهر اليوم لهجوم جنود إحدى القبائل التي كانت تراقبنا، كانوا ينصبون الكمائن للجنود المنفردين في بعض الوديان، فينقضون بسرعة فائقة، ويأخذون ما يقدرون عليه ويهربون. كل محاولات السلطان سليم لتأليف هذه القبائل وكسب ولائها ذهبت أدراج الرياح، لأن كبار دولة المماليك لم يدخروا جهداً في تحريضها، فأمر السلطان بإنزال أشد العقوبات على من يقبض عليه من اللصوص.

الجمعة 23 ذو الحجة 922

من العسير في مثل هذه الصحراء أن تتوقع هطول الأمطار في مثل هذا الوقت فضلاً عن هطولها بمثل هذه الغزارة، وشوهدت الثلوج على بعض المرتفعات. كنت أسير مع السلطان في مقدمة الجيش، وقد دفن المطر تلك الحرارة الملتهبة في رمال الصحراء، وهبت النسائم عليلةً من جهة البحر، فانشرحت لها الصدور، وانتشرت الفرحة بين الجنود. ترجل السلطان سليم عن حصانه فجأةً، وأخذ بلجامه، وتابع المسير أمامه، فترجلنا جميعاً عن خيولنا، وسرنا خلفه في صمت مطبق. المطر المنعش كان يشتد حيناً ويخف حيناً آخر حتى توقف نهائيًّا. وكانت الغيوم تكاد تلامس رؤوسنا، وصوت الرعد يصمّ آذاننا، والبرق يكاد يخطف أبصارنا، وكان السلطان شاخصاً ببصره إلى الأمام، لا يلتفت يميناً ولا شمالاً.

قلت في نفسي لعل السلطان تسمم بالمياه التي يشربها، أو إن حرارته ارتفعت فجأة، فهو يبدو في حالةٍ غريبةٍ عجيبةٍ، لم أتمالك نفسي، فاقتربت منه، وقلت: "هلا ركبت يا مولانا السلطان بعد هذا المسير الطويل، فالجيش كله مترجل يسير وراءك". فإذا بالقطرات التي تسيل على وجهه وجبينه لم تكن بسبب المطر فقط، بل كانت تختلط بالدموع. تنفس بصوت ممزوج ببحّة البكاء، ومد يده بهدوء وسحبني إليه وهو يقول في خشوع: "ألست تراه؟!".

- من يا مولاي؟ من الذي تراه؟!

- ألست ترى رسول الله صلى الله عليه وسلم يمشي أمامنا؟! كيف نركب الخيل ورسول الله صلى الله عليه وسلم يمشي أمامنا على قدميه؟!

سرعان ما ذاع الخبر بين الجند، ورأوا في نزول المطر كرامة لهذا السلطان الذي حمل على عاتقه أعباء الخلافة. تُرى هل رأى السلطان سليم رسول الله صلى الله عليه وسلم حقاً؟! أم كان ذلك نسجاً من دهائه؟! أعلم أن

من رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم في المنام فقد رآه حقاً، ولكن كيف بمن رآه يقظةً؟! كل الذي أدريه هو الرهبة التي سرت في بدني، والنشوة الجميلة التي دارت في رأسي، وسيري راجلاً بسير السلطان الطويل في أدب وتعظيم واحترام.

السبت 24 ذو الحجة 922

حمل الوزير الأعظم سنان باشا وخير باي الذي كان نائباً لغوري على حلب وعلي شاه سوار أوغلو على القبائل التي كانت تنصب كميناً للجيش وتسرق منهم، فأسروا منهم الكثير، وأعدموهم مباشرة، فأكرمهم السلطان سليم على ما فعلوه، وأهدى خير باي حصاناً.

شاع بين الجند ما رآه أحد الإنكشاريين في نوبة الحراسة ليلاً وعلى ضوء القمر، خيال مدينة قديمة، فكان حديث النهار كله، وممن زاد في تأكيد هذا الخبر أن أحد الجنود الإنكشاريين زعم إنّه قرأ في كتاب العازف والذي يعرف في اللاتينية (Necronomicon) للشاعر عبد الحضرة عن هذه المدينة التي تظهر على ضوء القمر في بعض الليالي وتختفي في الليالي الأخرى. وسرعان ما انقطع الحديث عنها، لأنها شغلت الجميع، وأزعجت السلطان، وعادت الشائعات تسري أن الإنكشاري ترك نوبة الحراسة ورأى المدينة الخفية بأبوابها وجدرانها المرقومة بالكتابات القديمة. أعلم أن السلطان سليم لا يحب آثار الأقوام القديمة، ولذلك لن يحرك ساكناً ولو كانت هذه الأساطير صحيحة، وقد كان ما توقعته.

تواردت أنباء حديثةٌ بعد العصر عن غياب هذا الإنكشاري الذي يقال إنه ابن نبيل كرواتي، وبغيابه عن التفقد المسائي، اعتبر أنه اختطف من قبل القبائل. أكتب هذه الكلمات في الليل بعد أن استيقظت من النوم على كوابيس مرعبة. رأيت في ما يراه النائم أنني في مدينةٍ مظلمةٍ، تبلل المياه شوارعها، وكأن شيئاً ما يلاحقني ويطاردني، ويوشك أن يمسك بي، إلا أنني أحاول الهروب منه والابتعاد عنه مرة أخرى.

الأحد 25 ذو الحجة 922

لم أكن الوحيد الذي رأى الكوابيس المرعبة في الليلة الماضية، فقد رأى أكثر الوزراء والقادة والجنود ما رأيته، حتى السلطان سليم كان صفوه معكراً هذا الصباح، ولم يتحدّث إلى أحد، حتى شاع بين الجند أن هذه البقعة من الأرض مشؤومة.

الخميس 29 ذو الحجة 922

شق جيشنا طريقه جنوب غرب سيناء حتى بلغنا مشارف القاهرة، ونجحنا

بعون الله تعالى أن نخلّف وراءنا تلك الصحراء الموحشة بأقل الخسائر في ثلاثة عشر يوماً.

قدم سنان باشا على طليعة الجيش تقاريره المفصلة التي تبين توزيع السلطان للقوات. وقال: "أمر القائد العسكري المحنك طومان باي بحفر خندق يمتد من جبل المقطم حتى نهر النيل للدفاع عن القاهرة، وجعل على أسوارها مئة مدفع، وليس هناك أي طريق غير هذا الطريق، فكل الطرق التي تأتي من سيناء لا بد من أن تمر من هذا المكان الذي طوقه جيداً بمدافعه وجيوشه، واستعد لاستقبال السلطان سليم وجيوشه".

39 قصر المشتى على بعد 30 كم جنوب مدينة عمان ، وي ُعتقد أن الذي بناه هو الوليد بن يزيد الثاني بن عبد الملك عام 743 .

40 حسن الصباح ، أو حسن بن علي بن محمد الصباح الحميري ، ولد في إيران 1037 م ، وتوفي في إيران 1124 م ، والملقب بالسيد ، أو شيخ الجبل ، وهو مؤسس ما يعرف بـالدعوة الجديدة ، أو الطائفة الإسماعيلة النزارية المشرقية ، أو بالحش ّاشين حسب التسمية الأوروبي ّة .

41 يقصد حلب .

42 وهي خان يونس اليوم .

الفصل السابع:
الريدانية وما بعدها
I
"تمدح الكتب الصياد حتى يلتقي الأسود بمؤرخيهم".
من يوميات كولومبوس
الخميس 22 كانون الثاني 1517 م
أصبح سليم خان سيد زمانه وهو يغير خططه ليضرب أعداءه من حيث لا يحتسبون كأي قائد كبير. ففي الريدانية، كان من الممكن لمدافع المماليك القوية أن توقع جيشه في مأزق صعب، ثم يلاحقه فرسانهم، فتقع الهزيمة. لذلك، ترك جلّ قواته مع الصدر الأعظم خدم سنان باشا، وخصص لنفسه خمسة آلاف جندي من النخبة. يقود جناحه الأيمن مصطفى باشا الذي عيّنه أمير أمراء الأناضول بدلاً من زينل باشا المعزول، ويقود الجناح الأيسر أمير أمراء روم إيلي سنان باشا الصغير.
في ساعات الليل المتأخرة قبيل انبلاج الصباح، تحرك مع هؤلاء النخبة الخمسة آلاف، وقادهم بنفسه، كما كان يفعل أيام الشاهزاده في غزواته الظافرة على فارس، وهو ينوي الاستدارة حول جبل المقطم، والنزول جنوباً، والتسلل خلف صفوف المماليك.
مقر قيادة طومان باي
04:15 صباحاً
جلس طومان باي على الديوان الكبير داخل خيمته، وملم حواشي قفطانه، والشرر يتطاير من عينيه الزرقاوين، وأخرج من حزامه خنجراً كبيراً، ثم شمّر عن ساعديه كمّي قميصه المزركشين، وشطب في إحدى ذراعيه شطبة عميقة بطرف الخنجر المعقوف - كان هذا عرفاً مملوكياً قديماً - وقال لرجاله وهو يتحدى: "أنا الملك الأشرف طومان باي، سأنتقم لعمي المحبوب قانصوه غوري قبل أن يندمل هذا الجرح الذي ترونه. لن يرضخ الشعب المصري للظالمين العثمانيين، إنهم إن كانوا قد انتصروا بحق في كل معركة خاضوها حتّى اليوم، فإنهم انتصروا بفضل تفوق أسلحتهم النارية، وبشكل خاصّ مدافعهم، إذ ولولاها لسحق إسماعيل هؤلاء الذين لا يعرفون قدر أنفسهم في جالديران بفرسانه الأبطال. الآن، مع طلوع الشمس، سيعرفون قوة المدافع المصنوعة في البندقية؛ سأعلمهم ما هي المدفعية، وما هي الفروسية".
قال نائبه ميرزة بك بوجه متمكن حازم: "أيها الملك الأشرف، لقد جعل

ياووز في سبطانات مدافعه أخدوداً". كان يحاول أن يخفف من ألم ظهره بالحزام الملفوف على خاصرته وبطنه الضخم، وخرخرة صوته تزيد من مظهره العليل وتكشف مدى تقدم المرض فيه.
سأله طومان باي والكآبة تبدو عليه: "وكيف ذلك؟!".
- لا أعرف يا مولاي، لكن القذائف لا تخرج من السبطانات مستقيمة بل تخرج وهي تدور.
- وبماذا يفيد هذا؟
- تصل القذائف إلى مسافات أبعد وفق خبراء ياووز، وتكون إصاباتها أدق.
هز الملك الأشرف كتفيه وقبضتاه مشدودتان، وقال: "حتى لو كانت كذلك، فإن قطر السبطانة صغير، وإن جاؤوا فسيلقون ما لا يسرهم".
خرجا من الخيمة، وتجولا تحت أضواء المشاعل بين الجنود الذين يعملون بشكلٍ محمومٍ، والجو تغطيه رائحة التراب التي تفوح بعد المطر من جهة الصحراء. انضم إليهم في الطريق قائد الوحدة الثالثة من الفرسان ثابت علي بك. وعلى الرغم من هزاله كان رجلاً قوياً ذا عينين زرقاوين. ونظراً إلى جهده الكبير في إعداد الاستحكامات، كان يسعى إلى إظهار نفسه ونيل الثناء والمديح، وانتهز فرصة مسح العرق الذي سال على وجهه، وقال: "إن ياووز رجل متسرع، فعند شروق الشمس، سيكون أول عمل له أن يرسل قسماً من وحداته على وحداتنا ليفقدنا رشدنا، ويختبر بذلك قدرة مدافعنا ومداها، سيكلفه هذا خسارة كبيرة في الرجال. لكنه سيستمر في اختبارنا حتى اللحظة الأخيرة اعتماداً على سرعة فرسانه، وشدة تحمل الجنود الفلاحين، ومبادراته. كما أن موقعنا لا يمنح ياووز إمكانات ملائمة للحصار، إضافة إلى أن الجنود العثمانيين لا يستطيعون أن يقاوموا كثيراً هذا النوع من الشروط المناخية، والأكثر من ذلك، أنه كلما تأخر الهجوم، ظهرت على السطح اضطرابات في صفوف جيشه الذي صار مثل قدر جاهزة للغليان، وفي النهاية، حين يقررون العودة، سنلاحقهم".
قال طومان باي وقد أعمى غضبه عينيه مرة أخرى: "أضف إلى ذلك، أن شخصاً كهلاً مثل عمي سقط شهيداً في ميدان المعركة بسبب سليم. لقد تخلى هذا الرجل عن روح أجداده الفاتحين في أوروبا، وبات يحصد رؤوس المسلمين بدافع من هوس الاتحاد الإسلامي، وهذا ما يؤلمني، ولكن بما أن الأمر على هذه الحالة، فسيكتب التاريخ من جديد من هو خبير الخطط الأكبر، فالجبل يحدّ جانبنا، ونهر النيل الجانب الآخر، وها هو الميدان أمامنا، هيا تعال يا سليم خان، تعالَ لترى من الفتى، وكيف يكون

الشجاع".
عاد الخبير ميرزة بك يقول: "على الرغم من ذلك، فأنا أصر على أن ياووز رجل عبقري، ففي هذه الظروف غير المواتية له، لا يمكن لهذا الرجل أن يهاجم مغمض العينين"، وتمتم في سرّه: بينما كانت خيول ياووز تغزو أوروبا، كنا في معظم الأحيان لا نتردد عن اتفاقات مع أعدائه من أجل مصالحنا الخاصة، لكنه في مثل هذه الأيام يبحث الإنسان عمّا يجعله محقاً.
قال ذلك وهو يعرض لحديث طومان باي عن ترك ياووز ثغور أوروبا، والتفرغ لقتال المسلمين.
اعترض طومان باي فقال: "مهما كانت الظروف، فإن ياووز مضطر إلى التصرف هكذا. إنه مجبر على الانتصار بسبب طبيعة أوجاق (43) الإنكشاريين المدللين، والعصية على الإصلاح، ومن أجل هذا عليه أن يتحرك سريعاً، وسيفضح هذا طبعه العجول، ويدفعه إلى ارتكاب الخطأ، وبإذن الله لن تحل صلاة الظهر إلاّ ونكون قد شتتنا جيوشهم، ونطارد فلولهم".

II

مع شروق الشمس، تحرك الصدر الأعظم خدم سنان باشا، وقد لبس فوق قميصه الأبيض الطويل الشبيه بالكفن صديرية من اللباد، وفوقها لبس درعه ذات السلاسل والألواح البرونزية، وسرواله المصفح بالحديد يغطي ساقيه؛ وبأسلحته المهيبة، كان يبدو محارباً من العصور القديمة، وضع خوذته المطرزة بالذهب على رأسه ورفع يده داعياً، وسيفه يتلألأ تحت أشعة الشمس في ميلادها الجديد، وعلّق ترسه العريض على ظهره، وفي إمرته ثلاثة طوابير من الجنود العزب، وعندما أعطى أوامر الهجوم، بدأت المدفعية أولى رماياتها، وتلقى الرد من رماة مدفعية طومان باي.
بعد فترة قصيرة جداً تيقن أن جميع الهجمات التي ستشن من هذه الجهة ليست إلاّ ضرباً من الجنون. كانت قذائف المدافع المملوكية لا تدع مجالاً ليفتح الجنود العثمانيّون أعينهم، وكانت محاولات الفرسان في الهجوم من الجناحين عقيمة. وبعد الهجمات الأولى، والانسحاب الذي بدا كالهزيمة، أمر طومان باي طوابير الفرسان بقيادة قائديه المخلصين قورت باي وآلان باي بالهجوم. كان هدفه ضرب مركز الجيش العثماني فجأة منذ اللحظة الأولى من الهزيمة. لكن المدافع العثمانية المشدودة إلى بعضها بالسلاسل عادت تطلق نيرانها من جديد، وساد المماليك غموض، وقدر طومان باي الأهمية الحيوية للدقائق الأولى من بدء هزيمة جيش العدو، فدفع المشاة أيضاً إلى الهجوم بدعم من رماة السهام.

كان الصدر الأعظم سنان باشا مضطرباً، فقد استشهد خان القرم الوفي مبارك غيراي، ومحمود بك رمضان أوغلو على التوالي. ولم تأتِه الإشارة المعاكسة التي ينتظرها، ولا يمكنه الانسحاب، واذا استمر الوضع على ما هو عليه فسيكون في موقف حرج أمام سليم خان، ولم يكن أمامه الآن سوى الثبات في القتال. استنفر قسماً من فرسانه الفلاحين، وأمر حَمَلة البنادق، فدفع بهم إلى الجناحين استعداداً لهجومٍ مباغتٍ، وقرر أن يكون في مقدمة الجميع. نعم، سيكون في المقدمة، ولن يخون السلطان الذي ائتمنه شخصياً على أثقال الجيش، وربما يقع سليم خان أسيراً في فخ طومان باي، وربما يقتل في حال حدوث أي تراجع محتمل. بدا وكأنه يختنق في ظل شعور يائس يجعل جبال الجليد تتقدم في عروقه، وتعلقت عيناه بالأفق البعيد، وهو ينتظر.

في النهاية، استلّ الباشا سيفه، وكسر غمده ورماه، ولوّح بسيفه البارد اللامع، يخاطب جنده بصوت حازم: "يا شجعاني، لم يأتِ الخبر الذي ننتظره من سليم خان. هيا نضحي بأرواحنا من أجل ديننا المبارك، ومن أجل سلطاننا، فإن كان حياً ينالنا دعاء سلطاننا، وهل يليق بنا التراجع وقد قطعنا كل هذا الطريق، وكل هذه الأيام، وتحملنا كل تلك الصعاب؟". ثم رمى درعه جانباً، ونادى: "ارفع السنجق".

رفع السنجق، وكان لا بد من الانتظار فترة لتجميع الجنود المبعثرين في بعض النقاط، وبدأ المهتاران يعزف لحنه العسكري، ويرفع من معنويات الجند. لم يكن أحد يدري قدرة هذه القوة على الصمود أمام فرسان المماليك وهجومهم المركز على قلب الجيش، وفي ظل نيران المدافع العثمانية المستمرة، ومهارة حمَلَة البنادق، لكنه كان واضحاً أن ذلك لن يطول كثيراً.

السفوح الجنوبية لجبل المقطم

10.00 صباحاً

ارتبط الجنود ببعضهم بحبال غليظة، وتقدموا في الظلام الدامس من دون ضوء، فنزلوا عند الصفوف الخلفية للمماليك بصمتٍ، وأمضى سليم خان الليلة قارسة البرد بلا نارٍ، تحت حمايةٍ شديدةٍ من فدائييه، وعليه درعه، وهو يقاوم البرد. كان في السابعة والأربعين من عمره، ولم يعد شاباً إلا أن بوجوده بين جنوده كان يبدو في حيوية الشباب.

لم يمر وقت طويل بعد اندلاع المواجهات مع أضواء الصباح الأولى، حتى مالت المعركة لصالح طومان باي، لكن سليم خان كان يتحكّم بالوضع العام من النقطة التي هو فيها، وكان يعرف المقاومة البطولية لسنان باشا، ويركن

إليها، وسرعان ما حدث ما كان يتوقعه، فقد كان معتصماً بالصبر حتى اللحظة الأخيرة، حتى تقوى آمال طومان باي، وترتخي قبضته عن تدبير الأمور.

قال سليم خان مخاطباً جنوده برفقة فدائييه الذين لم يفارقوه لحظةً واحدةً: "سأكون في مقدمتكم يا أولادي، أنتظر منكم صدق صحابة رسول الله الذين لم يتركوه وحده في سفوح جبل أحد، ومن أجل وحدة الإسلام سنبقى معاً إن بقينا أحياءً، وإن متنا فسنموت معاً. اليوم يومكم يا أسودي، اضربوا يا شجعاني، ولا تتركوا أحداً، وليصلح الله أمرنا".

(*)

ما حدث بعد ذلك كان كالأحلام بالنسبة إلى طومان باي، لكنه حافظ على رباطة جأشه بفضل نوابه ميرزة بك وقورت باي وآلان باي. ولو بدت عليه أمارات الاضطراب، لما نجح في الحفاظ على تماسك جيشه.

كان الأتراك ينسلون كالأمواج من سفوح جبل المقطم الجنوبية، وهم يتركون الجيش المملوكي بين نارين. أدرك طومان باي أنه لم يبقَ أمامه خيار سوى عبور الخندق، والخروج إلى سهل الريدانية، وهي فرصته المتبقية للحيلولة دون الهزيمة، ولذلك أمر فرقة الفرسان الخاصة، الذين أقسموا بالولاء للملك الأشرف، بالعبور.

(*)

في اللحظة التي أوشكت فيها آمال الصدر الأعظم سنان باشا على الانهيار، رأى فرسان سليم خان وهم يحاصـرون المماليك من الخلف، فصاح بأعلى صوته: "ها هو سلطاننا وأبطاله، أتتركونهم وحدهم هناك؟! لقد طوقوا العدو، فهيا يا شجعان".

كان الجيش المملوكي يتمسك بالسهل بصعوبة تحت قصف المدافع بعيدة المدى، وأرادوا تدمير الجسور على الخندق، لكنهم لم يتمكنوا، والعمل على تحويل المدافع المربوطة الثابتة وفكها، لم يكن إلاّ حماقة، وبالرغم من ذلك، لم يكن أمام القوات المتبقية التي لم تعبر الخندق سوى حمل أنفسها على هذه المحاولة اليائسة. كان قادة الوحدات يحاولون تجديد انتباه الجنود بالسياط التي في أيديهم، وكانوا يقفون في طليعة القوات في وجه وابل السهام والرصاص والقذائف دفاعاً عن مواقعهم، لكنه كان واضحاً أن هذه الجهود لن تثمر على المدى البعيد، وقد احترق عدد من المدافع، ولم يعد قابلاً للاستعمال مرة أخرى، ومات العشرات من جنود المماليك.

بدأ الجيش العثماني يرمي بكل ثقله، ويحاصر الجيش المملوكي بدءاً من

الجناحين، وقام طومان باي ثلاث مرات بالإشراف على القطاعات التي تشكّل المركز، وبدأت بعض الوحدات ترفع الرايات البيضاء، وأحس بانهيار أحلامه مع انهيار صموده، فغضب كثيراً، فالوقوع بين نارين، وعدم جدوى الاستحكامات التي كان يثق بها، أدّيَا إلى انهيار معنويات الجنود، ولم ينفعه اندفاعه المستميت ليكون قدوة لجنوده، فكانت صورة سليم خان التي لا تقهر تكبر وتكبر في الأذهان كل لحظةٍ، لكن طومان باي بشجاعته التي لا تقبل الجدل، كان ينوي إلقاء ورقته الأخيرة.

III

أخيراً، التقى سليم خان والصدر الأعظم سنان باشا في مركز القيادة. كان سنان باشا يسكب عبرات الفرح، وبدآ بتوجيه الجيش من طرف واحد. في تلك اللحظات، وبمقاومة مثيرة للدهشة، شنت مجموعة من فرسان المماليك هجوماً صاعقاً على مركز العثمانيين تماماً، وبالرغم من الخسائر الجسيمة التي تكبدوها تحت تأثير نيران المدفعية الشديدة، تمكنوا من الانتشار إلى الجناحين، فأصبحوا خارج مدى المدفعية، وبنجاح لم يتوقعه أحد، اجتازوا الجدار الأمني الذي تشكله المدافع. أما رماة البنادق في الصف الخلفي فقد تفرقوا من دون إطلاق رصاصة واحدة أمام هذا الموقف الذي لم يتوقعوه قطّ. كان طومان باي على حصانه يضرب بسيفه بجنون، ولسان حاله يقول: إنها ساحة الانتقام.

تملكت الحيرة سليم خان أيضاً، فالذين يتقدمون نحو خيمته بالصيحات المرعبة من الفرسان الذين ترسم سيوفهم المقوسة ورماحهم أقواساً دامية في الهواء، لا بد من أنهم فدائيو طومان باي. بدأوا يطيحون بجنود القوات الخاصة الذين يلتقون بهم، وهم المستعدون في كل لحظة للدفاع والهجوم بأجسامهم الهائلة المدرعة. أدرك سليم خان أنه لا بد من خوض القتال بنفسه، فاستلّ سيفه وشرع يقاتل.

اندفع خمسون جندياً تقريباً من قواته الخاصة والمحيطون به يصدون الفرسان بصدورهم وأجسامهم المدرعة، وأطاحت خيول المماليك بهؤلاء الشجعان كسنابل القمح وشتّتَتهم. كانت الرماح الطويلة الحادة الشبيهة بذيل الحصان تتكسر على صدور الحيوانات المدرعة، وسيوفهم المتكسرة كأنها قضبان خشبية، كانوا يقعون صرعى بالضربات القاتلة التي تنهال على دروعهم الخفيفة.

في تلك اللحظة، شعر السلطان بيدٍ قوية على ذراعه. حين التفت رأى سنان باشا يمد إليه خوذته المهيبة. كان الباشا كأنما لبس على وجهه قناعاً

أحمر. كانت صفيحات درعه متشققة وملتوية، وفقدت خوذته التي يمدها إليه مظهرها الذي كان لا يقدر بثمن قبل الحرب. رأى سليم خان على وجه وزيره الأول تلك القسمات الهادئة والطرية، وغبطتها التي تظهر على الناس المستعدين للموت دونه. صرخ الباشا، وفي صوته اضطراب الخوف من فقدان محتمل لحبيب: "أسرع، واخلع خوذتك، واعتمر هذه يا مولانا. أوشك العدو على الوصول. لا تعترض، هيا فلا سبيل للتمويه غير هذا، وهكذا لن يميّزوكم، ألم تدهش ملابسكم البسيطة جميع الناس حتى اليوم؟ وستدهش هؤلاء الخونة اليوم أيضاً. إن هذا الشعب يحتاج إليكم كثيراً يا مولانا".

كان سليم خان ينظر نظرة تردد ودهشة حين قال: "كيف لي أن أفديك باسمي؟".

- أسرعوا يا مولانا، أسرعوا، إنكم الهدف الوحيد لهؤلاء، هل تريدون أن تبقى كل هذه الفتوحات ناقصة؟! هل تريدون أن تسقطوا آمال الوحدة الإسلامية كلها هنا في حرّ الصحراء الصفراء الشقية؟ هل تريدون أن تحل الأفراح والأعياد لدى طومان باي والشاه إسماعيل؟! لن أدع ذلك يحدث، هيا اعتمروا هذه يا مولانا السلطان".

كان سليم خان يحسّ بألمٍ مخفيفٍ يصب في فؤاده، ويعكس أخاديد عميقة في وجهه، وصاح بصوت مزلزل لقائد الإنكشاريين القريب منه: "إليّ ببالي بك، وليأتِ فوراً لمساندة سنان باشا"، واستبدل خوذته بخوذة سنان باشا مكرهاً. ولم يكتفِ سنان باشا بهذا فقط، بل ووضع عليه قفطاناً مهيباً، لعله أمر أحداً من جنوده أن يأتي به من خيمته.

امتطى سليم خان حصانه قره دومان، وانسحب سريعاً برفقة فرسانه من غلمان القصر إلى الوراء.

(*)

كادت حنجرة طومان باي تتمزق وهو يصرخ: "اهرب الآن، اهرب الآن يا سليم خان، هيا اهرب لتنقذ روحك إن استطعت".

كان طومان باي لا يزال يتقدم مع نائبه قورت باي الذي كان لا يزال حياً منتهزاً فرصة الحيرة في المركز. كان يعرف أن هذا الوضع لن يدوم طويلاً، لذلك كان يحث حصانه بالمهماز باستمرار. إنه هناك، نعم، كان هناك، وانهال على الصدر الأعظم سنان باشا بسيفه بكل قوته ظناً منه أنه سليم خان. تحطم خليط من حديد ولحم ندي على طرف ساعده المرتعش. وأفلت شعوره بالاطمئنان من بين شفتيه الداميتين على شكل عويلٍ يصعب تمييزه عن عواء الذئاب، وشعر في تلك اللحظة بأن خيار الحياة أو الموت

لم يعد يحمل بالنسبة إليه أي معنى، ومضى في طمأنينة بعد أن صفّى حسابه مع الحياة.
دار قورت باي حوله بدورة مصممة، ثم قال: "سيروا يا ملكنا، فقد نلتم الانتقام، ويمكننا شق الحصار بالفرسان الخمسين الباقين معنا بالسرعة نفسها".
زمجر طومان باي بتكشيرة مخيفةٍ، وقد غطت بقع الدم وجهه: "اسمح لي أن آخذ رأس هذا المسكين يا أخي".
- لا يوجد لدينا وقت يا مولانا، فالحصار يضيق.
صرخ هذه المرة بيأس: "إنك تخطف مني أروع لحظةٍ من حياتي". وتولى قورت باي القيادة، وتحرّك ومَنْ معه فوراً، وتخلصوا من الحصار وهم يحصدون الإنكشاريين.
(*)
لقد تبعثر مقر قيادة الجيش المملوكي في الريدانية تماماً، وتم الاستيلاء على جميع أمتعة وخزائن طومان باي، وكان سليم خان راضياً عن كسب الحرب، لكنه هذه المرة أيضاً كان كئيباً بفقدانه خيرة أصدقائه الأعزاء، وعلى رأسهم صدره الأعظم سنان باشا. استدار إلى صدره الأعظم الجديد يونس باشا، وهو يقول بصوت مرتعش: "لقد نلت عرش يوسف، لكنني فارقت شجاعاً من شجعاني، إنه سنان".
فقد كلٌّ من الجيشين خمسةً وعشرين ألفاً، وبذلك فقد الجيشان نصف موجوداتهما تقريباً. ودخل الجيش العثماني القاهرة في 24 كانون الثاني 1517 من دون أن يواجه مقاومةً تذكر. وقد رأى حراس القصر أن المقاومة لم يعد لها معنى، بعد أن علموا بفرار طومان باي من ساحة الحرب. اضطر سليم خان بإصرار من وزرائه ومن حسن جان، إلى الإقامة في مقر قيادته الذي أقيم خارج المدينة بحجة انعدام الأمن، لأن مواقف الأهالي المهددة تركت في الجنود جواً من القلق. وبما أنهم استسلموا، وطلبوا الأمان، لم تسلب المدينة، ولم تظهر على السكان أي علامة تدل على هزيمتهم.
كانت القاهرة آنذاك من أغنى مدن العالم، وأكثرها خدمة من حيث المرافق، وقدمت لياووز خزائن المماليك العظيمة، وقسماً من الأمانات المباركة، وقد أرسلت المغانم التي كانت من جنس الذهب والفضة، إلى إسطنبول بقافلةٍ مؤلفةٍ من خمسمئة جملٍ، على رأسها الخليفة السابق المتوكل الثالث.
لم يثق سليم خان بسكان القاهرة، وبما أن طومان باي كان لا يزال متوارياً عن الأنظار، فترك ياووز مفرزةً صغيرةً داخل أسوار المدينة للحفاظ

على الأمن، وأجّل دخوله المدينة إلى أجل غير معلوم، وكان محقاً في ذلك. نجح طومان باي في التسلل إلى المدينة من إحدى البوابات الخفية، ومعه قوةٌ مؤلفةٌ من عشرة آلاف شخص، جمعهم من المناطق المجاورة، وعلم من المفرزة التي أسرها في هجومٍ مباغتٍ أن سليم خان لا يزال حياً. إذاً، من الذي قتل؟ كان سنان آخر من ضحى بنفسه طواعية من أجل سلطانه. عندئذ غضب طومان، وشق لباسه، ونتف شعره، ولحيته، وأعطى أمره بضرب أعناق كامل المفرزة العثمانية.

علم سليم خان بالخبر، فاستدعى إليه صدره الأعظم يونس باشا، وقال: "لقد ضقت ذرعاً بهذا الأمر يا لالا. لقد تسبب هذا الرجل بغياب أصدقائي الأعزاء، ولا يزال مستمراً في إزعاجي، خذ معك جنوداً بالعدد الذي تريده، وطهّر المدينة، ولا تعد من دون تطهيرها، وضع حداً لهذه المشكلة".

لم يُضِع يونس باشا وقتاً، فدخل المدينة من بوّاباتها وأسوارها المهدمة بأمر من سليم خان مع خمسة عشر ألفاً من قواته. آثر سكان المدينة من العرب البقاء على الحياد وهم يرون أن هذه تصفية حساب بين الأتراك، وحسناً فعلوا.

كان أتراك الشركس عنيدين، ومصممين في دفاعهم، فكانوا يقاومون شارعاً شارعاً، وبيتاً بيتاً، وغرفةً غرفةً، وبدأ الدم يجري سيولاً حمراء في شوارع المدينة، ولما رأى سليم خان أن الأمر طال أكثر من اللازم، أمر في اليوم التالي بحرق المدينة، فتجول جنود الإنكشارية في ساعات الصباح المظلمة في الشوارع، وأضرموا النيران في عدة نقاط في آنٍ واحد. وحين بدأت أضواء النيران تضيء السماء بدأت المقاومة تخمد. وجاء المبعوثون إلى سليم خان يطلبون الصلح، فاستقبلهم بحفاوة، واستنفر الجنود لإطفاء الحرائق.

أخيراً، وبعد يومين، خرج طومان باي سراً من مسجد حوّله إلى قلعة لجأ إليها، ودافع عنه ببسالة، وانسحب خارج المدينة مرة أخرى. لكنه كان هذه المرة يلبس ثياباً مستعارة، وغاب بين الجموع وهو يجر رجله كمتسوّلٍ شحاد. في نهاية اليوم التالي، عاد الصدر الأعظم يونس باشا جريحاً، وجاء إلى خيمة السلطان بعد صلاة المغرب ليلتقي بالسلطان، ويعلمه أنه لم يتمكن من القبض على طومان باي، لكنه طهّر المدينة. رأى سليم خان حال يونس باشا الذي حارب ببسالة، وحدّ من غضبه، فقال: "ليكن كذلك يا يونس باشا، لكن اعلم أننا ما لم نلقِ القبض على طومان باي، فإن حكمنا لن يدوم في هذه البلاد. إن هذا الأمر يشبه عودة الشاه إسماعيل إلى تبريز مجدّداً، واستمرار نفوذه فيها".

لم يكن القبض على طومان باي ممكناً؛ كان يهاجم طرق النقل الممتدة إلى المدينة، ويهاجم الدوريات، ويُغير في الليل، ولم يتخلَّ عن حرب العصابات. كان يقول: "يقيناً سينسحبون ويذهبون، سينسحبون كما انسحبوا من تبريز، ولن يظلوا هنا أبداً".

لكن طومان باي كان مخطئاً هذه المرة أيضاً، ففي 26 آذار توشح سليم خان سيفه ودرعه، ليحل بنفسه هذه المسألة، وسرعان ما انتشرت أنباء الحملة الكبيرة في المنطقة. وبدأ طومان باي يرى أن بعض رجاله لم يكونوا مخلصين بقدر ما كان يظنهم، وعلم أن أمراءه بل وحتى رجاله المقرّبين جاؤوا يستسلمون الواحد تلو الآخر مقابل وعد بالمال والمنصب، ويدخلون في خدمة العثمانيين، وعندما علم أن أقرب رجاله جان بردي غزالي غادر القيادة سراً في الليل، انهار إلى الدرجة التي أدرك فيها أنه لم يعد من حلٍّ إلاّ الاستسلام.

بالنظر إلى طبعه الشكوك والعنيد، لم يكن يثق بياووز، فاستقبل المبعوثين الذين جاؤوا إليه برسائل الأمان باحترام أولاً، لكنه قتلهم خنقاً على المائدة التي كانوا عليها، ورمى أجسادهم إلى الطيور الجارحة، ثم غاب عن الميدان مرةً أخرى مع ثلاثة آلافٍ من جلاديه، كان هدفه السير جنوباً على امتداد النيل، واللجوء إلى القبائل المحلية طالباً عونهم، والوصول إلى ضفاف إفريقيا الوسطى، لكنه كان حلماً لم يتحقق كما كان يأمل. فكم من قبيلةٍ أوجعتها الدولة المملوكية في وقتها، واستولت على أموالها فباتت هذه القبائل تحوم حوله مثل طيور الرخمة الجارحة. لم يبتعدوا كثيراً فقعدوا على مسافة يوم من القاهرة، ولم يمضِ وقت طويل، حتى بلغ نبأ مقامهم سليم خان عن طريق الجواسيس المحليين، وتحرك علي بك شاه سوار أوغلو على رأس عشرة آلاف شخص، ووصل إلى طومان باي في 30 آذار، وطوّقه.

IV

صرخ طومان باي بيأس في وجه ميرزة بك الجريح قائلاً: "هل يظن هؤلاء أنهم سيتمكنون مني حياً؟". وبما أن ميرزة بك لم يكن يملك مقاومة بدنية تكفي لتحمّل هذه الجروح سقط منهك القوى. فنزيف الجرح الغائر الكبير في ذراعه اليسرى لم يتوقف، ولم يعد قادراً على ركوب الخيل. وما كان طومان باي يريد ترك صديقه وقائده المخلص هناك قطعاً.

- "فعلتم ما في وسعكم يا سلطاني، ولم نعد نستطيع إلاّ الاستسلام راضين بما قدره الله". رد طومان باي على نائبه بصوت كسير: "حتى أنت تقول هذا يا صديقي القديم؟! ماذا تظن أن ياووز فاعل بنا إن تمكن من

القبض علينا؟ هل سيبقينا على قيد الحياة؟! ألن يأمر بضرب عنقي أولاً، ثم عنقك؟!...
- يمكننا إعلامه بقبول شروطه، فمن ورائنا نهر النيل، ومن أمامنا جنود شاه سوار أوغلو. فإما أن نستسلم، وإما أن نغرق في مياه النيل المظلمة.
وضع رأسه بين يديه وبدأ يهزّ جزعه إلى الأمام والخلف ثمّ قال: "أقبل أن أكون عبداً ذليلاً في وطني، أليس كذلك؟! لعلني أشغلهم حتى شروق الشمس، ريثما أجد طريقاً".
جاء صوته قوياً هذه المرة كما كان في أيامه الخوالي، وربما قاطع كلام أحد سلاطينه للمرّة الأولى في حياته: "يا سلطاني، انتهى كل شيء".
فكّر طومان باي لبرهة، ثم دعا علي بك شاه سوار أوغلو إلى خيمته لمناقشة شروط الاستسلام.
(*)
في الحادي والثلاثين من آذار، استقبل سليم خان عند مدخل القاهرة، وفي مراسم مهيبة، الملك المملوكي السابع والأربعين. استضافه كما لو كان لا يزال صاحب عرشه في شكل مهيب. وطيلة الأيام الخمسة عشر من استضافته ضمدت جروحه، وجروح رجاله، وأقيمت لهم مآدب فاخرة، ولكنه في الساعات المبكرة من صباح اليوم الخامس عشر وجد أمام خيمته علي باي شاه سوار وذو القادر أوغلو.
كان طومان باي لا يزال ناعساً: "تفضّل يا علي باشا! خيراً إن شاء الله في هذه الساعة المبكرة، لم يحن وقت الإمساك بعد".
سأل شاه سوار أوغلو وعلى وجهه الناعس المتوتر بسمة مصطنعة: "أسمعتم اسم أبي شاه سوار باي؟!".
أغمض عينيه، وفرك وجنتيه، واستقام طومان باي: "ماذا يعني هذا الآن يا باشا؟".
- أسمعت أم لم تسمع؟!
سعل طومان باي بخفة محاولاً كسب الوقت: "طبعاً سمعت، يقال إنه كان ذا فراسة ودراية ورأفة".
همهم علي بك بهدوء قائلاً: "قبل خمس وأربعين سنة تماماً، قتل ملككم المقبور قيتباي أبي شاه سوار بك بسبب إخلاصه للعثمانيين".
وساد صمتٌ قصيرٌ قبل أن يسأل باضطراب: "أجئت في هذه الساعة من الليل، لتجادلني في حادثةٍ وقعت قبل نصف قرنٍ أيها الباشا؟".
أخرج شاه سوار أوغلو الخنجر من خصره وهو يقول: "لا، لم آتِ من أجل

الجدال". وأضاف وهو يحدّق بعينيه الدمويتين إلى عيني طومان باي اللتين تدركان كل شيء: "بل جئت لأنتقم له بهذا الخنجر الذي استخدم في قتله".

قاوم طومان باي جيداً، حتى أصابت قبضته المدرعة فكه، فانهار جسمه المرهق البائس هناك. حاول ميرزة بك الذي سمع صوت العراك في الخيمة المجاورة، الفرار، لكنه قتل من قبل الجنود الإنكشاريين الذين دخلوا الخيمة، وعُلِّق جسداهما على باب الزويلة في القاهرة، وشُهِّرَ بهما حتى مساء ذلك اليوم.

(*)

بعد هذه الإعدامات التي صادق عليها سليم خان شخصياً، لم تعد هناك أيّ قوة تقف في وجههم في المنطقة. طبعاً، لم يتردد سليم خان في القضاء حتى على إخوته وأبناء إخوته في سبيل القضاء على الازدواجية في الحكم، وما كان يمكن التفكير في السماح لطومان باي بالبقاء على قيد الحياة، وكان محقاً في ذلك منذ البداية.

وفي السادس عشر من نيسان، دُفِن طومان باي آخر سلطان مملوكي، في مراسم جنائزية عظيمة، مثلما استقبل عند دخوله المدينة. حمل سليم خان التابوت بنفسه وأمر بإقامة ضريحٍ عظيمٍ له، وأمر بتوزيع الذهب، والأرزاق ثلاثة أيام على الفقراء على روح المرحوم السلطان. وبهذا، اندثرت دولة المماليك، إحدى أقوى دول زمانها في التاريخ، في وقت لم يكونوا يتوقعونه قطّ.

V

من يوميات حسن جان:

الأربعاء 14 جمادي الأوّل 923

رست سفن الأسطول الهمايوني القادم من إسطنبول بمراسيها في الإسكندرية في احتفال عظيم محملة بالأطعمة والمهامّ الأخرى، وتنفس الجيش والسلطان الصعداء، لأن التأخر يكون إما بقطع الطريق من جهة المماليك، وإما بإتلاف ما في السفن خشية وقوعها في أيدي الأعداء، وهذا التأخر يقلق الجنود كثيراً. فهذه السفن المئة كان السلطان سليم قد طلبها محملة بالأطعمة والأرزاق في شهر ذو الحجة من أمين إسطنبول بيري باشا، وتأخرت بسبب تجمد مياه البحر في الخليج في هذا الشتاء القارس، ولم تتحرك السفن إلا بعد ذوبان الثلوج في 4 ربيع الأول.

كان السلطان سليم يكرر دائماً قوله: "إن الدولة التي لا تكون قوية في

البحر لا تدوم قوتها وسيطرتها". ولذلك كان الإجراء الأول الذي قام به في هذه المرحلة الساكنة، هو الأمر ببناء أحواض جديدة في الوطن الأم والبلدان التي افتتحها وضمها إليه، لبناء السفن، وتزويدها بالمدافع الحربية، ولهذا الغرض جمع مهرة الصناعيين والخبراء، وأمدّهم بالقوة المادية والمعنوية. وجمع حاشيته والوزراء، ولم يتردد في النزول إلى الإسكندرية، والقيام برحلة على طول ساحل البحر الأبيض المتوسط ليحدد أماكن الموانئ الجديدة على سواحل مصر منطلقاً من نهر النيل العظيم، فأمضينا مع السلطان خمسة عشر يوماً رأينا فيها عجائب هذا النهر، فرأينا التماسيح الكبيرة التي تأكل البشر، والطيور المتنوعة بألوانها الجميلة وأصواتها البديعة، والمدن القائمة على ضفّتي النيل، والتي لم تنتشر كثيراً بسبب حوضه الضيق، وانعقدت ألسنتنا أمام المعابد القديمة التي تأخذ مكانها في شرق النيل، والقبور التي تنتشر غربه. وتجولنا في مدن كبيرة وصغيرة متناثرة على ضفّتي دلتا النيل، فآلمتنا أحوال الناس البائسة المعدمة الفقيرة، فمنهم الموبوء ومنهم المجزوم، وكأن المماليك لم يعرفوا هذه القرى، ولم يمروا عليها قطّ، فأمر السلطان سليم بإعمار هذه المدن وإرسال الأطباء إليها.

الجمعة 28 جمادي الثاني 923

في السابع عشر من تموز، في جوه الحار، قدم ابن شريف مكة حاملاً معه الأمانات المباركة ومنها مفاتيح الكعبة والروضة الشريفة، وقدّمها للسلطان سليم، وبذلك أصبح الحجاز داخلاً في الدولة العثمانية العظيمة.

أصبح الصدر الأعظم يونس باشا والياً على مصر، وأبقى السلطان مكانه في الصدارة شاغراً حتى يخرج من مصر، وكان يفكر في أن يجعل بيري محمد باشا صدراً أعظم بعد يونس باشا، وربما يتغير رأيه في اللحظة الأخيرة، ففتح ذلك لجدل ونقاش وتوتر كبير بين الوزراء والباشوات.

السبت 12 شعبان 923

فجأة، عيّن السلطان سليم خير باي صدراً أعظم مكان يونس باشا، وخير باي كان من رجال قانصوه غوري، وأمير أمراء حلب. وعزل يونس باشا من ولاية مصر، وعين عليها بيري محمد باشا. ويونس باشا، الذي قدّم للدولة العثمانية الكثير من الجهود والعظيم من الخدمات، عندما سمع بهذين التعيينين الجديدين طاش حجره، وغضب غضباً شديداً، وعندما عين السلطان سليم جانبردي غزالي أميراً لسنجق القدس بعد أن كان والياً على طرابلس الشام (لبنان)؛ أدرك أن سليم خان لم ينسَ موقفه المزدوج وتردده قبل حملة مصر.

لكنه لم يتمكن من الحفاظ على صمته وصون لسانه، وانتقد في المجلس الهمايوني علناً تعيين هذين الخائنين في منصبين هامين، وبلغت به الجرأة أن خاطب السلطان قائلاً: "لو كنا نعلم بأنك ستولي على مصر هذا الشركسيّ لما تعذبنا هذا العذاب كله في صحراء سيناء ومات نصف الجند في سبيل الوصول إلى مصر". لقد كان ليونس باشا أيادٍ بيضاء على الدولة العثمانية، لكن الجميع يمكنهم أن يتغيروا في نظر السلطان سليم. وكان رأس يونس باشا هو الثمن الذي دفعه بسبب موقفه هذا.

الخميس 2 رمضان 923

دخل البحر الأبيض المتوسط تحت سيطرة الدولة العثمانية تماماً، فبعث تجار البندقية مبعوثين إلى السلطان سليم يهنئونه بهذا الانتصار العظيم، وكذلك فعل أهل قبرص الذين كانوا يؤدون الخراج للمماليك، وصاروا يدفعونه للعثمانيين. كما وفد إلى السلطان مبعوث الفاتيكان الكاردينال لويجي دو لاسيو يهنئ السلطان بفتوحاته وانتصاراته، وتحدث أيضاً عن مؤسس الكنيسة البروتستنتية مارتن لوثر وخطورته، وما تسبب به من انخفاض الزبائن الراغبين في شراء صكوك الغفران من البابا، وأخبره عن كساد العمل في الكنيسة حتى كدنا نتصدق عليه من كثرة ما بكى واشتكى. وتحدث متقنعاً بقناع الدهشة والاستغراب أن مارتن لوثر سينشر للناس بياناً (مانيفستو) في مكان عام.

سأله السلطان سليم قائلاً: "كم يساوي مكانٌ جميلٌ ذو منظرٍ خلابٍ في الجنة؟!". فاندهش الحاضرون في المجلس من هذا السؤال. فقال الكاردينال بكل جدية ومتانة: "ليس من السهل الحصول على هذا المكان، ولكن إذا صرت نصرانياً لفترة، وتبت واعتنقت ديننا، وتصدقت للكنيسة بالمال، عندها ربما تنال مثل هذا المكان، ولكن بابا الفاتيكان وكذلك بقية القديسين سيكونون كرماء مع أمثالكم من حكام أقدار الشعوب".

ضحك السلطان وقال معاتباً: "تتهمون مارتن لوثر بأن لا دين له، لأنه تصدى لتجارتكم، ووقف أمام استغلالكم للناس، أليس كذلك؟!".

"إنها قواعد الكنيسة".

"ليس لذلك علاقة بقواعد الكنيسة القديمة يا كاردينال، بل يتعلق بالوضع الذي نشأ بسبب الحملات الصليبية التي لا تعرف النهاية، والبذخ والرفاهية اللذين سعى إليهما الفاتيكان، وقيامهم بالاقتراض من المرابين اليهود. فلا تخدعوا الناس بالإجراءات التي لم تكن موجودة حتى عام 1200، وتزعموا إنها تعتمد تعليمات الدين القديم، فالفقر والبؤس لا ينالا سوى الشعوب

الأوروبية في النهاية. وبهذا يكون النقاش قد انتهى هنا يا كاردينال. بلّغ تحياتي للبابا ليو العاشر، فإنه ألطف من سلفه جوليوس. وأتمنى أن يتراجع عن أخطائه".

الأربعاء 22 رمضان 923

أخيراً، وبعد ثمانية أشهر من الإقامة في القاهرة، بذلها في تأسيس النظام الإداري والعمراني، استطاع قاضي عسكر الأناضول الشيخ كمال باشا زاده الذي يجلّه السلطان، أن يقنع سليم خان بالخروج من القاهرة. ففرح الجميع بهذا القرار لأن الإرهاق والتعب كانا قد نالا من الجميع. كنا نجلس بعد صلاة التراويح مع السلطان نلعب الشطرنج، وكان يحدثني دائماً عن الشاه إسماعيل، وعن الحساب الذي لم يغلق بعد بينهما، فكنت أظن أنه سيمضي الشتاء في الشام، ويهاجم الشاه إسماعيل في الربيع.

تكلم السلطان مع شيخه ببعض الأمور من غير إفصاح تام، لكنه من السهل أن تتوقع خطوات إنسان تعرفه. لكن السؤال الذي كان يشغل بالي، حانت فرصته لأسأله للعالم الجليل الشيخ كمال باشا زاده، فقلت: "السلطان سليم حساس جداً في القرارات التي يتخذها، فإذا اتخذ قراراً، فإنه لا يحب من أحد أن يراجعه فيه، فكيف أقنعته بالخروج من القاهرة؟".

قال بصوته الجميل، وهو يضع على رأسه عمامته الكبيرة: "من معرفتي بقوة استخبارات السلطان وتجربته وعمله المنظم، أدرك أن السلطان يسألني السؤال وهو يعرف الجواب، فقد سألني مرة عما يدور بين الجنود، فقلت له: يا مولانا السلطان شغلتني ذات يوم مسألة فقهية، فخرجت أمشي، حتى ابتعدت كثيراً، فرأيت جمعاً من الجيش يسقون الأغنام من النيل، وسمعت أحدهم يترنم بصوت حزين، ويعبر عن حسرته وشوقه إلى الأناضول، وتمَلَّكَتني حال لم أدرِ ما جعلني أسبح بخيالي بعيداً. على أيّ حال، فإن السلطان سليم حدّثني بعد يومين عن الملاّ لطفي أفندي طوقاتلي المقتول، وذكرنا مآثره وترحمنا عليه. ثم سألني: من الذي يتجرأ على قتل هذا العالم الكبير؟ وما السبب في ذلك؟ فقلت له: حِقدُ أقرانه عليه وحسدُهم له، فإن أعداء العلماء الكبار كثيرون، فهم كالشجرة المثمرة، يرميها الناس بالحجارة وهي تعطي الثمار. وشيخنا الملاّ لطفي كان ضحية الافتراء. هز السلطان سليم رأسه بحزن وقال: لقد كان رحمه الله مرحاً ومزوحاً، حتى الذين يستمعون إليه لا يشكون في صدق لطائفه. ثمّ سألني فجأة: وهل أنت مرح مثل شيخك وأستاذك؟! أقلقني سؤاله وحيرني، وكأنه يشك في أمر من الأمور، وأظنه تحقق من الكلام الذي أخبرته إياه، ولم

يترك الكلام على عواهنه، وكنت أعلم أنه لا يحب التهرب من السؤال، فقلت له: لقد فعلت ما وجب عليّ فعله، والباقي عليك. فقال مبتسماً: لم أنسَ حديثك لي عن الجنود وأغانيهم وأشعارهم يا شيخي. فعلمت عندها مقدار تأثره بالمخلصين الصادقين. ثم قال: ما كان ينبغي لتلميذ الشيخ الملاّ لطفي إلا أن يكون شيخاً فاضلاً مثلك، فهنيئاً لك. وأعطاني مئة ليرة ذهباً".

السبت 2 شوال 923

حادثة أخرى تستحق التسجيل جرت بين السلطان سليم والشيخ كمال باشا زاده؛ حادثة تبين تواضع السلطان سليم للعلماء، ونموذج سيبقى ذكره ما دامت الدنيا قائمة.

فهذه الحادثة ربما أرويها فقط لأولئك الذين لا يعرفون أن السلطان يحب البسيط من اللباس، لكنها ربما كانت تتسبب بنهاية مأساوية في نظر من يعرف حساسيته ودقته في النظافة. ففي اليوم الثاني من رمضان كان الجيش يسير، والسلطان سليم وشيخه كمال باشا زاده راكبين في مقدمة الجيش، وأنا أسير خلفهما، فسمعت ما دار بينهما من حديث. فقال السلطان: "لو أن أبي رحمه الله قبل عرضَ البحّار كريستوف كولومبوس عندما جاءه، ولم يرده لكانت هذه الاكتشافات التي قام بها كريستوف تنسب إليه اليوم، لأن السيطرة على العالم من دون السيطرة على البحار ضربٌ من الخيال".

فقال الشيخ: "أميريكو فيسبوتشي هو الذي حثّ الناس على هذا الاكتشاف عام 1507، فهو أول من رأى بأن سواحل أميركا الجنوبية ما هي إلا قارة جديدة، بينما كان الجميع حتى ذلك الوقت ومعهم كريستوف كولومبوس يظنون أنها امتداد لآسيا، ولم يكن أحد يظن إنها قارة جديدة، واكتشاف بارتولومو دياس ومن بعده فاسكو دو غاما رأس الرجاء الصالح والدوران حوله إلى سواحل آسيا الشرقية، سيكلفنا كثيراً في المستقبل. نعم، لقد استولينا على مصر، وسيطرنا بذلك على طريق التوابل، ولكن البرتغاليين الذين لا قِبَلَ لنا بهم ولا للصفويين ولا للمماليك؛ يخوضون غمار بحرنا الجنوبي ويصلون إلى الصين، ويغيرون بذلك طريق التوابل. فأخشى أن تتعرض الموارد التجارية للدولة العثمانية للانقطاع أو على الأقل للتراجع، وتشهد أوروبا نمواً، وأيضاً نهضةً سريعةً".

بدأ سليم خان يقرأ بعض أشعاره الحزينة التي يبدو أنه كتبها حديثا: "الملك لله، فمن يغتر بنصر يصيبه، ويتعالَ على الناس ويظلم، فسيذله الله. وعلى أي شيء يغتر من يغتر؟ ألا يكون شريكاً لله من يزعم أنه يملك

قدر أصبع من الأرض؟".
عندها كنا قد بدأنا نجتاز أرضاً موحلةً، وفجأةً جفل حصان الشيخ كمال باشا زاده، وشب على قائمتيه، فتناثر الطين من حافريه على جبة السلطان، وكاد أن يصل إلى وجهه لو أنه لم يكن حذراً، جمد الدم في عروقي، وخشيت من غضب سليم خان؛ فلم ينسَ بعد كلام الشيخ الصريح عن حزن الجنود ومعاناتهم، حتى جاءت هذه الحادثة، ولن أنسى ما حييت وجه الشيخ الكسيف من الخجل والحياء، لكنني لن أنسى أيضاً ابتسامة السلطان الذي أقبل على الشيخ وهو يقول: "الطين الذي يتناثر على جبتي من حصان عالم مثلك، مفخرةٌ وشرفٌ لي، وصيتي أن تجعلوا هذه الجبة فوق نعشي".
الخميس 25 شوال 923
في هذا اليوم الموافق 22 تشرين الأول دخلنا مدينة دمشق، كان السلطان ينوي أن يمضي الشتاء في هذه المدينة معتدلة الهواء، وذات ليلة ماطرة، أخبرني أنه سيبحث عن قبر الشيخ الأكبر محيي الدين بن عربي.
كانت الظروف الصعبة التي تمر على جنود السلطان قد أرهقتهم، لكنهم اطمأنوا قليلاً هنا في هذه المدينة معتدلة الصيف والشتاء، لكنهم يعلمون أن السلطان يمكنه أن يهاجم الشاه إسماعيل في أي وقت، لأنه حازم لا يراجع في قرار، ولا يتراجع عنه، ولو أدى ذلك إلى ذهاب الغنائم وقطع الرؤوس. ولم يكد يمضي وقت طويل، إلا ومبعوثو الشاه إسماعيل يدخلون على السلطان محملين بالهدايا العظيمة، وسر بذلك الجيش واطمأنوا قليلاً، فالشاه لم تكن تخفى عليه نية السلطان، فقدم المبعوثون له الهديا ودفعوا له رسالة الشاه:
"أعلم أنك تملك الآن مدناً كثيرة، ولك أتباع كثر، خاصة بعد فتح مصر، وأصبحت خادم الحرمين الشريفين. فأنت الآن إسكندر الأرض، وما كان بيننا في ما مضى فليبقَ في ما مضى، ولا يتجدد ثانية، عد إلى بلدك، وأرجع إلى بلدي، ولنحقن دماء المسلمين، فما تريده وتسعى إليه، أحققه لك".
الاثنين 8 ذو الحجة 923
صحيح أن السلطان لم يأبه لكلام الشاه إسماعيل، لكن جيشه المرهق جعله يفكر في الرجوع إلى إسطنبول، فأرسل فرقة كبيرة من الجند بقيادة الصدر الأعظم بيري محمد باشا إلى ديار بكر، ليأمن غدر الشاه إسماعيل، ولما رأى السكون والهدوء من قبل جند الشاه إسماعيل قرر أن يغلق دفتر الحساب بينهما مدةً من الزمن.

الاثنين 12 محرم 924

لم ينسَ السلطان سليم الحديث الذي يسند إلى الشيخ الأكبر محيي الدين بن عربي: "لن تعرفوا حقيقتي حتى يدخل السين بالشين"، وكان في رأيي أن حرف السين هو سليم وحرف الشين هو الشام. ففي هذه الأشهر الأربعة جمع السلطان الكتب الموجودة وبحث فيها هو والمهندسون وقادة الهندسة العسكرية جميعاً، ولم يذهب بحثهم وتعبهم عبثاً، فوجدوا قبر الشيخ الأكبر محيي الدين بن عربي في الغوطة جانب دمشق على سفح جبل قاسيون بين وادي بردى وحلبون، وأمر ببناء مسجد بجواره.

الأربعاء 15 جمادي الثاني 924

بلغنا أجمل أيام الصيف، كنا نمشي وسط بحر من الأزهار والمروج والحدائق، يصطف الناس على الجانبين ليروا سلطانهم المظفر ولو لمرةٍ واحدة في حياتهم، وتمد موائد الضيافة في القرى والمدن الكثيرة التي نمر بها، ويتقبل السلطان الهدايا التي يقدمها أغنياء البلد على حياء، ويقدم عطاياه بسخاء، ويتخذ قرارات جديدة صارمة في حق المتمردين وقطاع الطرق، وكان ينبغي له أن يستمر في السير حتى يبلغ مقر الحكم من دون قبول أي دعوة جديدة.

الجيش مسرور والطاعة مطلقةٌ إلى حدّ لم أره من قبل، ويستمر بملاحقة الأشقياء وقطاع الطرق واللصوص الذين فرضوا على الناس خراجاً وأتاوات وهم يظنون الجيش في غاية التعب من سفره الطويل فيأمنونه. ألقي القبض على الكثير منهم، والسلطان لا يتردد في أخذهم بالشدة في سبيل إحلال الأمن وطمأنينة الناس.

عندما ألقينا القبض على بعض اللصوص في أماسية، تحدث أحدهم بحديث خشع له السلطان سليم وهو يبكي، وهو يرى أن رجلاً من الأولياء بالقرب منهم، لكنه لم يعثر له على أثر.

قال أحد اللصوص إنّه ضحية افتراء وبهتان، وإنّه تاب عن السرقة والمحرمات قبل مدة من الزمن، لكن أصدقاءه من اللصوص افتروا عليه وبهتوه انتقاماً منه ومن توبته، وحقق السلطان سليم في أمره؛ لقد دخل الشاب بيت رجل مسن يعيش وحيداً من أجل السرقة، فوجده يصلي ولم يجد في البيت شيئاً قيماً للسرقة، فجاء إلى الشيخ الكبير وقطع عليه صلاته وفتشه، ولم يجد معه درهماً ولا ديناراً، فقال له الشيخ: "يا بني، إن الأمير وضع عندي مبلغاً من المال أمانة حتى عودته من الحج، لكن لصاً مثلك جاء البارحة، وأخذ المال. اصبر فلعل الله يفتح لك باباً حتى الصباح".

دهش اللص الشاب من تصرفات الشيخ الكبير وفقره الشديد، وقرر الخروج من عنده، فالتقى بشخص مجهول على الباب ربما كان يريد الدخول من أجل السرقة، وعرفا بعضهما كما يتعارف أصحاب المهنة الواحدة على بعضهم. كان اللص الجديد متوسط العمر مربوعاً، وقال بغضب: "إياك أن تعود إلى هذا البيت مرة ثانية، وإن عدت لأدق عنقك، هذا الرجل الكبير يستحق أن تلزم يديه ورجليه وتقبّلها. فقد جئت قبل يومين إلى هنا مثلك أريد السرقة، فأعطاني ما عنده من المال الذي أخذه من الأمير. وقال لي: وزّع هذا المال لمن يستحقه من الفقراء والمساكين. فأخذت المال وفكرت يومين كيف أخذت المال من رجل هو أحق الناس به، فندمت، وعدت لرد المال، ولم أصرف منه درهماً واحداً، وإن فكرت في أخذ هذا المال، فإنني أول من سيضرب عنقك". عندها قال اللص الشاب: "لقد قال لي الشيخ الكبير: اصبر فلعل الله يفتح لك باباً حتى الصباح، وأظن أن هذا الباب هو المال الذي أتيت به الآن، فتعال ندخل على الشيخ، ونتوب على يديه، ونلتمس منه الدعاء". فاستقبلنا الشيخ بابتسامةٍ ودعا لنا، ولم يأخذ المال، بل أمرنا أن نتاجر به، ونستغني به عن الحرام. فبارك الله لنا في تجارتنا الصغيرة حتى أصبحت كبيرةً، لكن أصدقاءنا القدامى اتهمونا زوراً".

كان السلطان سليم يستمع إلى كلام الشاب بعينين دامعتين، ولما تحقق من كلامه أطلق سراحه، لكن الشيخ الكبير لم يُعثَر له على أثر.

الأحد 18 رجب 924

أخيراً، بعد مسيرة شهرين من الشام بلغنا إسطنبول وعسكرنا في كبزة خارج إسطنبول في 25 تموز 1518 حسب التقويم الإفرنجي، التي غبنا عنها عامين وشهرين. خرج الأهالي يستقبلون الجيش المظفر كما حصل عند عودتنا من حرب جالدران، فأضاءت المشاعل شوارع المدينة، وارتفعت أصوات الدعاء في المساجد حتى بلغت آذان الجند، وكنت ألعب الشطرنج مع السلطان، فكان يخسر لكثرة انشغال ذهنه بمراسم الاستقبال التي لا يحبها حتى بعد انتصاراته الكبيرة التي ضاعفت حدود دولته أكثر من ضعفين. كان تواقاً إلى العودة إلى وحدته، وانغماسه في بحار كتبه.

يومها قال لي إنه بقي له في الحياة أهداف ثلاثة كبيرة. استغربت لصراحته وهو الكتوم، وشدّت انتباهي صراحته في أمور كان شديد الكتمان فيها: أولها؛ سحق الدولة الصفوية، وإزالتها تماماً عن وجه الأرض. وثانيها؛ إظهار قوة المسلمين وشجاعتهم في أوروبا. وثالثها؛ الاستيلاء على طرق التجارة البحرية وتخليصها من أيدي البرتغال والإسبان، والسيطرة عليها.

كان يمضي أيامه بأكملها من أجل تحقيق أهدافه المستقبلية، ولذلك تجده قلقاً ومضطرباً في جميع الأوقات. وهذا ما جعله يلوم ولده وولي عهده سليمان أمام الناس عندما دخل عليه في مجلسه وهو يلبس جبة مرصعة بخيوط الذهب والفضة، وهو يقول: "وماذا تركت لأمك بلباسك هذا يا ولدي؟". فخجل سليمان كثيراً أمام الناس، وقبل يده، ثم انصرف.

قال لي أيضاً: "الخزائن الفارغة التي ورثتها عن أبي يا حسن جان قد امتلأت بحمد الله وفضله، لكننا لسنا مخلدين في الحياة، ولذلك علينا أن نبني اقتصاداً سليماً ومستقراً حتى تستمر مكانتنا في العالمين في هذه الحياة، فحين يسقط المرء تتكاثر عليه الطعنات.

كان السلطان سليم يرد كل رجاء لخروجه على الناس والسلام عليهم، فقلت له: "هلا خرجت إلى المسلمين وقد جاؤوا للسلام عليكم يا مولاي؟!"، فقال لي: "يا حسن جان، ألم تكن معي أيام القوة وأيام الشدة وأيام كان أصدقاؤنا وأحبابنا ينهارون في الطريق؟! أنسيت يوم ظمئنا وجعنا، ويوم بردنا وحررنا من أجل هذا الدين؟ أنضيع ثواب تلك الأيام من أجل تحية مليئة بالغرور؟ فليقل الناس ما يقولونه، فالله يعلم نياتنا وسرائرنا، فنحن لا نبتغي سوى رضاه، وليبقَ هذا سراً بيننا".

الاثنين 19 رجب 924

في الصباح علمت أن السلطان استقل سفينة شراعية من ميناء ديل كما فعل في المرة الماضية، وتسلل إلى قصره. كنت في الواقع أعيش مع سلطانٍ حازمٍ قاسٍ شديدٍ في أحكام وقرارات الدولة، وكنت في الوقت نفسه مع شاعر عظيم عاطفيّ في حياته الخاصة، وكنت أتمتم في سرّي أحياناً: لو أن الشاه إسماعيل القوي الشاعر مثله كان على اتفاق معه؛ لركعت أمامهما الدنيا بأكملها.

20 أيار 1519م، روما؛ الفاتيكان

"أمر سليم خان بإجراء تحقيقات حول المحرضين على التمرد داخل الجيش بعد الحملة على مصر، لكنه كان رحيماً أكثر هذه المرة". كان الكاردينال أنطونيو دو مديشي يتحدث بهذه الكلمات وهو يرفّ بعينيه الحمراوين، ويندس في جبته الفاخرة المصنوعة من الحرير الهندي الأسود، والمزركشة المذهبة كتمثال. وكان الكاردينال ابن عم البابا، وكان يسري خلف الكواليس أنه بابا المستقبل.

ساد الصمت بينهما قليلاً عندما كان يصل إلى أسماعهما تبديل نوبة الحراس السويسريين ببدلاتهم الزرقاء والبرتقالية والحمراء. ثم هدأت تلك

الأصوات أيضاً ولم يعد يسمع في الساحة التي تغلي من شدة الحر سوى أصوات أجنحة الحمام المرفرفة.
اشتم البابا ليو العاشر شرابه مرة أخرى وارتشف رشفة وهو يقول: "نعم، لقد بلغ عمره الكمال". كان يعرف الشراب الصافي، وكانت حاسة الشم لديه حادة قويةً. همهم داخل عباءته المصنوعة من الحرير الفارسي الأحمر الخالص مثل قطة سعيدة: "ألا نتكلم عن رجل في الخمسين من عمره تمزق في ساحات الحرب؟". لم يلاحظ ميل قبعته جانباً، فالشراب كان يؤثر في رأسه قليلاً، فتح ياقة قميصه القطني الطويل الفضفاض، واستدار بوجهه الممتلئ الأحمر يستقبل هواء الربيع الذي يملأ الجو من النافذة، وأغمض عينيه. كان يحاول التلذذ بكل قطرةٍ من السائل الياقوتي الموجود في الكأس البلّورية البندقية، يرتشفه رشفةً رشفةً. كان شراباً من نوع بورتو المعتق مئةً وخمسين سنةً، وكان الأغلى ثمناً، فكل قطرة منه تضاهي ثروةً.
"آه! وأخيراً لا يسعني إلا أن أسعد باقترابنا من نهاية قضية مارتن لوثر. في الحقيقة، وضعه دوق سكسونيا فريدريك الثالث في حمايته، وكلنا نعرف تأثير تعليمات ياووز في هذا. وهو الآن تحت حماية مشددة خوفاً من أي هجوم للمتعصبين لاغتياله. وعلى الرغم من طلبنا المتكرر من السيد الدوق إبعاد لوثر، فإنه كان مصرّاً على اتباع طريقة مغايرة تقوم على الإقناع، وأكثر من ذلك هو نجاح أنطونيو في ذلك. فالأنباء تتوارد عن تخلي لوثر عن بعض آرائه. وقد أومأ فريدريك بأن لوثر ينوي إرسال رسالة يعتذر فيها مني، لكن تصديق هذا صعب حقيقة. فإما إن فريدريك ذكي أكثر مما نراه، وإما إن لوثر قد عاد إلى رشده، لأن الحرمان الكنسي عزله، وتركه وحيداً أكثر مما كان يأمل، وسيكشف الزمن الباقي".
"لقد دعاه رئيس جامعة إنغلوشتات، يوهان إك، إلى مناظرة في موضوع الانغماس. فهل سيتصرف بجرأة ويقبل هذه الدعوة؟".
"طالما أن وراءه دعم العثمانيين فإنه يفعل كل شيء، والقضية الأساسية هي ألا يجري نقاش حول هذه المسألة أبداً يا أنطونيو، ألا تفهم أنه إذا فتحت أبواب النقاش فترة، فإنه يصعب إغلاقها؟ والمذاهب تستمد قوتها في الحقيقة من عدم قابليتها للنقاش".
"إن ياووز خان وضع كل ثقله لإعداد أسطول قوي، ومن غير الممكن معرفة ما يفكر فيه العثمانيون مسبقاً، وقَلَقُ البنادقة الذين يحتلون جزيرة قبرص بلغ حده الأقصى، إنهم يستعدون لعرض زيادة الرسوم، لأن قبرص آخر قاعدة تجارية لهم في شرق البحر المتوسط، ويسوقون جنوداً إلى

الجزيرة لمواجهة أي احتمال، وبلغني أنهم يقومون بدبلوماسية سرية من أجل حشد حلفاء في أوروبا ".
"نحن لن نبقى عاطلين يا عزيزي وابن عمي؛ لم يكن في حسباننا أن يكون العثمانيون هم القوة الوحيدة في عالم الشرق، وتلاشت أحلامنا بعالم إسلامي ممزق، وخرجنا من جهودنا في ذلك بخفي حنين. أما ياووز، فإنه يلعب كما يشاء، حتى داخل الكنيسة، وينجح في تشتيتنا. ومن أجل اتفاق قوي، فإنني ألتقي إسبانيا والنمسا وفرنسا وإنجلترا. ولا يغيب عني أن ياووز يلاحظ هذا، وما اهتمامه الملحّ في مسألة الأسطول إلاّ بسبب استعداداتنا". وضع كأسه على طاولته الخشبية السوداء، وضرب بقبضته على ركبته قائلاً: "لو أننا تخلصنا من هذا الزنديق الذي يسمى لوثر، لكان اتحادنا أسهل بكثير، لأننا مهما عملنا فإن آراءه تنتشر بسرعة وتهز سلطتنا".
تحرك أنطونيو دو مديشي داخل جبته السوداء بهدوء، وعند حديثه كانت ياقته البيضاء تحزز حنجرته البارزة في رقبته الطويلة: "إن قضية لوثر ليست قضية ذات جذور قديمة يا أبانا، فالفاتح جد ياووز انبرى لحماية الكنيسة الأرثوذكسية وقتها، ولعب ضد الفاتيكان ألعاباً مماثلة، ونجح فيها".
وسكت برهة، وهو يراقب طيور الحمام المتجولة في الباحة، ثم سأل بصوت مشمئز: "وماذا تقولون في إهداء القرصان المدعو خير الدين بربروس الجزائر لسليم خان؟ لقد تخلى الرجل عن السلطنة، ورضي أن يكون أميراً بسيطاً".
ضحك جيوفاني دو مديشي بألمٍ وقال: "أقول إنه فعل المعقول يا أنطونيو، وإلاّ لما تركه الإسبان الذين يعلمون كيف يسيطرون على السكان المحليين بسياسات حكيمة هناك منذ زمن طويل. لقد صار بربروس الآن مستنداً إلى جدار متين".
"هذا يعني أن بربروس لا يحسن استخدام ورقة الدين التي بيده جيداً".
"العرق وليس الدين، فما دمت تذكّر السكان بعرقهم، فإن بث الفرقة لن يصعب عليك، لأن للعرق أولوية في حياة الإنسان، ولو كانوا على دين واحد، فإن الأقوام المختلفة في أعراقهم لا تستطيع العيش معاً مدة طويلة يا أنطونيو. طبعاً، عكس هذا الأمر صحيح أيضاً؛ فالذين ينتمون إلى العرق نفسه، لكنهم مختلفون في الدين أو المذهب؛ لا يعيشون مدة طويلة أيضاً. فالمهم هو تفعيل الاختلافات داخل الأمم، وتفعيلها سهل إن كانت لديك جماعة خبيرة قادرة على القيام بنشاطات تجسس، ولا تنسَ أبداً يا أنطونيو أن هذه الدنيا لا تدوم لأحد أبداً".

أمضى السلطان ياووز سليم خان عام 1519 منشغلاً بالاستعداد للحملة وبمعالجة تمرد الشيخ جلال المؤيد للصفويين في طوقات. كان يغضب من النقاشات الحادة التي تقوم بين وزرائه والتي تدور حول جزيرة رودوس، فكان يرى أن الحديث عن الحملة، والاستعدادات الجارية لفتح الجزيرة التي استعصت على جده الفاتح، غير كافيةٍ. ففي نظره لم يكن هناك أسطولٌ يكفي للحملة، إلاّ أنه لم يستطع أن يصمد أمام الإصرار، فوافق على حملة رودوس، فتوترت علاقته مع علماء الدين هذه المرة؛ فعلماء السنة الذين احتلوا مكانةً كبيرةً في الإدارة؛ احتجوا بالاضطرابات في الأناضول، ورأوا قيامه بحملة كبيرة على الشاه إسماعيل. فلم يكن من ياووز خان وقد تملكه الغضب إلا أن ألغى حملتَي رودوس وفارس من برنامجه تماماً، وادّعى أن أوروبا تعد حملة صليبية ضخمة، وقد حان وقت عرض العضلات أمام أوروبا، فاتخذ قراراً بذلك. كان يعد استراتيجية جديدة، ويقوم بحملة تجمد دماء أوروبا في عروقها.

في الفترة الأخيرة كان يشكو من أفراد بطانته الذين لم يعودوا يفهمونه؛ نعم، لم يتمكنوا من فهمه، حتى حسن جان، كان يكتفي بالتظاهر بمظهر المتفهم ويوافق. بيد أن كنعان باشا وهمدم باشا؛ هل كانا كذلك؟ آه أيتها الأيام! إنهما كانا يشعران بما في عقلك قبل أن تقول شيئاً، فكانا يُكسِبان خططه شكلها النهائي بوضع اللمسات الأخيرة عليها.

دخل سليم خان سنة 1520 بقوة كما في كل وقت، لكنه كان يضطر إلى معايرة جرعات استعداداته مؤخراً. فقد صار يتعب سريعاً، في علامة شيخوخة يصعب عليه رؤيتها. لقد أمضى في الحقيقة حياة مرهقة على صهوة الحصان وفي الحروب، من دون أن يعاني مرضاً خطيراً، حتى حينما أراد أن يخرج في طريقه إلى أدرنة التي يحبها كثيراً.

في ذاك اليوم، عبر هو وحسن جان ممرات قصر طوب قابي المعتمة المليئة بالمتاهات ذات رائحة الدخان المتداخلة بخطواتٍ متثاقلةٍ. تجولا كثيراً وهما يتحدثان عبر ممرات الحديقة الخاصة الضيقة ذات التربة الحمراء بأزهارها المتنوعة الملونة، والتي تثير خيالاً بسلطنة مختلفة.

"ليست غاية هؤلاء الآن سوى تشكيل حلف قوي يا حسن جان. لقد شعروا بما سيحيق بهم، لقد وفقني الله في إفشال جميع خططهم التي خططوا لها في بلاد الإسلام، وامتلأت خزائننا. إن تنازل المتوكل الثالث عن الخلافة لنا في آيا صوفيا رسمياً في مراسم، بحضور ممثلين أجانب، يعني أنه إتمام بناء الوحدة الإسلامية".

- كلما كنا أقوياء، كان الغرب عاجزاً عن تنفيذ المؤامرات ضد العالم الإسلامي.
- صحيح ما تقوله يا صديقي حسن جان.
- أمركم يا سلطاني.
- منذ زمن طويل أحس في ظهري بحكة ووخزة، ربما دملة أو حبة.
توقف حسن جان فجأة. جالت نسمة خفيفة بين ثنايا قفطانه من القمحا جعلته يشعر بقشعريرة رهبة غامضة، وتعرقت كفاه من دون سبب.
- خيراً إن شاء الله يا مولانا، لم أسمع حتى اليوم أي شكوى حول صحتكم.
- إنك تبالغ، هيا انظر فقط.
خلع سليم خان قفطانه، كما خلع قميصه الأبيض الناصع عن حزامه، وكشف عن ظهره، فرأى حسن جان دملة كبيرة محمرة تحت عظم كتفه اليسرى:
- نعم، صدقت يا سلطاني، ربما كانت مجرد دملة. مدّ يده وتلمّس، ثم سحب يده فوراً.
- خيراً؟ ماذا ترى؟
- يبدو أنها دملة بسيطة لكن حوافها ليست حمراء، وهي قاسية جداً، كأنها تنشر حرارة من تلك النقطة إلى جسمك كله.
- حسناً، حسناً، اعصرها لتزول.
- الأمان يا مولانا السلطان، فلندع الطبيب يكشف عليها، فحين لمستها لم تبدُ لي شيئاً بسيطاً.
- أي طبيب يا حسن؟ قلت اعصرها.
- مولانا السلطان، إن هذا النوع من البثور إذا عُصرت قبل اكتمالها، يمكن أن تسبب مشكلة في ما بعد. فلو صبرتم قليلاً، لاستدعيت كبير الأطباء فوراً.
رفع سليمان خان رأسه في غضب أناس غير عاديين، يفكرون دائماً في آفاق واسعة، وبدأ يلملم نفسه، وقال: "أصبحت تخلط بيننا وبين الأمراء الذين يدرسون في الغرف الدافئة يا حسن جان".
قال حسن جان بأدب وقد أحنى رأسه: "حاشا يا مولانا السلطان، فلأذهب إلى الحمّام، ولأطلب من المدلكين عصرها بالخيط".
وسكت حسن جان، لأنه يعرف أنه يجب ألاّ يلح أكثر.
(*)

لاحظ سليم خان عندما استيقظ صباحاً أن الألم الذي خف مدة مؤقتة ليلاً، قد زاد كثيراً. لم تكد تمضي أربع وعشرون ساعة حتى اتسع الجرح، وتفتح. عندما جاء إليه حسن جان ورأى الجرح، استدعى رئيس الأطباء فوراً.

أمضى حسن جان أيضاً ليلة سيئة، فقد تصارع مع كوابيس مختلفة كثيرة. كان سليم خان يقوم ويقعد بصعوبة، وعلى الرغم من الخلطات، والمعاجين الجديدة، التي قدّمها كبير الأطباء وحبوبه، لم يتوقف ألم الجرح، ولم يتوقف تمدده واتساعه. وفي اليوم التالي، اتخذ الجرح شكلاً وخيماً أكثر، وفي نهاية ليـلة مقلقة ومؤرقة؛ بدا أن سليم خان كان مرهقاً جداً عندما حضر إلى الديوان.

قال بصوت متعب: "لا شيء يثير القلق. ليستمر بيري محمد باشا في استعداداته للحملة، وليخرج على رأس الجيش السلطاني في أقرب وقت نحو أدرنة، سألحق بكم، يلزمني فقط القليل من الراحة، وهذا كل ما في الأمر".

(*)

في 18 تموز 1520 م تحرّك الجيش السلطاني نحو أدرنة، إلاّ أن صحة سليم خان متروكة لتدابير القدر، وكانت قوته تضعف يوماً بعد يوم، مما يؤدي إلى مزيد من التوتر في الجيش. وعلى الرغم من كل شيء، ضاق السلطان ذرعاً بالمقام، ولم يعد يتحمل أكثر، فخرج بحالته السيئة، في أواسط شهر آب، وشق طريقه لقيادة جيشه. ولم يستجب لتحذيرات أطبائه ووزرائه، ورفض ركوب عربته، مصراً على امتطاء حصانه. كان يعتقد اعتقاداً راسخاً أن النوم والقيام هكذا، كان سبباً في تقدم مرضه، وإذا تحرك؛ فإن تلك الحبة المخيفة التي تكبر في ظهره يوماً بعد يوم، ستزول.

كان جنود القوات الخاصة يعزون فترات الاستراحة المتكررة إلى حرارة الجو، لكن غرابة الأمر كانت ظاهرة. التفت إلى حسن جان وكان يرافقه، وقال له:

- لم نسمع كلامك، وأتلفنا أنفسنا.

أجابه بصوت مرتعش حاد بدرجة غير متوقعة:

- هذه المرة، أنتم تبالغون يا مولانا السلطان. ليس فيكم شيء، لم يتم الجرح دورته في تفريغ قيحه، والجفاف، لا تهتم.

- إن هذه البثرة إشارة لجرح أعمق يا حسن جان. فكلما خرج جرح يأتي من تحته جرح آخر، وإن لم يضع كبير الأطباء تشخيصه حتى الآن، فإنني

أخشى أن يكون ظني في مكانه.
- وما هو ظنكم يا مولانا السلطان؟
- بدت على شفتيه ابتسامة مرهقة قبل أن يقول: "دعك منه الآن. ما زال أمامنا الكثير لنفعله، أليس كذلك؟".
تكلم حسن جان بحماسة وسرور قائلاً: "العالم ينتظر أن يتفيأ في ظلكم في فتوحات جديدة يا مولاي".
- أخشى أن يكون ظلنا مثل ظل رجل في شمس المغيب يا أخي: طويل القامة، قصير الأجل.
قال كمال باشا زاده الذي سمع طرفاً من الحوار وهو يقترب من خلفهما: "لا تقولوا ذلك يا مولانا السلطان، لا تتحدثوا هكذا، وتهزوا معنوياتنا ومعنوياتكم هكذا. حدثونا عن الحملة الجديدة، وافتحوا لعبيدكم آفاق رؤيتكم حتى النهاية".
كان يبدو له أن سليم خان ينسى قليلاً من اضطرابه الناتج عن مرضه وآلامه، عندما يبحث في المسائل اليومية، وعن عالم الغد، والطموح والآمال. واستمر فترة أخرى يبذل من جهده ما يأخذ بالألباب حتى يبدو ما يخفيه عن الجنود والمحيطين به، لكنه حين جاء إلى ذكر موقع كريشتران في قرق قلة لار إيلي، حيث دخل في معركة مع أبيه من أجل العرش، شعر بأن نَفَسَهُ وقوته قد أشرفا على الانهيار. أمر بنصب الخيمة السلطانية، وابتعد عن الأنظار المتلهفة راكباً حصانه برفقة حسن جان، وسارا على امتداد الماء الجاري مدة.
"انظر يا حسن إلى حال هذه الدنيا، وانظر جيداً، كم هي جميلة، وكم هي غير ذات معنى، هل تحس مثلي برائحة هذا الماء الجاري وهذه المروج المسحوقة والأزهار التي تتجدد يوماً بعد يوم طيلة الصيف، والتي تحملها الرياح الدافئة؟ هذه الروائح تحيي في داخلي الماضي كله". ضحك ضحكة طفولية لم يسبق أن رأى مثلها حسن جان، وأضاف: "لم أعد أفكر في المستقبل في الساعات الأخيرة يا حسن. إن فيّ شيئاً ما، إنها حالة سفر، كأنني أنظر إلى صورتي في الماء، إن هذه الدنيا عكرة جداً، وغير واضحة، ومحتارة". كان يسعل حتى يكاد يختنق، سدّ فمه، ثم جفف شفتيه بمنديله، واستمر في حديثه المرهق: "كم من القادة هلكوا في سبيل هذه الدنيا!؟ وليشهد الله أن آل عثمان، يا حسن جان، لم يسعوا لمجرد حكم العالم فقط، وسيرى ذلك في آخر الزمان، كتّاب التاريخ المنصفون ولو كانوا قلائل. إننا استلمنا لواءً، وهو لواء إعلاء كلمة الله، فكما ترك الصحابة

الكرام أوطانهم ومساكنهم بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم، ليحملوا هذا اللواء إلى أرجاء الدنيا الأربع، مجاهدين بحياتهم وأموالهم في سبيل الله؛ كان هذا هدفنا نحن أيضاً، أنا وآبائي، ألم نخطئ قطّ؟! ألم تكن نيتنا سيئة أحياناً؟! هل كنا من دون أخطاءٍ؟! لا، البتة، لا يا أخي العزيز، لا. بل مثل هذه الأسئلة كم تبدو عبثاً بالنسبة إلى مجرم مثلي. إنما أتحدث إليك عن المبادئ فقط.

"إن حساسيتكم هذه كلها بسبب مرضكم يا مولانا السلطان، فاستريحوا قليلاً".

قال سليم خان بحدة: "لا، ليست هي الحساسية بسبب مرضي، فقط لساني لا يمسك نفسه، وينفتح إليك منكراً طبعه الكتوم".

عادا خلف أحد قادة الإنكشاريين وقد جاء يخبره أن الخيمة السلطانية أصبحت جاهزة. ترجل سليم خان عن حصانه قره دومان المحبوب للمرّة الأخيرة بحركاتٍ قويةٍ سريعةٍ، وصهل الحيوان بهدوء، وكأنه أدرك حال سيده، وتحرك في بريق عينيه الكبيرتين حزن خفيف. مدّ سليم خان يده وداعب وجه صديق روحه الأشهب، ثم دخل الخيمة السلطانية بخطى ثابتةٍ، ونظر لحظة إلى رَحلَتِهِ وطاولته التي تكدست عليها الخرائط، وكتبه بحسرة، ثم ارتمى بهدوء على فراشه؛ كان ذلك في العشرين من آب.

كاشفه رئيس الأطباء أحمد جلبي بتشخيصه مساء اليوم نفسه قائلاً: "إنه الجمرة الخبيثة يا مولانا السلطان".

- وهذا ما كنت أفكر فيه أيضاً.

هزّ رأسه على جانبيه بعبارة حزينة وقال: "ليس لها دواء في أيامنا يا مولانا السلطان، ولكن يجب ألا نيأس من رحمة الله، عليك بالراحة التامة، وألا تهمل الضمادات، لعل الجرح يندمل من تلقاء ذاته".

إلاّ أن سليم خان ظل في هذا الموقع أكثر من شهر. فأطباؤه لم ينصحوه بركوب العربة ولا الخيل، ووصل أخيراً بحالته هذه التي لا تبعث على السرور، في مدة قصيرة من أدرنة إلى إسطنبول. كان يشعر بالراحة أحياناً فيقوم، وقد ذابت عضلاته المهيبة تلك بسرعة، كما ذبل جسمه وارتخى بعد أن كان يشع بنور يشع من داخل جسمه القوي. لقد بدأ الأمل في التداوي يتلاشى. وأخيراً، استدعى الصدر الأعظم بيري محمد باشا الموجود في أدرنة، وأمير أمراء روم إيلي أحمد باشا إليه، كما استدعى ابنه الشاهزاده سليمان وكان أميراً على سنجق مانيسة آنذاك.

(*)

من يوميات حسن جان:

الخميس 8 شوال 926

أثقله المرض كثيراً في الآونة الأخيرة، حتى إنه كان ينام ساعاتٍ طويلةً من غير أن يشعر بما يجري حوله، لكنه استطاع أن يملي وصيته للصدر الأعظم بيري محمد باشا الذي قدم من أدرنه. أما ولده سليمان، فإنه لن يصل قبل خمسة أيام، ولا أظن، والله أعلم، أن عمره يطول حتى رؤيته.

خرج الصدر الأعظم بيري محمد باشا من عنده بعينين دامعتين، وهو يقول لي: "الرجل المريض المتمدد على فراشه الآن، تسلم الحكم من أبيه، في دولة عثمانية كانت مساحتها آنذاك 2.375.000 كيلومترٍ مربّعٍ، فبلغ بها 6.557.000 كيلومترٍ مربّعٍ، ووحّد الأمة الإسلامية، ونزع الخلافات في ما بينها، وسهل للناس طرق التجارة، وأمن طريق الحج، وآمنه من المخاوف، لم يمرح في القصور مع الجواري، بل كان مع جنده في ساحات الوغى، لم يأكل في الأطباق الفاخرة أنواع الأطعمة، بل لوناً واحداً من الطعام في طبق من الخشب. عاشت الدولة العثمانية عصرها الذهبي ثماني سنين في خلافته، ونحن مدينون لهذا السلطان المتواضع بالشكر والاحترام".

الجمعة 9 شوال 926

لم يتغير شيء في صحته، وكالعادة دخل الذين يضمدون دملته التي في ظهره، لم أكن أحتمل رؤيته على هذه الحالة، كيف لهذه الدملة أن تأكل هذا الجسد العظيم؟! وعلى شدة الألم والوجع استيقظ من غيبوبته، ورآني أمامه، فقال بصوت متقطع ومتألّم: "حسن جان، ما حالتي هذه؟". فقلت: "يا مولانا السلطان هذا وقت الاتصال بالله".

فقام بغضب مستنداً إلى يديه، وللمرّة الأولى يصيح بأعلى صوته في وجهي: "وهل تظن أننا كنا بعيدين عن الله؟ وهل رأيت فينا تقصيراً في حق من حقوق الله؟". فقلت والدموع تنهمر من عيني: "حاشا يا مولاي، كل ما أردته أنكم في وقت يختلف عن الأوقات الأخرى". فهدأ وتمدد من جديد، وهو يقول: "سأتلو سورة يس، فساعدني فيها عندما أعجز".

وبدأ يقرأ القرآن، والخشوع يخيم علينا، وكأن النور ينبعث من فمه وهو يقرأ، وفجأة ينقطع صوته ويسكت، ويخيم الهدوء والسكون على أرجاء القصر، فإذا الأطباء والوزراء يسرعون إلى الغرفة، فلعله أغمي عليه.

الأحد 11 شوال 926

توفي السلطان العثماني التاسع، وخليفة المسلمين الرابع والسبعون، السلطان سليم خان، في الليلة التي تربط يوم 8 شوال بيوم 9 شوال عام 926،

ويوافقه بالميلادي 22 أيلول 1520، عفا الله عنه وغفر له، وتكتمنا على خبر وفاته عن الجيش حتى وصول ولده سليمان إلى إسطنبول. لم أعش مثل هذا القدر في حياتي، فالقسم الأكبر من الجيش المعسكر في أدرنة، كانوا قد سئموا من طول انتظار خبر صحة السلطان، فتمردوا على قادتهم، وانتقلوا إلى قركلر إيلي Kırklareli، فلما بلغهم خبر الوفاة، ارتفعت أصوات البكاء والنحيب من الجنود والباشوات والقادة حول مقر القيادة، بل تجاوز بعضهم إلى لطم الخدود والرؤوس وشد الشعر وشق الجيوب.

كان حرس الخاصة بوجوههم الصارمة وقبضاتهم الحديدية والذين لا يتأثرون بشيء، يحملون على عاتقهم منع الناس الذين يحاولون الدخول إلى مقر السلطان. أما أنا فقد بقيت في مكاني نائماً بلا وعي، وعندما استيقظت شعرت بأنني سفينة شراعية كبيرة مستقرة في أعماق المحيط، يلفني صمت مطبق عميق، عندما حاولت أن أنهض كانت في يدي ورقة. ورقة تحمل توقيع كمال باشا زاده فيها بيتان من الشعر:

كان شمس العصر في وقت الغروب

ظله طويل وعمره قصير

43 أوجاق : الموقد ، وهو يرمز إلى مجمع العائلة ، والعشيرة ، والطائفة ... والجيش العثماني كان يتأل ّف من عدة طوائف يدعى كل منها أوجاق . فالإنكشارية أوجاق ، والعزب (فلاحو التيمارات) أوجاق .